المجلس الأعلى للثقافة
أبو حيان التوحيدي
٩ - ١٢ اكتوبر ١٩٦٥
المكتبة العربية
خلاصة التوحيدي
مختارات من نثر أبو حيان التوحيدي
اعداد وتقديم :
جمال الغيطاني
المجلس الأعلى للثقافة



خلاصة التوحيدي

مختارات من نثر أبو حيان التوحيدي

اعداد وتقديم :
جمال الغيطاني

المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

خلاصة التوحيدى

أكتوبر ١٩٩٥ ـ القاهرة

الخطوط للفنان :

حامد العويضى

الاخراج الفنى :

سيد عبدالخالق

مقدمة

أخـى الذى لم أره !

المعايشة والصحبة ..

محوران أساسيان يحطمان علاقتى بالنصوص التراثية وأصحابها ، فما أن يبدأ ارتباطى بأديب أو مؤرخ أو متصوف أو رحالة حتى تتبلور عناصر الصلة ، وأبدأ المعايشة ، أحتفظ بالمتن على مقربة منى ، وفى الأغلب الأعم يكون فوق مكتبى الذى أجلس إليه جل وقتى ، فإذا فرغت من القراءة الأولى أعود إلى تلك الفصول أو الأجزاء أو المقاطع التى توقفت عندها ، ثم أفرغ الى كتب أخرى ربما تشرح أو تقرب أو تفسر ذلك المتن الذى بدأ تعلقى به ، وقد أقدم على نسخ صفحات منه فى كراسات خاصة أحتفظ بها لذلك الغرض ، وقد علمتنى التجربة أن ما تنسخه اليد يكون ألصق بالذهن ، وأثبت فى خلايا الذاكرة مما أكتفى بقراءته فقط ، ومازلت أذكر ترددى على دار الكتب المصرية ، فى مقرها المهيب ، القديم بميدان باب الخلق ، وقاعة القراءة الفسيحة ، نقية الضوء ، عندما كان يقدم الموظفون لمساعدتى وإرشادى حتى أن أحدهم كان يدعونى لمعاينة أحدث ما وصل إلى الدار من كتب لعلنى أجد بعض ما أبحث عنه . حتى إذا أعجبنى كتاب ولم يكن بمكنتى فى ذلك الوقت شراؤه لمحدوديةما عندى . أقدمت على نسخه حتى يمكننى إقتناؤه . ما نسخته باق فى ذهنى ، تمسك به ذاكرتى أكثر مما اكتفيت بقراءته .

وأثناء جهادى لاستيعاب المعانى ، أتخيل الكاتب ، أقرأ عنه ، مع الوقت أرسم له صورة فى ذهنى ، ثم تدب الحياة فيها ، فأشهده كأنه أمامى ، أحاوره أحيانا وأصغى إليه عبر فواصل الزمن السحيقة .

هكذا ارتبطت بعدد من أعظم الشعراء والناثرين فى تراثنا العربى ، حتى لأعدهم شيوخى وأعوانى .

الشيخ محمد أحمد بن اياس الحنفى المصرى صاحب بدائع الزهور فى وقائع الدهور . تقى الدين المقريزى .

الجبرتى

لسان الدين بن الخطيب

الجاحظ

بديع الزمان الهمذانى

الحريرى

المسعودى

الثعالبى

الأصبهانى

الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى

الشيخ عبدالكريم الجيلى

شعراء عديدون من العصر الجاهلى وحتى وقتنا هذا ، وشيخ أجل ، توقفت عنده وأمامه ، وصحبته فى وقتى وأمكنتى التى أرحل إليها ، إنه أبوحيان على بن محمد بن العباس التوحيدى ، أحد أعظم الناثرين فى تاريخ الأدب العربى ، وأحد أئمتى وشيوخى فى اللغة والابداع .

علاقة ممتدة

لا يمكننى تحديد التاريخ الذى بدأت به الصلة ، فكثير من الكتب تستقر وقتا طويلا فوق أرفف خزانتى قبل أن أقترب منها وأشرع ، وأحيانا تمضى سنوات ، المهم .. أن يكون المتن على مقربة ، حتى إذا ما احتجت إليه لا أتكلف مشقة البحث أو السعى ، فما من أمر يكلفنى نصبا مثل بحثى عن كتاب لمدة طويلة ، وخلال أربعة عقود من الزمان خبرت سوق المخطوطات والمطبوعات العتيقة . وأصبح لى من رجالها خبراء وأعوان أستعين بهم على الوصول إلى ما يمكن أن يشق علىّ وجوده . ومنذ سنوات طويلة تتجاوز الربع قرن ترقد مؤلفات أبوحيان على مرأى منى ، وإلى جوارها العديد من الدراسات التى أخرجتها المطابع عنه ، وبدأ تعرفى به بعد اطلاعى على الامتاع والمؤانسة لكننى لم أتعلق به كثيرا . فالكتاب أحد المراجع التى تضم المسامرات ، والمعارف ، وإن لفت نظرى روح مغايرة ، وأذكر أننى توقفت مطولا أمام أسماء عدة نسب إليها أبو حيان المشاركة فى تأليف « رسائل اخوان الصفا » وكنت شديد التعلق بهذا المتن . دائم الإبحار فى لجيه الغامضة . إلى أن تعرفت فى نهاية السبعينات بصاحب تونسى يقيم فى فرنسا ، درس ويدرس بها ، هو الدكتور عبدالله شيخ موسى كنا فى زيارة إلى مكتبة ابن سينا المتخصصة فى الكتب العربية والتى يديرها صديق لبنانى نشط ، تقع فى مواجهة جامعة باريس الخامسة (أحد فروع السوربون) وعلى مقربة من معهد العالم العربى . أشار عبدالله إلى كتاب « الاشارات الالهية » على الرف ، تحدث عن خصوصية السرد فيه واختلافه عن أساليب السرد القديمة ، بمجرد عودتى إلى القاهرة شرعت فى قراءته . ومنذ توغلى عبر صفحاته الأولى يمكن القول اننى لم أفارقه حتى الآن ، وأن علاقتى بالتوحيدى بدأت وظلت تتوطد حتى الآن حتى أصبحت احدى مكوناتى الأساسية ، وقبل التوقف أمام مؤلفاته ، أفضل أن أذكر قبسا من سيرته .

ملامح شخصية

للأسف ، لم يحتفظ لنا التاريخ بملامح التوحيدى الشخصية ، لم يصفه المعاصرون ، ولم يذكر ملامحه الذين أرخوا له أو ترجموا . لكننى من خلال سطوره أكاد أستشف حضوره ، مهيبا ، قلقا ، ربما أميل إلى الطول ، مهابته خاصة ، مصدرها مضمون روحه الخصبة ، وثراء ثقافته ، وغزارة علمه ، ينازعها اضطراره إلى معايشة ظروف تتناقض مع شخصه ، مع قيمته كما يراها فى الواقع ، وكما هى عليه فعلا ، وهذا حال غالب على معظم عباقرة الثقافة العربية ، إدراكهم لقيمة مواهبهم ، واضطرارهم إلى طرق سبل شتى لضمان العيش ، ولنا فى سيرة المتنبى الذروة فى هذا التناقض . ولعل ذلك سار حتى الآن ، فالجوهر واحد .

من هو أبو حيان التوحيدى ؟

إننى أفضل الرجوع إلى أقدم المصادر للتعرف عليه ، فلنلجأ الى واحد من اشهر مصادر تراجم الأدباء ، « معجم الأدباء المعروف بارشاد الأريب إلى معرفة الأديب » لياقوت الحموى . ماذا نجد ؟

أصلـــه

يقول ياقوت :

« على بن محمد بن العباس » أبو حيان التوحيدى ، شيرازى الأصل ، وقيل نيسابورى ، ووجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطى ، صوفى السمت والهيئة ، وكان يتأله والناس يقولون فى دينه ، قدم بغداد فأقام بها مدة ، ومضى إلى الرى ، وصحب الصاحب أبا القاسم اسماعيل بن عباد ، وقبله أبا الفضل بن العميد فلم يحمدهما . وعمل فى مثالبهما كتابا ، وكان متفننا فى جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة ، وكان جاحظيا يسلك فى تصانيفه مسلكه ويشتهى أن ينتظم فى سلكه ، فهو شيخ فى الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ، وعمدة لبنى ساسان ، سخيف اللسان ، قليل الرضى عند الإساءة إليه والاحسان ، الذم شانه والثلب دكانه ، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية ، وكان مع ذلك محدودا ، محارفا يتشكى صرف زمانه ، ويبكى فى تصانيفه على حرمانه ، ولم أر أحدا من أهل العلم ذكره فى كتاب ولا دمجه فى ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجاب ، غير أن أباحيان ذكر نفسبه فى كتاب « الصداقة والصديق » وهو كتاب حسن نفيس .

ثم يذكر ياقوت مؤلفات أبى حيان ومنها : كتاب رسالة فى الصديق والصداقة ، كتاب الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى .

كتاب الامتاع والمؤانسة جزءان .

كتاب الاشارات الالهية جزءان .

كتاب الزلفة .

كتاب المقابسات .

كتاب رياض العارفين .

كتاب تقريظ الجاحظ .

كتاب ذم الوزيرين .

كتاب الحج العقلى اذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى .

كتاب الرسالة فى صلات الفقهاء فى المناظرة .

كتاب الرسالة البغدادية .

كتاب الرسالة فى أخبار الصوفية .

كتاب الرسالة فى الحنين إلى الأوطان .

كتاب البصائر وهو عشرة مجلدات ، كل مجلد له فاتحة وخاتمة ، كتاب المحاضرات والمناظرات .

***

للأسف ، أحرق أبو حيان كتبه كلها فى نهاية حياته ، ولم يصلنا منها الا عدد قليل ، نشر كله فيما عدا المجهول الذى لم يكتشف بعد . ما نشر هو :

- الإمتاع والمؤانسة .
- ما وصلنا من البصائر والذخائر .
- ماوصلنا من الاشارات الالهية .
- المقابسات .
- الهوامل والشوامل .
- مثالب الوزيرين .
- رسائل أبى حيان ومنها : رسالة السقيفة ، رسالة الحياة ، رسالة فى الكتابة ، ورسالة فى تصنيف العلوم .

***

هذا ما وصل إلينا من مؤلفات التوحيدى . لعل القادم الآتى من الزمن يكشف لنا بعضا مما ختفى أو تبدد ، لكن .. يبقى السؤال ، من هو أبو حيان ؟

لماذا تحامل عليه القدامى وبعض المعاصرين ؟

لماذا أحرق كتبه ؟

أى حال بلغ به هذا الحد المفزع ؟

كل سؤال يحتاج الى وقفة مطولة .

***

للأسف ..

لا تشفع الموهبة لصاحبها فى تاريخ الثقافة العربية وحتى حاضرها المعاصر ، يستوى الأمر عند ظهورها أو بعد ثبوتها ، ومن خلال تأملى لسير المبدعين الكبار ، شعراء كانوا أو ناثرين أو فلاسفة أو علماء ، نلمح ذلك الصراع المستتر أحيانا ، الظاهر فى معظم الأحوال ، بين أصحاب المواهب ، وبين أصحاب الشأن ، بين الأديب وصاحب الثروة ، أو السلطة ، على الشاعر أن يسعى دائما كالمتسول الى هذا الملك أو ذلك السلطان ، لينظم مدائحه ، وليستجدى الرضا والدرهم أو الدينار حتى يمكنه العيش ، حتى لا يموت جوعا ، يستوى فى ذلك أى شاعر صغير أو المتنبى أو البحترى أو أى قامة كبرى ، وحتى يحل الشعراء هذه المعضلة ، اضطرارهم إلى المديح كى يعيشوا ، كى يلتمسوا الأمان ، لجأوا الى بدء قصائدهم بالنسيب ، بالغزل ، وهنا يعبر الشاعر عن ذاته بصدق ، حتى إذا وصل إلى الحد الذى يتذكر أو يعى فيه أن المديح تأخر ، أو .. يجب أن يبدأ ، ينقلب على الفور وتبدأ الصنعة ويبدأ الافتعال ، وإذا أعدنا قراءة الشعر العربى سوف نجد هذه الظاهرة ، وبالنسبة لى ، عندما أعيد قراءة ما أحببته من شعر القدامى ، فاننى أكتفى بقراءة الأجزاء الأولى حيث التلقائية والصدق ، حتى إذا ما وصلت إلى بدايات المديح لا أكمل ، حتى لو كان مديح المتنبى لسيف الدولة الذى كان معجبا به حقا . فى أحيان نادرة كان الشاعر يصيغ مديحه متضمنا ذما خفيا ، كما فعل المتنبى عند مدحه كافورا .

مهما عظمت قامة الأديب ، فإنه مضطر إلى خطب ود ذوى الجاه والسلطان ، ومن هنا وجد بعض أصحاب الرؤى الثاقبة ، والمواهب الاستثنائية أنفسهم فى تناقض فظيع ، فمن ناحية يشعر الواحد منهم بذاته ، ويدرك تفوقه ، وتفرده ، وما يمكن أن يقدمه ، لكنه فى نفس الوقت مضطر إلى الوقوف بأبواب القصور ، وطرقها بأدب ومذلة ، فإذا ما سمح له فإنه يقعى أمام صاحب الجاه ، ينشد المديح ، أو ينظم ما يطلب به الود ، ويثير الرضى عنه ، وقد يتحول إلى ما يشبه بالهلوان ، عندما ينظر اليه صاحب الجاه ويشير الى شمعة أو تفاحة أو شىء ما ويطلب من الشاعر أن يقول شيئا على الفور ، يمتحن بذلك بديهته وقدرته ، ولا تخلو كتب التراث العربى من هذه الوقائع السخيفة التى تعكس رؤية معينة للثقافة ، للموهبة ، رؤية تعتبرها حلية أو لعبة لقضاء الوقت ، أو وسيلة لدعم المكانة ، وهذه النظرة سارية ، مستمرة إلى الآن . ولاشك أنها من أهم أسباب التدهور الثقافى .

***

من الأمور اللافتة للنظر انشغال القدامى وبعض المحدثين بتحقيق نسب الأديب ، وألاحظ فى كتب التراجم على اختلاف القرون كلها ، ذلك التقدير الذى يشنه صاحب الكتاب للشاعر أو الفقيه أو العالم إذا كانت شجرة نسبه كريمة تنتهى إلى أصول نبيلة . وفى دراسة حديثة من قرننا نقرأ ذلك الجهد الذى بذله الأستاذ محمود محمد شاكر ليثبت لنا أن المتنبى لم يكن والده سقاء يملأ قرب الماء ويوزعها على البيوت ، وكأن مكانة المتنبى ستنتقص لو أن والده كان سقاء فعلا .

هكذا اهتم القدماء والمحدثون أيضا بأبى حيان التوحيدى ، فراحوا يبحثون عن أصله ونسبه ، ولقد نظرت فى مؤلفات أبى حيان ذاتها لأتبين تفاصيل حياته ودخائلها ، وبعكس المؤلفين العرب القدامى ، أدلى الرجل بالكثير من التفاصيل التى تنبىء بما كان عليه ، وتشير إلى أحواله ، يقول فى البصائر والذخائر :

« إن عمى كان قاعدا فى بعض العشيات فى قطيعة الربيع ، فاجتزت به متوجها إلى مجلس أبى الحسن بن القطان الفقيه الشافعى ، فقال له جلساؤه : ان ابن أخيك يا أبا العباس مجتهد فى طلب العلم يغدو ويروح ، ولقد سمعنا منطقه فاستأنسنا به ، وقد كتب الحديث الكبير وسافر ، وتصوف ، فقال للجماعة : هذا كله كما تقولون ، ولكن له عيب واحد ، قالوا : وما هو ؟

قال : يأكل فى كل يوم أربعة أرغفة ، فورد على الجماعة ما حيرها وأضحكها » .

فقد أبو حيان والديه مبكرا ، وكفله هذا العم القاسى ، ولا نقرأ عن طفولته ، أو عن صباه ، بل أننا لانجد فى كتبه التى وصلتنا أى اشارة إلى أسرة ، إلى زوجة ، إلى ابن أو ابنة ، وأكاد أوقن أنه عاش وحيدا تماما ، منذ طفولته ، وصباه ، وحتى شيخوخته .

عاش غريبا ومات غريبا .

هذا أهم مدخل لفهم أبو حيان والاحاطة بمكنونه ، لقد بدأت غربته مبكرة باليتم ، واكتملت عبر مراحل حياته ، خاصة مع ادراكه لذاته ، وقيمته ، واضطراره فى الوقت نفسه إلى السعى هنا وهناك ، إلى طرق أبواب العماد وابن العميد وغيرهما ، وعبر عن غربته بعمق لم أعرف له مثيلا فى الأدب العربى ، أو الأجنبى ، ولكم اقرأ مثل السطور التالية بصوت مرتفع :

« فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنسا بالوحشة ، قانعا بالوحدة ، معتادا للصمت ، ملازما للحيرة . محتملا للأذى ، يائسا من جميع ما ترى » .

أتوقف وأشعر بزفراته الحرى تدركنى بعد ألف عام ، فأشفق وأحنو وأكاد أقول بنطقى المسموع .

« آه يا أخى الذى لم أره .. » .

لقد وردت سطوره السابقة فى كتاب « الصداقة والصديق » وهو من أجمل كتبه وفى تقديرى أن هذا الكتاب ما هو إلا رسالة حنين جارفة إلى الصديق الذى لم يعرفه أبو حيان ، إنه تعبير عن احتياجه إلى الصداقة ، إلى الآخر الذى لم يعرفه قط ، ولم يعرف حنوه ، وفى مقدمة « الصداقة والصديق » نقرأ تعبيرا حادا ومؤثرا عن الغربة ، وكأنه ينبه بشكل غير مباشر إلى أهمية معنى الصداقة بوصفه حال وحدته وشدة وحدته .

بدأ أبوحيان يتيما ، عصاميا ، ولو أن ثقافتنا العربية تحترم الموهبة لصار جهد أبى حيان من أجل تحصيل العلم وتكوين نفسه مثالا يحتذى ، ودرسا يلقن لمن هم فى بداية الطريق ، لكن جرى التعتيم عليه ، حتى إن القدماء والمحدثين لم يختلفوا على شخصيته كما اختلفوا حول نسبه وتاريخ ميلاده ، وتاريخ وفاته ، لم يصل من أخباره إلا القليل ، والقدر اليسير ، وكما يقول ياقوت فى معجمه ، « لم يذكره أحد فى كتاب ولا دمج فى خطاب » .

غير أن أبا حيان لم يكن نصيبه التجاهل فقط ، ولكن التشويه أيضا .

***

يكفى أن أقدم نموذجا لبعض من ترجم له ، فى كتاب « سير أعلام النبلاء » تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ، المتوفى سنة ٧٤٨ هجرية أى بعد أبى حيان بحوالى ثلاثة قرون ونصف ، يقول فى مطلع الترجمة :

« الضال ، الملحد ، أبو حيان ، على بن محمد بن العباس ، البغدادى ، الصوفى ، صاحب التصانيف الأدبية والفلسفية ، ويقال ، كان من أعيان الشافعية ...» ..

أما ابن الجوزى فيقول : « زنادقة الإسلام ثلاثة ، ابن الراوندى ، والتوحيدى ، والمعرى ، وشرهم التوحيدى لأنهما صرحا ولم يصرح » .

وهنا نتوقف أمام ظاهرة أخرى فى ثقافتنا العربية ، وهى ظاهرة الاشاعات ممتدة المدى التى تعبر القرون والدهور المتعاقبة ، فيكفى أن يطلق أحد الموتورين اشاعة ما ، وتتردد بعض الوقت إلى أن يقدم أحدهم على تدوينها ، فتبدو كحقيقة ، وربما كانت أشهر اشاعة من هذا النوع ما قيل عن ادعاء أبى الطيب للنبوة ، حتى صار اسمه « المتنبى » ، مع أننى قرأت ديوانه الذى رتبه بنفسه ، وحاولت

جاهدا أن أعثر ولو على تلميح خفى ، غير أننى لم أجد ، ولم أستشعر ، أما فى حالة أبى حيان فالأمر أفدح ، ذلك أن من يطالع كتبه ، خاصة « الاشارات الالهية » سوف يجد مناجاة عميقة ، لا يمكن أن تصدر إلا عن روح عميقة الإيمان ، ويبدو ياقوت أكثر انصافا ، يقول عنه أنه كان :

« صوفى السمت والهيئة ، وكان يتأله ، والناس على ثقة من دينه .. شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء » .

وفى طبقات الشافعية يقول السبكى مدافعا عن أبى حيان خاصة فى مواجهة الذهبى ، يرجع السبكى الاتهام إلى :

« اتهام الذهبى للرجل بسبب كراهية ـ الذهبى ـ للصوفية » .

ثم يقول :

« ولم يثبت عندى إلى الآن من حال ابى حيان ما يوجب الوقيعة فيه ، ووقفت على كثير من كلامه فلم أجد فيه ما يدل على أنه كان قوى النفس مزدريا بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن ينال منه هذا النيل » .

أليس ما قاله الذهبى هو منهج التكفير الذى مازال يمارسه البعض فى عالمنا العربى ضد خصومهم فى الرأى ، أو من يختلفون معهم أيا كانت درجة الخلاف ، لأن الذهبى يكره الصوفية ويبدأ ذكره لأبى حيان بهذه التهمة البشعة ، وتتحول إلى ما يشبه الحقيقة ، ويضطر آخرون الى الرد ، فتصير عقيدة الرجل إلى أن تصبح موضع جدل ، بل ربما كان ذلك أحد الأسباب التى أدت الى غياب ذكره وعدم تداول كتبه التى بقيت بعد أن أحرق معظمها ، بل صار البعض يتشاءم من قراءتها أو تداولها .. وهذا عجيب !

***

كثيرة تلك المؤلفات ، خاصة فى القرن الحالى عن أبى حيان ، منذ أن كتب حسن السندوبى مقدمته الوافية لكتاب المقابسات المطبوع فى مصر سنة ١٩٢٩ ، توالت بعد ذلك الكتابات للدكتور زكى مبارك فى « النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » . وأبو حيان للدكتور عبدالرزاق محيى الدين (العراق) ، وأبو حيان للدكتور ابراهيم كيلانى (سوريا) وأبو حيان للدكتور زكريا ابراهيم (مصر) وأبو حيان للدكتور محمد أحمد الحوفى (مصر) وأبو حيان للدكتور احسان عباس (لبنان) وأبو حيان للدكتور محمود ابراهيم (الأردن) وأبو حيان للأستاذ على دب (تونس) .. هذه المؤلفات ساعدتنى ، أضاءت وفسرت ، شرحت ويسرت ، غير أن المصدر الأول عن أبى حيان بالنسبة لى ، سواء كإنسان ، أو مفكر ، أو أديب ، أو صوفى ، تظل نصوصه ذاتها . تلك التى خطها بيده ، وأودعها دخائله ، فى حالة فريدة ونادرة من حالات الأدب العربى .

***

إعتداد شديد بالذات ، ربما كان أحد الأسباب القوية التى قوت ذلك الشعور بالغربة .

وفاء عميق لأساتذته . أبى سليمان المنطقى السجستانى ، يحيى بن عدى ، (الفلسفة) ، والرمانى ، وأبو سعيد السيرافى (فى اللغة والأدب) القاضى المروزذى أول أساتذته خاصة فى الفقة . وأيضا المعافى بن زكريا النهروانى ، وكان من علماء عصره ، وبرع فى عدة علوم .

يحدثنا أبو حيان عن شيوخه بإجلال وحب وتعظيم ، سعى هو إلى كل منهم لتحصيل العلم ، درس النحو ، واللغة ، والمنطق ، وعلم الكلام ، والفلسفة ، والحديث النبوى الشريف ، وممن سبقه أعجب بالجاحظ وأحبه وأخلص له الود ، وأحيانا تكون العلاقة بين الأديب وأديب عاش فى عصر آخر ، وزمن مغاير ، أقوى من تلك العلاقة التى يمكن أن تقوم بينه وبين معاصريه ، وقد خبرت ذلك وعرفته ، وأقوى دليل علاقتى بأبى حيان الذى أعتبره من أجل شيوخى وأقرب صحبى ، هو الذى لم ينعم بالصحبة فى حياته !

لاشك أن خطوات تكوين أبى حيان لنفسه ولثقافته تشكل سيرة رائعة ، ألمح إلى بعض تفاصيلها فى كتاباته ، ولم يكن ذلك سهلا فى عصر اضطراب وتمزق ، كان القرن الرابع الهجرى مليئا

بالمتناقضات ، فرغم ازدهار الثقافة العربية بتفتحها على الثقافات الأخرى ، خاصة اليونانية والفارسية ، وصبغها آثار هذه الثقافات المنقولة بالروح العربية ، رغم ازدهار الأدب ، والنثر بصفة خاصة ، وظهور فن المقامة ، وتطور فن الرسائل ، إلا أن العصر كان مضطربا سياسيا واجتماعيا ، إذ شمل الضعف دولة الخلافة العباسية ، وتناثرت أطرافها ، ودب الفساد إليها ، واتسعت الهوة بين أثرياء لا يعرفون كيف ينفقون ماليهم ، وفقراء أغلبية يأكل بعضهم بعضا فى أيام المجاعات ، حتى إن بعض المصادر التاريخية تروى مشاهد مرعبة عن أمهات اضطررن الى أكل أبنائهن (نشوار المحاضرة للتنوخى ـ الجزء الأول ـ صفحة ٣٥١) يصف لنا أبو حيان أحوال الناس فى عصره ، خاصة سنة ٣٧٠ هجرية ، يقول فى كتاب الإمتاع والمؤانسة :

« كنت بنيسابور سنة سبعين وثلثمائة ، وقد اشتعلت الفتنة بخراسان ، وغلا السعر ، وأخيف السبيل وكثر الارجاف وساءت الظنون ، وضجت الغامة ، والتبس الرأى ، وانقطع الأمل ، ونبح كل كلب كلب من كل زاوية وزأر كل أسد من كل أجمة ، وضبح كل ثعلب من كل قلعة » .

فى تلك الظروف الصعبة راح أبو حيان يطوف شرقا وغربا ، من بغداد إلى سر من رأى (سامراء) إلى سمرقند ، إلى الرى ، إلى جرجان ، إلى جند سابور ، إلى مكة التى حج إليها سيرا على الأقدام بصحبة جماعة من الصوفية ، إلى شيراز التى كانت نهاية المطاف ، حيث بلغ فيها راس الجدار ، أو نهاية الحائط ، وانحسر ظله ، وثوى فى أرضها .

أحيانا ، أتساءل .

متى كان يكتب ؟ وأين ؟ ، وكيف تمكن من الاطلاع ؟

أعرف أنه عمل وراقا أى ناسخا للكتب ، ورغم صعوبة المهنة ، الا أنها مكنته من الاطلاع الواسع العميق ، وقد خبرت هذا فى مطلع حياتى عندما كنت أضطر إلى نقل بعض الكتب من دار الكتب بباب الخلق ، تلك التى لم أستطع اقتناءها ، ما نسخته منها بقى محفورا فى ذهنى حتى الآن ، أكثر من الكتب التى اكتفيت بالاطلاع عليها ، ما نسخته كتب معدودة ، غير أن أبا حيان عمل بالوراقة معظم سنوات عمره ، وله رسالة نادرة فى فن الكتابة (الخط) . لم يحدثنا عن مكتبته الخاصة ، أو كتبه التى كان يعتز بها ويبقيها بقربه ، وإن كنت أشك فى وجود مثل هذه المكتبة مع تلك الحياة المضطربة ، البائسة ، المعذبة ، ولكم يبدو التناقض شاسعا بين رسوخ مؤلفات أبى حيان ، وظروف حياته القلقة والتى لم يستقر خلالها فى مكان وثير ، أو حتى تتوافر فيه الحدود الدنيا للراحة ، بل إن ما وصلنا من وصف لثيابه وأحواله على فترات مختلفة يؤكد انه كان مضطرب الحال ، يعانى الفاقة والغربة ، رغم ذلك فقد وصلنا منه هذا التراث الثرى ، الغنى .

***

ذكرنا نقلا عن ياقوت الكتب التى وضعها ولم يصلنا معظمها ، ونتوقف عند الكتب التى وصلتنا وطبعت ، أولها البصائر والذخائر ، والمرجح أنه أول ما وضع أبو حيان ، ويعد أضخم كتبه من ناحية الحجم ، ويعتبر بمثابة دائرة معارف تعكس معرفة عصره ، وثقافته هو المتنوعة ، وقد اخترت منه المقدمة ، أما متن الكتاب فيتكون من أمثال ، وحكم ، ونوادر ، ومقتطفات تورد بدون منهج ظاهر محدد ، ويتناول مسائل لغوية ، وأدبية ، وتراجم وأخبار ، وبه نصوص من كتب ضاعت أصولها ، ويقول التوحيدى واصفا كتابه :

« وإنما أتباعد قليلا ، وأتقارب قليلا ، وأذكر فصلا نحوا ، وفصلا كتابيا ، وفصلا كلاميا وفصلا فقهيا وفصلا فلسفيا وفصلا لغويا وفصلا شعريا ،وأشبع ذلك كله بما احتمل من الاعتراض والبحث والتفسير » .

***

الكتاب التالى هو « أخلاق الوزيرين » أو « مثالب الوزيرين » ، ويرجح الدكتور عبدالواحد الشيخ فى بحثه القيم عن أبى حيان وجهوده الأدبية والفنية انه ثانى كتبه ، لأن البصائر استغرق تأليفه حوالى خمس عشرة سنة ، انتهى منه حوالى سنة خمس وستين وثلاثمائة . بعد أن فرغ رحل إلى

الرى ، ملتمسا الرعاية عند الصاحب ابن عباد ، لكن خاب سعيه ، وعاد من الرى خاوى الوفاض ، ولم يكن حظه عند ابن العميد بأفضل مما لقيه عند ابن عباد ، وكان كل منهما وزيرا له نفوذ وصاحب بلاط ، وكل منهما يحيط نفسه بالأدباء ، غير أن كلا منهما ، شأن أصحاب السلطان الذين يتظاهرون برعاية الأدباء ، لايحبون الأدباء المعتدين بأنفسهم ، أصحاب المواهب الكبيرة ، وكلا الوزيرين كان له موقف مشابه من المتنبى ، صحيح أن أبا حيان لجأ إليهما ، ولكنه فى أعماقه كان يدرك قيمتهما الحقيقية ، ولم يكن مداحا كالشعراء ، إنما يبدو انه لم يكن يستطيع أن يخفى ما يدور فى نفسه ، وأصحاب السلطان يدركون ما يمكن أن يدور فى نفوس الساعين اليهم . بل إنهم قد يشترطون مواصفات معينة للقرب منهم قد تطال الملامح الجسدية . انصرف أبو حيان عنهما خائبا ، خاوى الوفاض ، وإذا لم يقدر الأديب على مواجهة السلطان بالفعل ، فانه يلجأ الى الكلمة ، إلى أداته الوحيدة ، هكذا أقدم أبو حيان على تأليف كتاب « أخلاق الوزيرين » والذى تضمن أعنف هجاء يمكن أن نقرأه فى الأدب العربى ، وإن كان لم يستسلم لغضبه تماما ، فقد ذكر لكل منهما ما يمكن اعتباره ميزة ، غير أن قيمة الكتاب تكمن فى إبرازها لتلك العلاقة المعقدة بين الأديب والسلطة ، بين الكاتب والحاكم ، والتى لم يتغير جوهرها فى الواقع العربى منذ عصر أبى حيان وحتى الآن .

***

راح أبو حيان يحاول التقاط أسباب رزقه من أعمال متواضعة ، مرة بمهنته الأصلية ، نسخ الكتب ، ومرة بالعمل فى البيمارستان (المستشفى) كملاحظ للمرضى ، وربما بلغت غربة التوحيدى مداها فى تلك الفترة الصعبة التى لم يكن يجد خلالها قوت يومه ، حتى اضطر إلى أكل أعشاب الصحراء ، هذه الغربة وتلك الوحدة ، جعلته يتوق إلى الصداقة . وباستثناء المقدمة والخاتمة التى يعبر فيهما عن ذاته ، فقد جمع فى المتن أمثلة وحكايات عديدة حول معانى الصداقة ، وما يتصل بالوفاق والخلاف والهجر والصلة والعتب والرضا والاخلاص والرثاء ، والنفاق والحيلة والخداع والالتواء والاستكانة والاحتجاج يقول أبو حيان :

« وما من أحد إلا وله فى هذا الفن حصة لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو بعيد أو ولى أو خليط ، كما لا يخلو أيضا من عدو كاشح أو مداج أو مكاشف أو حاسد أو شامت أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو مذل أو مضل أو مغل .. فالإنسان مدنى بطبعه » .

إننى أعتبر كتاب « الصداقة والصديق » من النصوص الفريدة فى النثر العربى ، ويجمع بين الكتابة الذاتية بما تضمنه من حديث أبى حيان عن نفسه وهذا ما توقفت عنده ، وبين المختارات الثرية التى تدور كلها حول معنى الصداقة وجوهرها ، الصداقة التى حرم منها فكان اغترابه العظيم .

***

الوزير ابن سعدان يسأل ، وأبو حيان يجيب على امتداد أربعين ليلة ، فى مجملها ليالى الإمتاع والمؤانسة .

والوزير ابن سعدان ممن اتصل بهم أبو حيان . وكما يرجح الأستاذ أحمد أمين ، فهو أبو عبدالله الحسين بن أحمد سعدان ، وزير صمصام الدولة البويهى من ٣٧٣ هجرية الى ٣٧٥ هجرية ، وهو الذى وضع من أجله الكتاب ، وكان ابن سعدان شغوفا بالمعرفة من فنون شتى ، كالفلسفة والأخلاق والأدب واللغة والدين ، وهو كما يبدو من خلال الكتاب محاور ايجابى ، فأحيانا ينقد إجابات أبى حيان ويحاوره فيها ، وربما أظهره أبو حيان كذلك ترضية له ، لكننا فى كل الأحوال نجد أنفسنا فى موقف فريد فى كتب التراث العربى القديمة ، فالسائل هو الوزير صاحب السلطان ، والمجيب العالم هو الأديب الفقير ، هو أبو حيان نفسه .

خلال ليالى المسامرة جرت الأسئلة والإجوبة ، ويبدو أن أبا حيان لم يخطط لتدوينها فى كتاب ، غير أن أبا الوفاء المهندس (محمود بن محمد بن يحيى بن اسماعيل بن العباس البوزنجانى المولود

سنة ٣٢٨ والمتوفى سنة ٣٨٨ هجرية) طلب من أبى حيان أن يدون له ما سامر به الوزير ، ذلك إنه هو الذى قدم أبا حيان إلى الوزير ، ولما بلغه ما يجرى من مسامرة عاتب أبا حيان لأنه اختص الوزير بسمره ، وذكره بفضله فى تقديمه إليه ، وطلب منه أن يكتب ماجرى ، وبدأ أبو حيان يكتب ليالى (الإمتاع والمؤانسة) ويبدو أنه كان يرسلها أولا بأول ، إلى أبى الوفاء المهندس ، إذ يذكر فى أول الجزء الثالث :

« أوصلت إليك الجزءين الأول والثانى على غلامك فائق وهذا الجزء هو الثالث ..»

ليس للكتاب موضوع واحد ، وإنما أفانين مختلفة من المعرفة ، كما تضمن مناظرات حول أيهما أفضل ، العرب أم الفرس ؟، وانحاز أبو حيان إلى العرب ، ومناظرة بين ابى سعيد السيرافى ومتى بن يونس فى المنطق اليونانى والبيان والنحو العربى ، كما كشف عن أسماء بعض جماعة اخوان الصفا ، التى قد يكون أبو حيان واحدا منها ، وقد اخترت من هذا الكتاب ما يعبر عن ذات أبى حيان ، خاصة المقدمة ، فعندما يكتب أبو حيان عن ذاته ، عندما يعبر عن آرائه ، نجد أنفسنا أمام نمط نادر من الكتابة فى النثر العربى وفى ذلك تكمن فرادته .

***

السؤال أول الطريق إلى المعرفة ، أول خطوة إلى أفق العلم بالشىء المسئول عنه خاصة ، وبالاحاطة عامة . يرتبط السؤال بالتوق ، بالشوق ، بالرغبة فى أن يلم الإنسان بما لا يعرفه ، والسؤال لا يصدر إلا عن الإنسان ، من بين كافة المخلوقات التى تسعى ، لا يتوجه بالسؤال إلا الإنسان ، والسائل يكون فى الأغلب الأعم جاهلا بما يستفسر عنه ، غير أن المجيب لا يكون بالضرورة عالما ، بل أحيانا ما يتضمن السؤال اشراقات معرفية أكثر وأعمق مما تتضمنه الإجابة ، وهنا يصبح السؤال مفجرا للمعرفة ، محرضا على التماسها ، والوصول إليها ، يصبح السؤال فى حد ذاته معرفة ، وأحيانا يتضمن الجواب أيضا إما بصيغة اشارة خفية إلى الإجابة ، أو بنطق السؤال فيما يتعلق بالمحظور ، المسكوت عنه ، ما يصعب الاقتراب منه .

تلك قيمة السؤال المعرفية ، ومن هنا تأتى أيضا قيمة الكتاب الفريد ، النادر ، الذى لا أعرف له مثيلا فى التراث العربى ، كتاب « الهوامل والشوامل » والمتضمن أسئلة التوحيدى ، وأجوبة الفيلسوف المتكلم مسكويه .

***

يقول المحققان الجليلان ، أحمد أمين وأحمد صقر ، فى مقدمة الطبعة الوحيدة ، للجزء الأول من « الهوامل والشوامل » ، والتى صارت أنفس من المخطوطات لندرتها ، وفى معرض تفسيرهما لهذا العنوان ، أن الهوامل مقصود بها الإبل الهائمة ، الشاردة ، أما الشوامل فهى الحيوانات التى تضبط الإبل الهوامل فتجمعها ، غير أن الدكتور أحمد محمد الحوفى فى كتابه عن التوحيدى يختلف فى تأويل العنوان ، فالهوامل فى رأيه هى الإبل المهملة المسيبة التى لا راعى لها ، وربما كانت جمعا لكلمة هاملة أى من « هملت » السماء ، أى دام مطرها فى سكون ، والمراد إذن الأسئلة المنطلقة المتوالية الموجهة إلى مسكويه ، كأنها المطر النازل المدرار ، أما الشوامل فهى جمع لكلمة شامل أو شاملة ، من شملهم الأمر إذا عمهم ، والمراد إذن الأجوبة الشاملة المحيطة المستوعبة لما فى نفس السائل ، وربما كانت كلمة (شومل) وهى اسم من أسماء ريح الشمال التى تهب على بلاد العرب من ناحية الشام والمراد إذن الأجوبة المنعشة لشوق أبى حيان إلى العلم والمعرفة (فهى جمع شومل) كأنها نسمات الشمال الهابة على بلاد العرب من ناحية الشام .

أيا كانت التفسيرات لعنوان الكتاب الذى أرجح أنه من وضع التوحيدى ، فانه دال بعمق ونفاذ على مضمون الكتاب الذى تتدفق فيه الأسئلة كالإبل الهوامل فى بيداء المعرفة ، غير أن الحيوانات الشوامل لا تنجح أبدا فى الامساك بها وحصارها أو حتى تهدئتها .

***

عندما قرأت الهوامل والشوامل للمرة الأولى ، قرأت الأسئلة والإجوبة معا ، وعندما قرأته للمرة

الثانية توقفت أمام الأسئلة فقط ، وعدت إليها مرات ، والآن بعد حوالى ربع قرن من معايشة لهذا الكتاب الرائع لا أجد فى ذهني ما علق منه إلا الأسئلة ، فلكم تبدو أجوبة « مسكويه » متواضعة ، محدودة فى مواجهة شمولية الاستفهام واتساع أفقه ، واستيعابه للتجربة الإنسانية .

لم يترك التوحيدى دربا إلا وسلكه عبر أسئلته . دروب فلسفية ، علمية ، اقتصادية ، خلقية ، اجتماعية ، نفسية ، تعكس بصيرة نافذة ، وروحا قلقة يعذبها التوق إلى المعرفة ، وهذا التوق كان التوحيدى يدرك جيدا أنه لن يجد مستقرة عند مسكويه أو غيره ، إنما أراد بتوجيه الأسئلة أن يعلنها ، أن يجاهر بها ، أن يطرحها على العالمين ، وما توجيهها إلى مسكويه إلا وسيلة ، إلا حجة ، بل انه يورد فى بعض الأسئلة تفاصيل دقيقة يبدو من خلالها أكثر علما من مسكويه ، لقد أدرك التوحيدى تلك الأسئلة الأبدية التى ستظل بلا إجابة فطرحها ، لكن مجرد النطق بها يعنى أنه ما من أفق يحول بين الإنسان والتوق إلى المعرفة ، وتلك عظمة الإنسان ونبل جوهره ، انه يسعى إلى ادراك ما لا يمكن ادراكه ، لكن الوعى بذلك لا يحول بينه وبين شرف الطرح ، شرف التساؤل رغم ادراكه أحيانا باستحالة الإجابة .

لماذا لا يعود الانسان شابا فطفلا فجنينا ؟

ما ملتمس النفس فى هذا العالم ؟

ما سبب استشعار الخوف بلا مخيف ؟

ما الزمان ؟

ما المكان ؟ وهل الوقت والزمان واحد ؟

لماذا يحن الإنسان إلى مكان بعينه ؟ أو إلى زمان بعينه ؟

ما السبب ، ما العلة ؟

ما ملتمس النفس فى هذا العالم ؟

توقفت مطولا أمام الأسئلة التى تتعلق بالإنسان ، وقضاياه الخالدة ، الباقية ، وتجاوزت تلك الأسئلة التى طرحها التوحيدى منذ ألف عام والتى لم تكن معارف عصره قد توصلت إلى الإجابة عنها بعد ، مثل تساؤله : ما البرق ؟ ما الرعد ؟ ، لم كان صوت الرعد إلى أذاننا أبطأ وأبعد من رؤية البرق إلى أبصارنا ؟

لقد أجاب العلم الحديث على مثل هذه الأسئلة وإن كانت ملاحظة التوحيدى الدقيقة الثاقبة تظل موضع تقديرنا ، ذلك انه أدرك بثاقب بصره أن الضوء أسرع من الصوت فى وقت لم يكن العلم قد اكتشف فيه ذلك ، هكذا يكون السؤال حافزا للمعرفة ، وكاشفا عن الحقيقة حتى مع العجز عن الوصول إلى الأسباب . لقد أعاد التوحيدى إلى السؤال قيمته ، السؤال المقلق ، المحرض ، الدافع ، أعاد إليه قيمته ، وعلمنا جوهر فرادته ، ويبدو ذلك رائعا فى ثقافة طابعها المحافظ أعم ، وميلها إلى القائم أقوى ، وأخذها بالمفروغ منه ، بالنصوص المصاغة ، المنقولة أكثر ، من هنا قيمة التوحيدى فى تراثنا العربى ، القدرة على طرح السؤال ، وصياغته فى أكثر من صورة ، مرة مباشرة ، ومرة بمراوغة ، وبعد ألف عام من رحيله ، نحن فى أمس الحاجة إلى تعلم واحياء هذه القيمة ، قيمة السؤال ، مرة ببراءة الأطفال ، ومرة بدهاء المحنكين ، المجربين ، الذين يعون الأخطار التى يمكن تلحق بهم ، ولكن اخلاصهم للإنسانية ، لا يمنعهم أو يحول بينهم وبين النطق بالسؤال !

***

إذا كان التوحيدى قد طرح الأسئلة فى « الهوامل والشوامل » فإنه فى المقابسات يحاول ان يدمج السؤال بالجواب ، المؤكد أن « المقابسات » يلى « الهوامل والشوامل » إذ ترد إليه اشارة فى المقابسات ، إذ يقول :

(وهذه مسألة فى الهوامل ولها جواب آخر فى الشوامل ..) ويبدو أنه كتبه فى مرحلة متقدمة من عمره ، نلمح فى بعض أجزائه شجنا يكاد يقارب ما يحويه « الاشارات الالهية » من شجن ، اذ يقول :

« الدنيا فى عينى مسودة ، وأبواب الخير دونى منسدة ، بثقل المؤونة ، وقلة المعونة ، وفقد المؤنس بعد المؤنس ، وعثار القدم بعد القدم ، وانتشار الحال بعد الحال ، هذا مع ضعف الركن ، واشتعال الشيب ، وخمود النار ، وأفول شمس الحياة وسقوط نجم العمر ، وقرب الرحيل وإلى الله التوجه » .

أما الباعث على تأليفه فهو حبه للفلسفة والفلاسفة ، يقول :

« إنما يبعثنى على رواية كل ما سمعته من هؤلاء الجلة الأفاضل ، عشقى لهم وحمدى لله تعالى على ما أتاح منهم ، فلا تقرأن هذا الفصل ، ثم تقول : وما فى هذا من الفائدة ؟ فإن درجات الحكمة مختلفة ، ولكل كلمة قائل ، ولكل قول واع ، ولكل عمل عامل ، ولكل عامل راع ، وهذا الشيخ ممن قد أعلى الله كعبه فى علم الأوائل ، ووفر حظه من الحكمة المبثوثة فى هذا العالم ، وفيما قال حث على حسن معرفة فضل الحكمة ، وفى معرفة فضل الانبعاث على اكتسابه والاستكثار منه » .

ورغم ما يقوله التوحيدى نفسه عن مخالطته كبار علماء عصره ، ونقله عن بعضهم ، إلا أن « المقابسات » يعد امتدادا للهوامل ، فالمسائل التى يدور حولها سبق أن عبر عنها بالسؤال ، خاصة ما يتعلق بالإنسان . وعلاقته بالزمان والمكان ، وهذا ما توقفت أمامه .

***

نصل إلى الذروة ، إلى أحد قمم النثر العربى ، إلى الاشارات الالهية ، والذى تخطى فيه التوحيدى أساليب التعبير المستقرة ، المؤطرة ، ليخلق اسلوبه الخاص ، المتدفق ، الذى يستوعب كافة تقاليد النثر العربى ، لكنه يتجاوزها أيضا ، هذا كتاب لا أقرأ صفحاته إلا بصوت مرتفع ، وإذا شرعت فلا أقدر إلا على قراءة عدد محدود من الصفحات لا يتجاوز العشرين فى الجلسة الواحدة ، ذلك أن تدفقه ، وما يفيض به من ثراء ، يجعل استيعابه على مهل ضروريا ، خاصة أنه جمع النثر والشعر معا .

فى النثر العربى اتجاهان رئيسيان ، اتجاه مستقر ، واضح ، لا يخرج عن الأسس البلاغية التى وضعها علماء اللغة ، وهذا الاتجاه يحاكى فى تقديرى المؤسسات الظاهرة ، المسيطرة ، التى تسعى إلى اقرار الثبات ، والحد من المغامرة ، فكرية كانت أو سياسية أو اجتماعية ، انه مواز أيضا إلى ما يمكن اعتباره الظاهر .

وثمة اتجاه آخر ، يعبر عما هو أعمق ، عما لا يدرك فى الظاهر ، عن تقلبات الذات وأحوالها ، عما لا يمكن أن تستوعبه العبارة ، فاللفظ محدود بحروفه ، لكن المعنى شاسع ، مراوغ ، وجهاد المبدع الحقيقى فى الامساك به والتعبير عنه . هذا ما حاوله الصوفية الكبار ، عندما أشاروا ولم يحددوا ، وعندما رمزوا ولم يفسروا .

التوحيدى وحد بين ظاهر النثر وباطنه ، بين الأساليب التى تعارف عليها القوم ، والمعانى التى لم يطرقها أحد ، بالطريقة التى يألفها الكافة ، نادرة تلك الكتابة الذاتية التى يتوحد فيها الكاتب بما يكتب ، لا يخبر عن آخر ، ولا ينقل عن أولين ، إنما الكاتب والمكتوب عنه شىء واحد ، نادرة تلك الكتابة فى تراثنا القديم ، يشير إلى رسائل بديع الزمان الهمذانى ، وإلى « اعتبار » أسامة بن منقذ ، وسير بعض الدعاة الفاطميين مثل الأستاذ جوذر ، والقاضى النعمان ، وما بثه الصوفية من أشواق ومكابدات فى ثنايا كتبهم ، التوحيدى لم يكتف بالتعبير ظاهرا وباطنا ، إنما طرق دروبا مؤدية إلى أغوار النفس لم يسلكها قبله أحد .

أقرأ « الاشارات الالهية » فأجد نفسى فى مواجهة نص حديث كأنه كتب اليوم ، وأظنه أصبح خارج التحديد لأنه صادق صدقا موجعا . يعبر عنى وعن أى إنسان ، فى أىَ مكان وزمان ، أكثر مما يعبر بعض المجايلين ، المعاصرين .

اقرأ « الاشارات الالهية » فأتخيل لو ان النثر العربى انطلق من صفحات ذلك الكتاب وتطور ، لكننى أعرف جيدا ان « لو » لا تجوز فى التاريخ ، لكن هذا لا يمنع من استخلاص العبر ، لقد جرى تعتيم مقصود على التوحيدى ، وكتبه ، وحتى سنة ١٩٢٩ عندما قدمه حسن السندوبى فى مصر ، من خلال طبعه للمقابسات لم يكن يسمع به أحد ، ولم يتوقف عنده أحد ، وقبل السندوبى طبعت

المقابسات فى مكان ناء عن تلك الرقعة الجغرافية التى نعيش فيها ويتكلم أهلها العربية ، طبع فى الهند طبعة محدودة جدا . ولحسن الحظ أن نسخة منها وصلت إلى يدى حسن السندوبى فقدمها ، ونقحها ، وطبعها من جديد ، جزاه الله خيرا ، ورحمه رحمة واسعة .

أقرأ « الاشارات الالهية » فأدرك هذا الحس الإيماني العميق ، وأذهل من جرأة بعض الفقهاء الذين رموا التوحيدى بالزندقة .

اقرأ « الاشارات الالهية » ويدركنى الاعجاب بهذا التعبير القوى عن الغربة ، غربة الموهبة ، عاقبة التفرد ، غربة الذات التى تدرك قيمتها ، تفشل فى تحقيق الصلة بمن يحيطها ، فتسعى إلى تحقيق الصلة بالمطلق ، بالأبدى ، بالأكوان كلها ، فتتحقق صلة من نوع آخر ، بقدر ما تحوى من تحقق ، بقدر ما تحوى من غربة أبدية.

ولأن الكتاب كنز ، ومن الصعب اشاعة هذا الكنز فى حيز ضيق ، واطار محدد ، آثرت الاشارة إلى الاشارات من خلال نموذجين متكاملين ، الرسالة الأولى ، والرسالة التى أطلقت عليها « رسالة الغربة » ، للأسف وصلنا بعض من الكتاب ، ومازال جزء منه مفقودا ، بل اننى أتخيل تلك المخطوطات العتيقة فى الهند وماليزيا وقرى الصعيد ومساجد اليمن والمغرب وسائر أنحاء الدنيا ، وأمل العثور يوما على مؤلفات التوحيدى المفقودة ، نسخة كاملة من الاشارات الالهية ، أو نسخة كاملة من المحاضرات الذى أورد ياقوت الحموى أجزاء منه ، وكتاب الزلفة ، وكتاب رياض العارفين ، ونصوص رسائله التى اتوقف أمام آخرها ، تلك الرسالة المؤثرة التى يشرح فيها ، لماذا أقدم على حرق كتبه ؟

هذا الموقف المأساوى الذى لا أقرأ عنه إلا وأرتعد . ولا أتخيله إلا وأفزع ، ولا أسمع من يتحدث عنه إلا وينتابنى كمد !

***

اعتدت معايشة من تعلقت بهم من أعاظم الأقدمين ، ومع الوقت ، مع القراءة لهم وعنهم ، يصبحون جزءا من صحبى ، وعمادا فى أسرتى ، وأركانا لروحى .

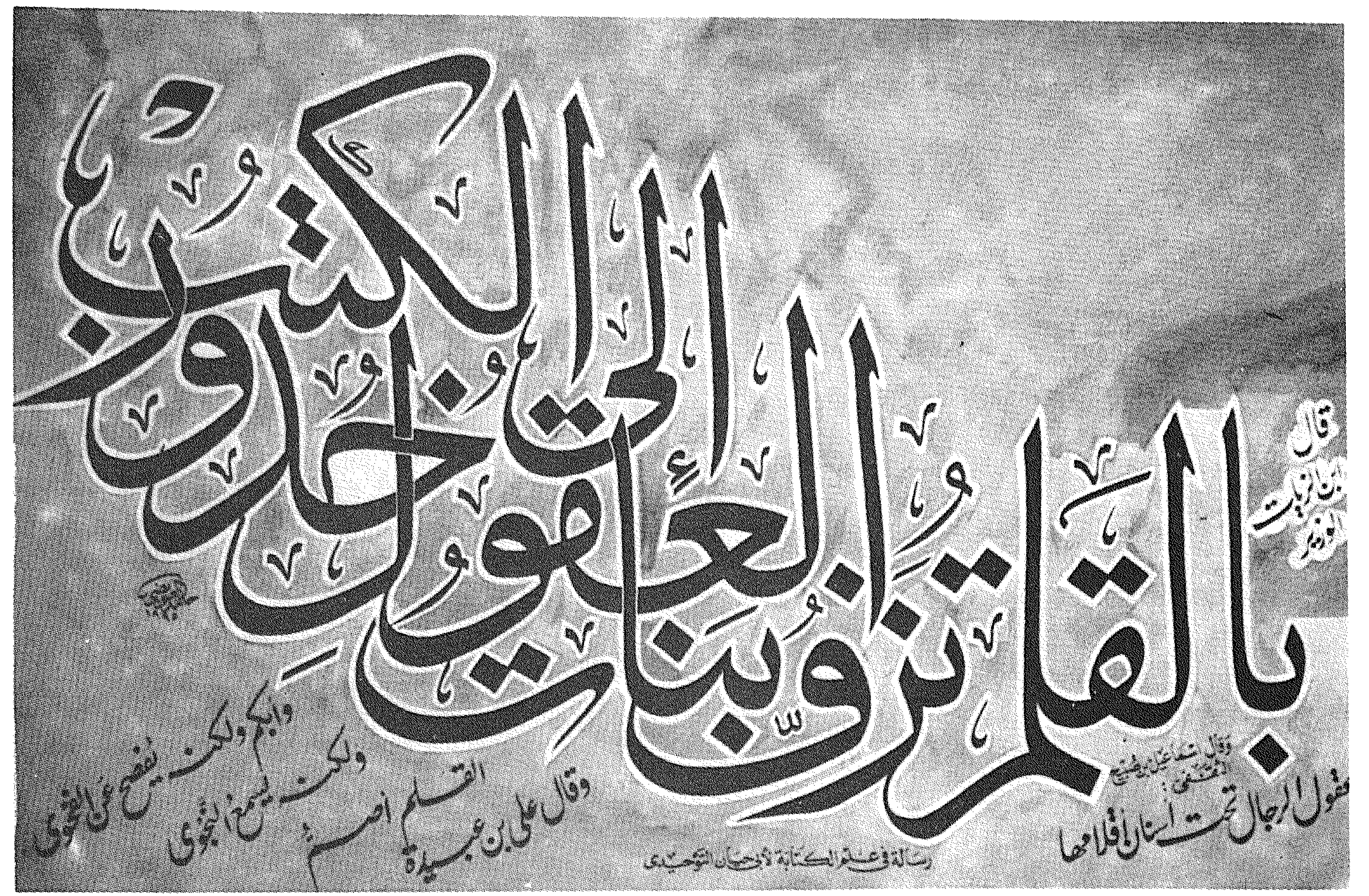
الشيخ محمد أحمد ابن اياس الحنفى المصرى ، صاحب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، صاحبى الذى يحدثنى عما لم أعشه .

الشيخ محيى الدين ابن عربى الحاتمى ، الشيخ الأكبر ، أراه كمعلم ، شيخ أحيانا يحنو وأحيانا يقسو ، لكنه فى كل الأحوال يكشف ويدل ويهدى إلى مجرات الروح الخفية .

أما على بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدى ، فأراه وأشعر به بمنزلة شقيقى وأخى الذى سبقنى فى الوفادة على الدنيا ، لكنه لسبب ما اغترب ورحل ، ولا أحد من أهلى يريد أن يبصرنى ، لكننى كلما خلوت بنفسى تلوت بعضا مما خطه وأودعه تلك الصفحات ، فأشفق وأرثى وأعجب ، ويغمرنى حنين ، لافظا فى صوت بين بين ، لعله بالغه .

« آه يا أخا غربتى الذى لم أره »

جمال الغيطانى


بالقلم تزف بنات العقول الى خدور الكتب
قال ابن الزيات الوزير
عقول الرجال تحت أسنان أقلامها
وقال علي بن عبيدة
القلم أصم ولكنه يسمع النجوى
وأبكم ولكنه يفصح عن الفحوى
رسالة في علم الكتابة لأبي حيان التوحيدي

البصائر والذخائر

يرجح بعض الدارسين لأبى حيان أن كتابه البصائر والذخائر من مؤلفاته البكر ، ويشير أبو حيان إلى سنة تأليفه فى مقـدمـة الجـزء الأول (٣٥٠ هجرية) ، وقد اعتمدنا على الطبعة التى حققتها الدكتورة وداد القاضى ، وصدرت عن دار صادر ـ بيروت ، والهوامش الواردة فى ذيل المختارات من إعدادها .

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه ثقتي

اللّهم إني أسألك جداً مقروناً بالتّوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملاً عَرِيّاً من الرِّياء ، وقولاً موشَّحاً بالصّواب ، وحالاً دائرةً مع الحق ؛ نعم ، وفطنةَ عقلٍ مضروبة في سلامة صدر ، وراحةَ جسمٍ راجعةً إلى رَوْح بال ، وسُكونَ نفسٍ موصولاً بثبات يقين ، وصحةَ حجةٍ بعيدة من مرض شُبْهة ، حتى تكونَ غايتي في هذه الدار مقصودةً بالأمثَلِ فالأمثَلِ ، وعاقبتي عندك محمودةً بالأفضلِ فالأفضلِ ، مع حياةٍ طيِّبةٍ أنتَ الواعدُ بها ووعدُك الحقّ ، ونعيمٍ دائمٍ أنت المبلِّغُ إليه .

اللّهم فلا تخيِّب رجاء مَنْ هو منوطٌ بك ، ولا تصفِّر كفّاً هي ممدودةٌ إليك ، ولا تُذِل نفساً هي عزيزةٌ بمعرفتك ، ولا تسلبْ عقلاً هو مستضيءٌ بنور هدايتك ، ولا تُعْمِ عيناً فتحتَها بنعمتك ، ولا تحبس لساناً عوّدْتَهُ الثناءَ عليك ، وكما أنت أَولى بالتفضُّل فكنْ أحرَى بالإحسان : الناصيةُ بيدك ، والوجهُ عانٍ لك ، والخيرُ متوقَّع منك ، والمصيرُ على كلٍّ حال إليك ، أَلْبِسْني فى هذه الحياة البائدة ، ثوبَ العِصمة ، وحَلِّني فى تلك الدار الباقية بزينة الأمْن ، وافطمْ نفسى عن طلب العاجلةِ الزائلةِ ، وأَجْرِنى على العادة الفاضلة ، ولا تجعلني ممن سَها عن باطن ما لَكَ عليه ، بظاهر ما لَكَ عنده ، فالشقيُّ من لم تأخذ بيده ، ولم تؤَمِّنْهُ من غده ، والسعيدُ من آوَيْتَه إلى كَنَفِ نعمتك ، ونقلتَهُ حميداً إلى منازلِ رحمتك ، غيرَ مُناقِشٍ له في الحساب ، ولا سائقٍ له إلى العذاب ، فإنك على ذلك قدير .

ثَبَتَ ـ أطال اللهُ بقاءكَ ـ الرأْيُ بعد المخض والاستخارة ، وصَحَّ العزمُ بعد التنقيح والاستشارة ، على نَقْلِ جميع ما في ديوان السَّماع ، ورسمِ ما أحاطت به الرِّواية ، واشتملت عليه الدِّراية ، منذ عام خمسينَ وثلاثمائة ، مع تَوَخّي قصارِ ذلك دون طويلهِ ، وسَمينه دون غَثّه ، ونادره دون فاشِيه ، وبديعه دون مُعتاده ، ورفيعه دون سَفْسافِه ، ومتى أنصفَتْكَ نفسُك ، وهدتكَ الرأيَ ، وملّكتكَ الزِّمام ، وجنَّبَتْكَ الهوى ، وحَمَلَتْكَ على النَّهج ، وحمتكَ دواعيَ العصبية ، علمتَ عِلْماً لا يُخالطه

شك ، وتَيَقّنتَ تيقُّناً لا يَطورُ به ريب ، أنك ممن كُفي مؤونةَ التعب بنَصَب غَيْرِه ، ومُنحَ شريفَ الموهبة بطلب سواه ، وذلك بَيِّنٌ عند تصفُّح ما تضمَّن هذا الكتاب ؛ فإنك مع النَّشاط والحرص ستُشرفُ على رياض الأدب ، وقرائح العقول ، من لفظٍ مَصون ، وكلامٍ شريف ، ونثرٍ مقبول ، ونظمٍ لطيف ، ومَثَلٍ سائر ، وبلاغةٍ مختارة ، وخطبةٍ مُحَبَّرَة ، وأدبٍ حلو ، ومسألةٍ دقيقة ، وجوابٍ حاضر ، ومعارضةٍ واقعة ، ودليلٍ صائب ، وموعظةٍ حَسَنة ، وحجّةٍ بليغة ، وفِقْرَةٍ مكنونة ، ولُمَعَةٍ ثاقِبةٍ ، ونصيحةٍ كافية ، وإقناعٍ مؤنسٍ ، ونادرةٍ مُلهية ، وعَقلٍ مُلَقَّح ، وقولٍ مُنَقَّح ، وهَزْلٍ شِيبَ بجدّ ، وجِدٍ عُجنَ بهزل ، ورأي استُنْبِطَ بعناية ، وأمرٍ بُيِّتَ بلَيْل ، وسرٍّ كُتِمَ على الزُّهد ، وحجةٍ استُخْلِصَتْ من شوائب الشُّبَه ، وشبهةٍ أُنشئت من فَرْط جَهالة ، وبلادةِ طباع رُويت بلسان عيٍّ ، ولفظٍ مرذول عن صَدْرٍ حَرِجٍ ، وفؤاد عَبام .

جمعتُ ذلك كلَّه في هذه المدة الطويلة مع الشهوة[1] التامة ، والحرص المتضاعف ، والدَّأبِ الشديد ، ولقاء الناس ، وفَلْي البلاد ، من كتبٍ شتّى حُكيتْ عن أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الكناني ، وكتبه هي الدرُّ النَّثير ، والنَّوْرُ المطير ، وكلامه الخمر الصِّرْف ، والسِّحْر الحَلال ؛ ثم كتاب « النوادر » لأبي عبدالله محمد بن زياد الأعرابي[2] ، ثم كتاب « الكامل » لأبي العباس محمد بن يزيد الثُّمالِيّ ، ثم كتاب « العيون » لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكاتب

---

١ ـ ابن الأعرابى هو اللغوي النحوي النسّابة الكوفي المشهور المتوفى في سر من رأي سنة ٢٣١ : انظر ترجمته في الفهرست · ٧٥ وتاريخ بغداد ٥ . ٢٨٢ ومعجم الأدباء ٧ : ٥ ووفيات الأعيان ٤ . ٣٠٦ والوافي بالوفيات ٣ : ٧٩ وإنباه الرواة ٣ : ١٢٨ . وكتابه « النوادر » لم يصلنا ، وقد وصفه ياقوت بأنه « كبير » ، وقال ابن النديم إن جماعة رووه عن ابن الأعرابي ، منهم الطوسي وثعلب وغيرهما ، وأضاف أنه قيل إنه اثنتا عشرة رواية ، وقيل تسع .

٢ ـ لأبى عبدالله العباس محمد بن يزيد · والمبرد هو أحد كبار أئمة اللغة والنحو والأدب ببغداد ، وكانت وفاته بها سنة ٢٨٥ ، وله الكتب الكثيرة ، وكتابه « الكامل » المذكور هنا طبع عدة مرات : انظر ترجمته فى الفهرست · ٦٤ وتاريخ بغداد ٣ ٣٨٠ ومعجم الأدباء ٧ : ١٣٧ ووفيات الأعيان ٤ : ٣١٣ ونور القبس : ٣٢٤ وإنباه الرواة ٣ : ٢٤١ .

الدِّينوري[١] ، ثم « مجالسات » ثعلب[٢] ، ثم كتاب ابن أبي طاهر الذي وَسَمه بـ « المنظوم والمنثور »[٣] ، ثم كتاب « الأوراق » للصولي[٤] ، ثم كتاب « الوزراء » لابن عبدوس[٥] ، و« الحيوانات » لقدامة[٦] . هذا إلى غير ذلك من جَوامعَ للناس مضافاتٍ إلى حفظ ما فاهُوا به ، واحتجّوا له ، واعتمدوا عليه ، في مَحاضرهم ونواديهم ، وحَواضرهم وبَواديهم ، مما يطول إحصاؤه ، ويُملّ

---

١ ـ هو من كبار علماء الكوفة باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والفقه والشعر . ولد في الكوفة وتوفي سنة ٢٧٠ ، وله المؤلفات الكثيرة المشهورة . وكتابه « العيون » المذكور في النصّ هو كتابه المشهور المسمّى كتاب عيون الأخبار : انظر ترجمة ابن قتيبة في الفهرست : ٨٥ وتاريخ بغداد ١٠ ١٧٠ ووفيات الأعيان ٣ ٤٢ وإنباه الرواة ٢ ١٤٣ .

٢ ـ أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني هو أحد أئمة الكوفيين في اللغة والنحو والمعاني والشعر والغريب . توفي ببغداد سنة ٢٩١ . وله الكتب الكثيرة . وكتابه « المجالسات » المذكور هنا طبع تحت اسم « مجالس ثعلب » (القاهرة . ١٩٤٨) . إلا أنه يبدو أن المطبوع هذا يشكّل جزءاً وحسب من الكتاب . إذ إن بعض نقول أبي حيان عنه لا ترد فيه : وقد وصف ابن النديم كتاب المجالسات هذا فقال « ولأبي العباس مجالسات أملاها على أصحابه في مجالسه . تحتوى على قطع من النحو واللغة والأخبار ومعاني القرآن والشعر مما سمع وتكلم عليه . روى ذلك عنه جماعة منهم أبو بكر ابن الأنباري وأبو عبدالله اليزيدي وأبو عمر الزاهد وابن درستويه وابن مقسم » . إنظر ترجمة ثعلب في الفهرست : ٨٠ وتاريخ بغداد ٥ : ٢٠٤ ووفيات الأعيان ١ : ١٠٢ وإنباه الرواة ١ . ١٣٨ وتذكرة الحفاظ ٦٦٦ .

٣ ـ ابن أبي طاهر هو أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور الكاتب الشاعر المشهور المتوفي ببغداد سنة ١٨٠ : ألف كتباً عديدة أشهرها كتاب بغداد . وكتابه « المنظوم والمنثور » لم يصلنا كله . وقد قال ابن النديم إنه يقع « في أربعة عشر جزءاً والذى بيد الناس ثلاثة عشر جزءاً » . وهناك جزء منه قد وصلنا ولكنه مازال مخطوطاً محفوظاً في دار الكتب (أدب . ٥٨١) بعنوان اختيار المنظوم والمنثور . ترجمة ابن أبي طاهر في الفهرست ١٦٣ ومعجم الأدباء ١ ١٥٢ وتاريخ بغداد ٤ : ٢١١ والوافي بالوفيات ٧ ٨٠ .

٤ ـ الصولي هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبدالله الصولي الشطرنجي الكاتب الأديب النديم المشهور المتوفى سنة ٣٣٥ ترجمته في الفهرست ١٦٧ وتاريخ بغداد ٣ : ٤٢٧ ومعجم الأدباء ٧ ١٣٦ ومعجم المرزباني : ٤٣١ ووفيات الأعيان ٤ : ٣٥٦ والوافي بالوفيات ٥ ١٩٠ ولسان الميزان ٥ : ٤٢٧ : ومصنفاته كثيرة . وكتابه « الأوراق » المذكور في النص هو أشهر كتبه . واسمه كاملاً « الأوراق في أخبار آل العباس وأشعارهم » . وقد طبع منه ثلاث قطع أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم (لندن . ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦) وأخبار الراضي والمتّقي (لندن . ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥) وأخبارالشعراء المحدثين (لندن . ١٩٣٤) .

٥ ـ ابن عبدوس هو أبو عبدالله محمد بن عبدوس الكوفي المعروف بالجهشياري . أحد كبار المؤرخين القدماء وواحد من البارزين من رجالات الدولة العباسية في عصره . توفي سنة ٣٣١ . أخباره متفرقة في المصادر . وله ترجمة في الفهرست : ١٤١ والوافي بالوفيات ٣ : ٢٠٥ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٧٩ . وكتابه المذكور في النص والمسمّى « كتاب الوزراء والكتّاب » طبع في القاهرة سنة ١٩٣٨ بتحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي . وفي سنة ١٩٦٤ قام ميخائيل عوّاد بطبع النقول عن هذا الكِتاب من المصادر المخطوطة والمطبوعة ونشرها تحت عنوان « نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب » (دار الكتاب اللبناني . بيروت . ١٩٦٤) .

٦ ـ هو أبو جعفر قدامة بن جعفر بن قدامة البغدادي الكاتب البليغ المنطقي المعروف المتوفى ببغداد سنة ٣٣٧ انظر ترجمته في الفهرست : ١٤٤ والمنتظم ٦ . ٣٦٣ . ومعجم الأدباء ٣٠٣/٦ والنجوم الزاهرة ٣ . ٢٩٧ وكتابه « الحيوانات » المذكور في النص لا ذكر له فيما بين أيدينا من المصادر .

استقصاؤه ، وسيعتزي في التفصيل كلٌّ شيء منه إلى معدنه ، وينتسب إلى قائله ؛ والغَرَض من الكتاب مَسُوقٌ إليك ، والمرادُ فيه معروض عليك ، فلا عائدةَ إذن للإطالة ، إلا بقدر التلطُّف والاستمالة .

وأنا ضامنٌ لك أنك لا تخلو في دراسة هذه الصحيفة من أمهات الحِكَم ، وكنوز الفوائد :

أوّلها وأجلُّها : ما يتضمنُ كتابُ الله تعالى الذى حارت العقولُ الناصعة في وَصْفِه ، وكلَّت الألسنُ البارعة عن وَصْفِه ، لأنه المُطْمِع ظاهرُه في نفسه ، الممتنع باطنُه بنفسه ، الداني بإفهامه إياك إليك ، العالي بأسراره وغيوبه عليك ، لا يُطارُ بحواشيه ، ولا يُمَلُّ من تلاوته ، ولا يُحَسّ بإخلاق جِدّته ، كما قال عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وَجْهَهُ : ظاهِرُهُ أنيق ، وباطنُه عميق ، ظاهرُهُ حُكم ، وباطنُه عِلْم .

والثاني : سُنَّة رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ فإنها السبيلُ الواضح ، والنجمُ اللائحُ ، والقائِدُ الناصحُ ، والعَلَمُ المنصوبُ ، والأَمَمُ المقصودُ ، والغايةُ في البيان ، والنِّهاية في البرهان ، والفَزَعُ عند الخصام ، والقُدوة لجميع الأَنام .

والثالثُ : حُجَّة العقل ؛ فإنّ العقلَ هو المَلِكُ المفزوعُ إليه ، والحَكَمُ المرجوعُ إلى ما لديه ، في كل حالٍ عارضة ، وأمر واقع ، عند حَيْرة الطالب ، ولَدَدِ الشَّاغب ، ويَبَس الرِّيق ، واعتساف الطريق ، وهو الوصلة بين الله وبين الخلْق ، به يُمَيَّزُ كلامُ الله عزَّ وجلّ ، ويُعْرفُ رسولُ الله ، ويُنصر دينُ الله ، ويُذَبُّ عن توحيد الله ، ويُلتمسُ ما عند الله ، ويُتَحَبَّب إلى عباد الله ، ويُساس عباد الله ، ويتخلص عبادُ الله من عذاب الله ؛ نورُه أسطعُ من نور الشمس ، وهو الحَكَمُ بينَ الجِنّ والإنس ، التكليفُ تابعُه ، والحَمْد والذمّ قريناه ، والثوابُ والعقابُ ميزانه ، به تُرتبط النعمة ، وتُستدفع النّقمة ، ويُستدام الوارد ، ويُتَألَّف الشارِد ، ويُعرف الماضي ، ويُقاس الآتي ، شريعتُه الصّدق ، وأمرهُ المعروف ، وخاصَّته الاختيار ، ووزيره العلم ، وظَهيره الحلم ، وكنزه الرِّفق ، وجُندُه الخيرات ، وحِلْيَتُهُ الإيمان ، وزينتُه التقوى ، وثمرته اليقين .

والرابع : رَأيُ العين ؛ وهو يَجْمع لك بحُكْم الصورة ، واعترافِ الجمهور ، وشهادة الدهور ، فتيجةَ التجارب ، وفائدة الاختيار ، وعائدةَ الاختبار ، وإذعانَ

الحس ، وإقرارَ النفس ، وطُمأنينةَ البال ، وسكونَ الاستبداد .

هذا سوى أطرافٍ من سياسةِ العَجم ، وفلسفة اليونانيين ، فإنّ الحكمةَ ضالّةُ المؤمن ، أين ما وجدها أخذها ، وعند مَنْ رآها طلبها ، والحكمةُ حقّ ، والحقُّ لا يُنْسب إلى شيء ، بل كلُّ شيء يُنْسَبُ إليه ، ولا يُحمل على شيء ، بل كلُّ شيء يُحمل عليه ، وهو متّفقٌ من كل وجه ، يطربُ به الراضي ، ويَقنع به الغضبان ، مُشرقٌ في نفسهِ ، موثوقٌ بحكمه ، معمولٌ بشرطه ، معدولٌ إلى قضيته ، به خَلَقَ الله عزّ وجلّ السماءَ والأرض ، وعليه أقام الخَلْق ، وبه قَبَضَ وبَسَط ، وحَكَم وأقسط .

فاستدعِ ـ أيّدَكَ الله ـ نشاطَك الشّارد ، وراجعْ بالَك الرخيّ وجُلْ بفهمك في رياض عقولِ القُدماء ، وانظر إلى مآثرِ هؤلاء الحكماء ، واطّلعْ على نوادر فِطَن الأدباء ، واجمع بين طيِّب السَّلَف ، وخبيثِ الخَلَف ، فما تَخلو عند جولانك فيها من جِدٍّ أنت سعيدٌ به ، وهَزْلٍ أنت مُداريً فيه ، ورأيٍ أنت فقيرٌ إليه ، وأمرٍ لعلك محمود عليه : [البسيط] .

فـالدَّهـرُ آخِـرُهُ شِبْـهٌ بـأَوّلـهِ   نـاسٌ كنـاسٍ وأيَّـامٌ كـأيَّـامِ

وإذا حفظتَ ما مضى ، حذرتَ ما بقي .

واجعلْ نهايةَ حالك ، وقصارى أمرك ، فيما تستفيد من هذا الكتاب ، وعساه يجمع ألفَيْ ورقة ، أن تكون سالياً عن هذه الدنيا ، قالياً لأمورها ، واثقاً بالله تعالى ، مطمئناً إليه ، ممترياً لمزيده ، منتظراً لِمَوْعوده ، عالماً بأنه أَوْلى بك ، وأَمْلَكُ لك ، وأقربُ إليك ، فإنّه متى خَلاَّكَ من توفيقه عثرتَ عِثاراً بعد عِثار ، وحطَّ ثِقْلَ الحرص عليها عن ظهورنا ، وفتَّح على ما عنده بصائرنا ، وغمَّضَ عمّا هاهنا أبصارنا ، ولا ابتلانا بنا ، ولا أسلَمَنا إلينا ، إنه وليُّ النّعمة ومانِحُها ، ومرسلُ الرحمة وفاتحُها ، بيده الخير ، وهو على كل شيءٍ قدير ؛ جَلّ مذكوراً ، وعزّ مراداً .

اللّهم فاَسْمع ، وإذا سمِعتَ فأجِبْ ، وإذا أجَبتَ فَبلِّغ ، وإذا بلّغت فأدِمْ ، فإنه لا يَشْقَى مَن كنتَ له ، ولا يسعد مَن كنتَ عليه ، وصلِّ على نبيّك المبعوثِ من لَدُنْك إلى خَلْقك ، محمدٍ وآله الطاهرين ، ولا تنزع من قلوبنا حَلاوةَ ذِكْرِهِ ، ولا تُضلَّنا بعدُ

إذْ هَدَيْتَنا ، وقرِّبْ علينا طريقَ الاقتداءِ بأمره ، والاهتداءِ بِهَدْيِه ، فإنك تَصْرِفُ مَنْ تشاء إلى ما تشاء ؛ لا رادَّ لقضائك ، ولا معقِّب لحكمك ، ولا محيط بكُنْهك ، ولا مُطَّلِع على سِرِّك ، ولا واصفَ لقَدْرك ، ولا آمِن لمكرِك ؛ أنت الإلهُ المحمود ، وأنت نِعْمَ المولى ونعمَ النصير .

***

قد تلطَّفتُ إلى قلبك بحثِّي إيَّاك على حظك في فنونٍ من القول ، وضروبٍ من الوصايا ، وأرجو أن يكون صوابي عندك فيها مُتَقَبَّلاً ، وخطأي فيها عندك مُتَأَوَّلاً ، لا لأني لذلك أهْلٌ ، ولكن لأنَّك حقيقٌ به ، وله خليق ، ومهما شككتَ فيما يَرِدُ عليك منّي في هذا الكتاب ، فلاتشكَّ أني قد نثرتُ لك فيه اللؤلؤ والمرجان ، والعقيق والعِقْيان ، وهكذا يكون عمل من طَبَّ لمن حَبَّ .

ثَبَّتَ الله نِعَمَه لديك ، وخفَّف مؤونةَ شُكْرِها عليك ، وتابع لك المزيد في ، وأُسِرْتَ إساراً بعد إسار ، واستمررتَ في الخزيِ استمراراً بعد استمرار ، وتلك حالُ مَنْ غَضِبَ الله عليه ، وأرسله من يده ، وَوَكَلَهُ إلى حَوْلٍ خفيف ، ومَتْنٍ ضعيف ؛ لا أذاقك الله كرْبَ هذه البلوى ، ولا أخلاك أبداً من متجدِّد النُّعمى .

واصرفْ ما استطعتَ هِمَّتك عن هذا الظلّ القالِص ، والزخرف الغاطل ، والعيْش الزائل ، إلى ما وعدك الله ، فإن إلهامَهُ إيَّاكَ متى صادف طاعتَك له ، ودعاءه لك متى وافق إجابةً منك ، مَدَّت السعادةُ جناحَها عليك ، وصافحتْ يَدُ اليُمْن كفَّك ، ونجوتَ من معاطب عالَمٍ : الساكنُ فيه وَجِل ، والصاحي من أهله ثَمِل ، والمقيمُ على ذنوبه خَجِل ، والراحلُ عنه مع تماديه عَجِل ؛ وإنَّ داراً هذا من آفاتها وصُروفها ، لمحقوقة بهِجْرانها وتركها ، والصُّدُوف عنها ، خاصةً ولا سبيلَ لساكنها إلى دارِ قراره إلّا بالزهد فيها ، والرضى بالطفيف منها « كَبُلْغة الثاوي وزادِ المنطلِق » .

عَرَّفَنا الله حظَّنا ، وسلك بنا في طرق رُشدنا ، وَسَلَّ حُبَّ الدنيا من قلوبنا ، كل يوم جديد ، وحرسَك من نفسك ، وعصَمَك من بني جنسك ، وعرَّفك الخير ، وحبَّبَ إليك الإحسان ، ووفَّقَكَ للرشاد ، وختم أمرك بالطهارة بعد بلوغ الأماني وَدَرْكِ المطالب ، بمنّه وقدرته .

نصيحـــة

إِيَّاكَ أن تَعافَ سَماعَ هذه الأشياءِ المضروبة بالهَزْل ، الجاريةِ على السُّخف ، فإنَّك لو أضربتَ عنها جُمْلةً لنقص فهمُك ، وتبلّد طبعُك ولا يفتقُ العقلَ شيءٌ كتصفُّح أمور الدُّنيا ، ومعرفة خيرها وشرّها ، وعلانيتها وسرِّها ؛ وإنما نثرتُ هذه الفَواتح على ما اتّفق ، وقد كان الرأيُ نظم كل شيء إلى شَكْله ، وردّه إلى بابه ، ولكن مَنَعَ منه ما أنا مدفوعٌ إليه من انفتات حالي ، وانبتات مُنّتي ، والتواءِ مَقْصدي ، وفَقدِ ما به يُمسَكُ الرَّمَقُ ، ويُصانُ الوجهُ ، لاعوجاج الدهرِ ، واضطرابِ الحبل ، وإدبارِ الدُّنيا بأهلها ، وقُربِ الساعة إلينا ؛ فاجعل الاسترسالَ بها ذَريعةً إلى جَمامِك ، والانبساطَ فيها سُلَّماً إلى جِدّكَ ، فإنَّك متى لم تُذِقْ نفسَك فرحَ الهزل ، كَرَبَها غَمُّ الجِدّ ، وقد طُبعتْ في أصل التركيب على الترجيح بين الأمور المتفاوتة ، فلا تحملْ في شيء من الأشياء عليها ، فتكون في ذلك مُسيئاً إليها ، ولأمرٍ ما حُمِدَ الرِّفقُ في الأمور والتأتّي لها ، وما أحسنَ ما أشارَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم إلى هذا المعنى في قوله[1] : « إنَّ هذا الدينَ مَتينٌ ، فأوغِلْ فيه برفق ، فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطَع ، ولا ظهراً أبْقَى » .

قعـود وقيـام

قال الإِسكافي وأبو عيسى الوَرَّاق[2] : يجوزُ أن يكونَ الإنسانُ قاعداً قائماً ، ومتحركاً ساكناً ؛ هكذا حكى الكَعْبي وهو ثِقَةٌ . وهذا من شنيع القول وفاحش الاعتقاد .

---

١ ـ الحديث في مسند أحمد بن حنبل ٣ · ١٩٩ والمقاصد الحسنة : ٣٩١ ، قال : رواه البزار والحاكم في علومه والبيهقي في سننه . وقوله « فإن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » يجري مجرى المثل ؛ قال ابن سلّام : يقول إن هذا الذي كلّف نفسه فوق طاقتها من العبادة بقي حسيراً كالذي أفرط في إغذاذ السير حتى عطبت راحلته ولم يقضِ سفره (فصل المقال : ١٣ ؛ وانظر أيضاً الميداني ١ : ٦) .

(٢) الإسكافي أبو جعفر محمد بن عبدالله من أئمة المعتزلة . وإليه تنسب الفرقة الإسكافية . توفي سنة ٢٤٠ او ٢٤١ : له أخبار في المنية والأمل : ٤٤ والانتصار : ٢٠٢ و٢٢٨ والفرق بين الفرق : ١٦٩ والملل والنحل لمجهول . ١٠٣ وصفحات متفرقة من مقالات الإسلاميين ومادة الإسكافي في الأنساب ؛ وأما أبو عيسى الوراق فهو محمد بن هارون . توفي سنة ٢٤٧ ، وهو ممن ألف كتباً للشيعة كما فعل ابن الراوندي . ويحطّ عليه أبو حيان في كتبه ويسمه بالإلحاد (انظر مثلاً الإمتاع ٣ · ١٩٢ والهوامل والشوامل : ٢١٣) ؛ وفي ترجمة الوراق انظر لسان الميزان ٥ . ٤١٢ والفهرست : ٢١٦ ، وانظر فهرس كتاب الانتصار لآرائه .

وما أدري ما أقولُ في هذه الطائفة التي تَبِعت آراءً مَشُوبةً . وأهواء فاسدةً ، وخواطِر لم تختمر . وفروعاً لم يؤسس لها أصول ، وأصولاً لم تشرع على مَحْصول ، لا جَرَمَ اتَّسعَ الخَرْقُ على الراقع ، واشتبهَ الأمْر على المستبصِر ، وخاست بضائعُ العلماء . وعاد الأمْر إلى الهَزْلِ المقَّوى بِجِدّ ، والباطل المزيَّن بحقّ ، وذَهَب التُّقى ، وسقط الوَرَع ، وهُجِرَ التَّورُّع والتَّحرُّج ، وصار الجواب في كل مسألةٍ دَقَّت أو جَلَّت ، أو اتَّضحتْ أو أشكلتْ ، لا أو نعم ، كأنهم لا يعلمون أنهم لا يعلمون كلَّ شيء ، ولا يُحيطون بكلّ شيء ، وأنَّ الدينَ مشروعُ على التسليم والتعظيم والعمل الصالح ، واعتقاد ما عَرِيَ من الرأي المنقوض والعقل المنقوص ، وأن رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم لم يُجب في كل شيء ، ولا أثارَ ما لم يكن مأموراً بإثارته ، وأنه أُمر بالكفِّ والسكوت إلاَّ فيما عمَّ نفعُه ، وشملت عائدتُه ، وأُمنت عاقبتُه ، بذلك بُعِث ، وعليه حُثَّ وحَثَّ . إلى الله عزَّ وجلَّ أشكو عصرَنا وعلماءنا ، وطالبي العلم منَّا ، فإنَّه قد دَبَّ فيهم داءُ الحميّة ، واستولى عليهم فسادُ العَصَبية ، حتى صار الغيُّ متبوعاً ، والرُّشدُ مقموعاً ، والهوى معبوداً ، والحقُّ منبوذاً كلٌ يزخرف بالحيلة ولا يُنصف ، ويموِّه عليه بالخِداع ولا يَعْرف .

ولقد رأيت شيخاً من أبناء ستّين سنةً وهو يقول : ما ناظرتُ قطُّ في إثبات الرؤيةِ مَنْ ينفيها إلاّ انقطعتُ ، ولا أتيتُ بحجةٍ إلاّ زُوحمت ، ولا عَوَّلْتُ على أصل إلاّ نُوزِعت ، وما أمدي في ذلك إلاّ هوايَ في أني أحبّ إثباتَ الرؤية ، وأستوحشُ من نفيها ، فأنا أتبع ما يقوى في نفسي ، لأنَّ الله عزّ وجلّ قاذفُ تلك المحبةَ في نفسي ، ومُتولِّيها دوني ، ولو كان العملُ على بيان الخصم واحتجاج النَّظير وشواهد المناظر ، لقد كُنْتُ تحوَّلتُ في ألف مقالة ، فإنّي لا أسمعُ خطبةً مقالةٍ ، ولا ألحظ ظاهَر نِحْلَة ، إلا وأرى له من البهاء والحلاوة والحُسن والشارة ما لا أجدُ لغيره ، فإن ذهبتُ إلى تكافؤ الأدلّة قهرتُ العقل ، وفارقتُ المَحجّة ، وإن مِلْتُ إلى تَخْليصِ الحُجَّة من عوارض الشُّبهة رُمْتُ كَؤوداً ، ورُهِقْتُ صَعُوداً ، لكنّي مع ما أُلْقيَ في روعي لأني واثقٌ به ، وذلك أني لم أجلبه ولم أكسبه ، وإنما هو شيء سِيقَ إليّ سَوْقاً ، وشُوِّقت إليه شَوْقاً ، ولأن أكونَ مع هذه الدواعي أحبُّ إليّ من أن أُطيلَ المنازعةَ وأُكثَر البحثِ ، فإنَّ آفة المُنازعة ثَورانُ الطِّباع وَهَيْج النفس وعصبية الهوى ، وآفةَ البحث

الترددِ بين الاستيحاش والتحّير على غير يقين يُمسك الفؤاد ، ولا عمل يزوِّد إلى المَعاد .

هذا كلام هذا الرجل ، ولعلَّ فتنته فيما ذَهَب إليه ، وعَقَد إصبعه عليه ، أخفُّ من فتنةِ غيره ، وإذا كان بعضُ ما يَعْتري خائضَ هذا الغمر ، وراكبَ هذا البز ، فما نقول بأمور أدقّ من هذا وأخفى ؟! ولهذا قال بُنْدار بن الحسين ، وكان شيخَ فارس علماً وفضلاً ونُبْلاً : ما نظرتُ في الكلام قط إلاَّ رأيتُ في قلبي منه قَسْوَة ، وعلى لساني منه سَطْوة ، وفي أخلاقي مع خصومي جفوة .

وكان أبو زيد المَرْوَزي يقول ـ وشاهدتُه بمكة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ـ كنت أقرأُ علم الكلام على الأشعري أيامَ حداثتي بالبصرة ، فرأيتُ في المنام كأني قد فقدتُ عينيَّ جميعاً ، فاستعبرتُ حاذقاً بعلم الرؤيا فقال لي : لعلَّ هذا الرائي قد سلَخَ دينه ، وفارق حقاً كان عليه ، فإنَّ أوضحَ دلائلِ البصر على الدين والعقيدة . قال : فاستوحشتُ من هذه العبارة ، وانقبضتُ عن المجلس ، فسأل عني وجدَّ في تعرُّف خَبَري وألحَّ على نُظرائي ، فلم أرْتَجْ ولم أهتزَّ ، فبينا أنا على انقباضي إذ جَمِعَني وإيّاه طريقٌ ، فبدأني بالسَّلام ، وأطال طَرَفَ الحديث ، وشهد تَعَسُّري في الإجابة ، واستيحاشي من الطريقة ، فقال لي عند آخر كلامه : إن كنتَ تنفرُ من مقالتنا التي شاهَدْناها ونصرناها ، فاحضرْ واقرأْ أيَّ مقالةٍ أحببتَ فإنِّي أدرّسها لك . قال أبو زيد : فازددتُ في نفسي نُفوراً ، وكان سبب إلحافه وتشدُّده أنّي كنتُ حديثَ السِّن ، وكان للعينِ فيَّ مجال ، ثم ثَبَّتني الله تعالى على هجران هذا الفن ، وأقبل بي على الحق والفِقْه ، وبلَّغني هذه الحالَ التي أسألُ الله عزَّ وجلَّ تمامَها وخَيْرَ عاقبتها .

هذا نصّ ما حفظتُه عنه ، وإن كنتُ قدّمتُ بعضَ اللفظ وأخّرت ، فإنّي لم أحرِّفِ المعنى ، ولم أزدْ فيه من عندي شيئاً . ولقد سمع هذا ابنُ المرزُبان الشافعي سنة تسعٍ وخمسين مع أصحابه بعد أن عاد أبو زيد من الحجاز والشام إلى مدينة السلام قاصداً إلى خراسان .


عن الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي
١٩٩٥

الصداقة والصديق

لكم حن أبو حيان إلى الصداقة العميقة ، وحنينه وتوقه الإنسانى إليها تجسد فى هذا الكتاب الذى بدأ فى وضعه بعد خيبته فى إقامة علاقة قوية بابن العميد والعماد ، إضافة إلى صدمته فى الآخرين ، ومن الكتاب اخترنا مقدمته التى حوت سطوراً عميقة فى التعبير عن الغربة . اعتمدنا على الطبعة الصادرة فى القاهرة عن مكتبة الآداب . سنة ١٩٧٢ ميلادية ، بتحقيق الأستاذ على متولى صلاح .

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم خذ بأيدينا فقد عَثَرنا[١] ، واستر علينا فقد أعْوَرْنا[٢] ، وارزقنا الألفة التى بها تصلح القلوب ، وتنقى الجيوب[٣] ؛ حتى نتعيش[٤] فى هذه الدار مصطلحين[٥] على خير ، مؤثرين للتقوى ، عاملين شرائط الدين ، آخذين بأطراف[٦] المروءة ، آنفين[٧] من ملابسة[٨] ما يقدح[٩] فى ذات البين[١٠] ، متزودين للعاقبة التى لابد من الشخوص[١١] إليها ، ولا مَحيد[١٢] عن الاطلاع عليها ؛ إنك تؤتى من تشاء ما تشاء .

سُمع منى فى وقت بمْدينة السلام[١٣] كلام فى الصداقة والعشرة والمؤاخاة والألفة ما يلحق بها من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة والجود والتكرم ، مما قد ارتفع رَسْمه[١٤] بين الناس ، وعفى[١٥] أثره عند العام والخاص ، وسُئِلتُ إثباته ففعلت ، ووصلت ذلك بجملةٍ مما قالَ أهل الفضل

---

(١) عثرنا : زللنا وكبوْنا .

(٢) أعورنا : تقول (أعْوَرَ الفارسُ) إذا بدا فيه موضع خلل للطعن ، والمراد أنه قد ظهرت مواطن ضعفنا .

(٣) الجيوب : جمع جَيْب ، وهو القلب والصدر .

(٤) نتعيّش : نحيا .

(٥) مصطلحين : متفقين .

(٦) أطراف المروءة : نواحيها .

(٧) آنفين : أنِفَ من الشيء ـ استنكف منه ، وتَنَزّهَ عنه .

(٨) ملابسة : لابَسَ الأمرَ ـ زاوَلَهُ .

(٩) ما يقدح : قدح فى عرضه ـ طعن فيه وعابه وتنقصه .

(١٠) ذات البين : الوصل ، والصداقة ، والنسب ، والقرابة .

(١١) الشخوص إليها : الذهاب إليها .

(١٢) لا محيد : لا ميْل ولا عدول .

(١٣) مدينة السلام : بغداد .

(١٤) رَسْمُهُ : الرسم ما كان لاحقاً بالأرض من آثار الديار ، ويطلق على ما يقابل الحقيقة ، قال الشاعر « أرى ودكم رسْماً وودّى حقيقةً » .

(١٥) عفى أثره : امّحى ، واضمحل .

والحكمة وأصحاب الديانة والمروءة ؛ ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يُستفاد منها ، ويُنتفع بها فى المعاش[١] والمعاد[٢] .

وسمعت الخوارزمى أبابكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول : « اللهم نَفِّقْ[٣] سوق الوفاء فقد كَسَدَتْ ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تُمتْنى حتى يبور الجهل كما بار العقل ، ويموتِ النقص كما مات العلم » .

وأقول : اللهم اسمع واستجب فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء[٤] ، وطال الانتظار ، ووقع البأس ، ومرض الأمل ، وأشفى[٥] الرجاء ، والفرج معدوم . وأظن أن الداء فى هذا الباب قديم ، والبلوى فيه مشهورة ، والعجيج[٦] منه معتاد .

فأول ذلك أنى قلت لأبى سليمان محمد بن طاهر السجستانى : إنى أرى بينك وبين ابن سيار القاضى مُمازحة نفسية ، وصداقة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، ومؤاتاة[٧] خلقية ، فمن أين هذا ؟ وكيف هو ؟ فقال : يا بنى ، اختلطت ثقتى به بثقته بى ، فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يَرِثَّان[٨] على الدهر ، ولايُحوَّلان[٩] بالقهر[١٠] ومع ذلك فبيننا بالطالع[١١] ومواقع الكواكب مشاكلةَ عجيبة ، ومظاهرة[١٢] غريبة ، حتى إنا نلتقى كثيراً فى الإرادات والاختيارات والشهوات والطلبات ، وربما تزوارنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل ، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الأوان حتى كأنها قسائم[١٣] بينى وبينه ، أو كأنى هو فيها ، أو هو أنا ، وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها ، فنراها فى ذلك الوقت ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل .

---

(١) المعاش . الحياة الدنيا .
(٢) المعاد : الحياة الآخرة .
(٣) نَفِّقْ سوق الوفاء : روِّجها ورغِّب فيها .
(٤) الجفاء : الهجر ، والإعراض ، وفعل ما يسوء .
(٥) أشفى الرجاء . ذهب ، وَغَرَبَ ، وبَعُد .
(٦) العجيج : الصِّياح ورفع الصوت .
(٧) مؤاتاة : موافقة .
(٨) لا يَرِثَّان : لا يَبْلِيَان .
(٩) لا يحولان . لا يُزَالانِ .
(١٠) القهر : الغلبة .
(١١) الطالع : هو ـ فى اصطلاح المنجمين أو الفلكيين ـ ما تنَبأ به المنجِّم من الحوادث بطلوع كوكب معين .
(١٢) مُظاهرة . مُطابقة .
(١٣) قسائم : انصبة واشْطُر مقسومة بينهما .

قال : ورأيته قد ملكه التعجب من هذا وشبهه ، فحدثته بما نتقاسمه من قوى الفَلَك[١] ، وأن سهامنا واحدة ، وأنصابنا[٢] منها متساوية أو قريبة من التساوى . فعجب ، وازداد بصيرة فى إخلاص الصداقة وتوكيد العلاقة ، فقلت لأبى سليمان : كيف يصح هذا وأنت مطَالبُك فى الفلسفة ، وصورك مأخوذة من الحكمة ، وقتيبتك[٣] مجموعة من الحقائق وخوضك فى الغوامض والدقائق ، وذاك رجل فى عداد القضاة [٤] وجِلَّة الحكام وأصحاب القلانس[٥] ، ومخاضه[٦] الظاهر الذى عليه الجمهور[٧] ، ومأخذه مما عليه السواد[٨] الأعظم ؟

فقال : هذا هو الذى انفردنا عنه بعد أن ازدوجنا[٩] عليه ، والأصل أبداً مخالف للفرع لا خلاف الضد للضد ، ولكن خلاف الشكل للشكل ، وكان مُشتريه[١٠] خالياً من قوة زُحَل[١١] ، فبرز فى حلبة القضاة ، وكان المشترى لى مقتبساً من زحل ، فظهرت بما ترى ، فجمعتنا المشاكلة على العلم ، وفرقنا الاختلاف بالفن .

قلت : هذا والله طريف[١٢] ، ومما يزيد فى طرافته أنك من سجستان وهو من الصَيْمَرَة .

---

(١) الفَلَك : مدارالنجوم ، وعلْمُ الفلك علْمٌ يُبْحَثُ فيه عن الأجرام العلوية .
(٢) أنصابنا : حظوظنا وأنصبتنا .
(٣) قتيبتك : رَحْلك ، أى وعاؤك ، وفى القرآن « جعلوا بضاعتهم فى رحالهم » أى فى أوعيتهم .
(٤) جِلّة الحكام ، جمع جليل وهو العظيم .
(٥) القلانس : جمع قَلَنْسُوة ، وهى لباسٌ للرأس مختلف الأنواع والأشكال .
(٦) مَخَاضه ، موضع الخوض فى الماء ، وما جاز فيه الناس مشاة وركبانا .
(٧) الجمهور : جُلّ الناس ، وأشرافهم .
(٨) السواد ، العدد الكثير .
(٩) ازْدَوجْنا ، اقترنَّا .
(١٠) المُشْترى : أكبر الكواكب السيارة ، وهو فى الأساطير كبير الآلهة .
(١١) زُحَل : أعظم الكواكب السيارة وأبعدها فى النظام الشمسى ، وفى الأساطير الإغريقية : كبير الآلهة ، وهو مَثَلٌ فى العلو والبعد ويقال له : شيخ النجوم .
(١٢) الطريف ، الغريب النادر .

فقال : الأمكنة فى الفلك أشد تَضَاماً من الخاتم فى إصبعك ، وليس لها هناك هذا البعد الذى تجده بالمسافة الأرضية من بلد إلى بلد بفراسخ[١] تُقطَع ، وجبال تُعْلَى ، وبحار تُخرْقَ[٢] .

فقلت : هل تجد[٣] عليه فى شىء ؟ ، أو يجد عليك فى شىء ؟

فقال : وَجْدى[٤] به فى الأول قد حجبنى عن مَوجْدتى[٥] عليه فى الثانى ، على أنه يكتفى منى فيما يخالف هواى باللمحة الضئيلة ، وأكتفى أنا أيضاً منه فى مثل ذلك بالإشارة القليلة ، وربما تعاتبْنا على حال تعرض على طريق الكناية[٦] عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين ، ويكون لنا فى ذاك مَقْنع[٧] ، وإليه مَفْزع[٨] . وقل ما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرارٍ ما سافرتْ عن ضميرى إلى شفتى ، ولا نَدَّت[٩] عن صدرى إلى لفظى ؛ وذلك للصفاء الذى نتساهمه[١٠] ، والوفاء الذى نتقاسمه ، والباطن الذى نتفق عليه ، والظاهر الذى نرجع إليه ، والأصل الذى رسوخُنا فيه ، والفرع الذى تَشَبُّثُنا[١١] به . والله ما يسرنى بصداقته حُمر[١٢] النَّعَم ، ولا أجد بها بحياتى لى ، وإذا كنت أعشق الحياة لأنى بها أحيا ، كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة ، وجنى لى ثمراتها ، وجلب إلىّ روحها ، وخلط بى طيبها وحلاوتها .

---

(١) فراسخ : جمع فرسخ ، وهو ثلاثة أميال هاشمية ، وقيل اثنا عشر ألف ذراع .
(٢) تُخْرَق : خَرَقَ المفازة ـ قطعها حتى بلغ أقصاها .
(٣) تَجِدُ عليه : تغضب عليه .
(٤) وَجْدى به : وجد به ـ أحبه .
(٥) موْجِدتى عليه : غضبى عليه .
(٦) الكناية : كَنَاية عن كذا يكنو (واوى) أى ذكره ليدل به على غيره ، وكنى به عن كذا يكنى (يائى) أى تكلّم بما يستدل به عليه ، أو أن يتكلم بشىء وهو يريد غيره .
(٧) مَقْنع : رضاً نقنع به .
(٨) مَفْزَع : مَلْجأ .
(٩) نَدَّتْ : شَرَدَتْ ونَفَرَتْ . ويريد بقوله « ما سافرت عن ضميرى إلى شفتى » وبقوله كذلك « ولا ندت عن صدرى إلى لفظى » أن هذه الأسرار لم تجْرِ على لسانه ، ولم يذكرها لأحد من الناس ، بل ظلت حبيسة فى ضميره وصدره .
(١٠) نتساهمه : نتقاسمه .
(١١) تشبثنا به : تعلُّقنا به .
(١٢) حُمْرُ النَّعَم : الجمال الحُمْر . وهى عندهم أشرف الأموال .

وكان أبو سليمان يحدثنى عن ابن سيار بعجائب ، وأما أنا فما عرفته إلا قاضياً جليلا صاحب جد وتفخيم ، وتوقير وتعظيم ، وكان مع ذلك بسيط اللسان ، شريف اللفظ ، واسع التصرف ، لطيف المعانى[1] ، بعيد المرامى ، يذهب مذهب أبى حنيفة .

ثم قال أبو سليمان : الصداقة التى تدور بين الرغبة والرهبة شديدة الاستحالة[2] ، وصاحبها من صاحبه فى غرور[3] ، والزَّلَّة[4] فيها غير مأمونة ، وكسْرها غير مجبور[5] .

قال : فأما الملوك فقد جَلوًا[6] عن الصداقة ؛ لذلك لا تصح لهم أحكامها ، ولا توفى بعهودها . وإنما أمورهم جارية على القدرة والقهر[7] والهوى[8] والشائق[9] والاستحلاءِ[10] والاستخفاف[11] . وأما خدمهم وأولياؤهم[12] فعلى غاية الشبه بهم

---

(١) لطيف المعانى : غامضها وخفيُّها .
(٢) الاستحالة : استحال الشيء ـ تحوَّل من حال إلى اخرى .
(٣) غرور : اباطيل ، وتزيين الخطأ بما يوهم انه صواب .
(٤) الزلة : السَّقْطة .
(٥) مجبور : جَبَرَالعظمَ ـ أصلحه من كسْر .
(٦) جلوا عن الصداقة : عظمت اقدارهم عنها .
(٧) القهر : الغلبة .
(٨) الهوى : إرادة النفس ، والمهْوِىُّ ـ محموداً كان او مذموماً ـ وغلب على غير المحمود ، يقال « فلان اتبع هوَاه» إذا أريد ذمُّه .
(٩) الشائق : المُحبَّب إلى النفس .
(١٠) الاستحلاء : أن تجد الشيء حُلْواً .
(١١) الاستخفاف : الاستهانة .
(١٢) أولياؤهم : جمع وَلِىٍ ، وهو المُحب والصديق والنصير .

ونهاية المشاكلة[١] لهم ؛ لا نتشابهم[٢] بهم ، وانتسابهم إليهم ، وَوَلُوع [٣] طورهم [٤] بما يصدر عنهم ويرد عليهم . وأما الثنا[٥] وأصحاب الضِّياع[٦] فليسوا من هذا الحديث فى عِيرٍ[٧] ولا نفِيرٍ[٨] . وأما التجار فكسب الدوانق [٩] سدٌّ بينهم وبين كل مروءة ، وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة[١٠] وأما أصحاب الدين والورع فعلى قلتهم ربما خلصت لهم الصَّداقة ؛ لبنائهم إياها على التقوى وتأسيسها على أحكام الحرج[١١] وطلب سلامة العقبى[١٢] . وأما الكتاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد والتمارى [١٣] والتماحك[١٤] فربما صحت لهم الصداقة وظهر منهم الوفاء . وذلك قليل ، وهذا القليل من الأصل القليل . وأما أصحاب المذابّ[١٥] والتطفيف[١٦] فإنهم رجرجة[١٧] بين الناس لا محاسن لهم فتذكر ، ولا مساعى فتنشر[١٨] ؛ ولذلك قيل لهم :

---

(١) المشاكلة : المماثلة .
(٢) لانتشابهم : انتشب فيه ـ اعتلق به .
(٣) الوَلُوعُ : شدة التعلق .
(٤) طورهم : يقصد المعاصرين لهم فى زمانهم .
(٥) الثنا : ثنى فلان زيداً ، واثْنَاهُ ـ كان ثانيه ، ومنه (وهذا واحد فاثنه) اى كُنْ ثانيه .
(٦) الضِّيَاع : جمع ضَيْعة ، وهى الحِرفْة والصناعة .
(٧) العِير : الإبل التى تحمل الطعام .
(٨) النَّفِير : الذهاب إلى القتال والمقصود بقوله « إنهم ليسوا من هذا الحديث فى عيرو ولا ونفير » انهم لا شأن لهم ولا ذكر لهم فيه .
(٩) الدوانيق : جمع دانق ، وهو سدس الدرهم .
(١٠) الفتوة : السخاء والكرم والمروءة .
(١١) الحَرَج : مجانبة الآثام .
(١٢) العقبى : آخر كل شىء ، والآخرة .
(١٣) التمارى : الشك .
(١٤) التماحك : التلاحى والخصومة .
(١٥) المذابّ : جمع مِذَبّة (بالكسر) وهى ما يُذَبُّ به كالمزوحة .
(١٦) التطفيف : نقص المكيال ، وهو الا تملأه إلى رأسه .
(١٧) الرجرجة : الاضطراب .
(١٨) فتنشر : فتذاع .

هَمَجٌ[1] وَرَعَاع[2] وأوباش[3] وأوناش[4] ولفيف[5] ورعائف[6] وداصة[7] وسُقَاط[8] وأنذال[9] وغوغاء[10] ؛ لأنهم من دقة الهمم ، وخساسة[11] النفوس ، ولؤم الطبائع ، على حال لا يجوز أن يكونوا فى حَوْمة[12] المذكورين وعصابة المشهورين .

فلهذه الأمور الحائلة عن مقارها [13] ، الزائغة إلى غير جهاتها [14] ، علل وأسباب لو نَفَّس الزمان[15] قليلا لكنا ننشط لشرحها ، وذكْر ما قد أتى النسيان عليه ، وعفى أثره الإهمال ، وشغل عنه طلب القوت . ومن أين يظفر بالغداء من كل عاجزاً عن الحاجة ؟ وبالعشاء من كان قاصراً عن الكفاية ؟ وكيف يحتال فى حصول طِمْرين [16] للستر لا للتجمل ؟ وكيف يُهرَب من الشر المقبل ؟ وكيف يُهروْلَ [17] وراء الخير المدبر ؟ وكيف يستعان بمن لا يعين ، ويُشْتَكى إلى غير رحيم ؟

---

(١) الهمج : الرَّعاع من الناس ، الحمقى .
(٢) الرعاع (بالفتح) : سُقاط الناس وسفلتهم وغوغاؤهم .
(٣) أوباش : جمع وبش (بالفتح والتحريك) والأوباش الأخلاط والسفلة .
(٤) أوناش : ذوو بطش .
(٥) لفيف : أخلاط .
(٦) رعائف : صخور وأحجار .
(٧) داصة : لصوص ، جمع دائص .
(٨) سقاط : بضم السين وفتح القاف وتشديدها ـ جمع ساقط وهو لئيم الحسب والنفس ، المتأخر عن الناس الذى لا يُعَدُّ فى خيار الفتيان .
(٩) أنذال : جمع نَذْل ، وهو الخسيس من الناس ، والساقط فى دين أو حسب ، والمحتقر فى جميع أحواله .
(١٠) الغوغاء : الكثير المختلط من الناس ، والسفلة المتسرعون إلى الشر .
(١١) خساسة النفوس : رذالتها .
(١٢) الحومة : موضع القتال ، والمقصود هنا انه لا يجوز ان يكونوا مع المذكورين فى ميدان واحد وفى منزلة واحدة .
(١٣) الحائلة عن مقارها : المتحولة عن مواضعها التى استقرت فيها .
(١٤) الزائغة : المائلة .
(١٥) لو نَفَّسَ الزمان : لو أمهل .
(١٦) طمْرين : مثنى طِمْر ، وهو الثوب الخَلَقَ ، وقيل الكساء البالى من غير الصوف .
(١٧) يهرْول : يسرع فى المشى .

ولكن حال الجريض[1] دون القريض[2] ، ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما فى النفس من الحرُق والأسف والحسرة والغيظ والكَمَد[3] والوَمَد[4] ، وكأنى بغَيرك إذا قرأها تقبّضت[5] نفسه عنها ، وأمرَّ[6] نقدُهُ عليها ، وأنكر علىّ التطويل والتهويل بها . وإنما أشرت بهذا إلى غيرك ؛ لأنك تبسط من العذر ما لا يجودُ به سواك ، وذاك لعلمك بحالى ، واطِّلاعك على دُخلتى[7] واستمرارى على هذا الإنفاض[8] والعَوزَ اللذيْن قد نَقَضَا[9] قوتى ، ونَكَثَا[10] مِرَّتى[11] ، وأفسدا حياتى ، وقرنانى بالأسى[12] ، وحجبانى عن الأُسَى[13] ، لأنى فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق ، والله لربما صليت فى الجَامع فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ، فإن اتفق[14] فبقال أو عصار أو نَدّاف[15] أو قصاب ، ومن إذا وقف إلى

---

(١) الجريض : الغُصَّة . والرّيق يُغَصُّ به .

(٢) القريض : الشِّعْر . و« حال الجريض دون القريض » مَثَل يضرب لأمر يَعُوقُ دونه عائق ، وورد فى معناه « حال الأجل دون الأمل » .

(٣) الكَمَدُ : (بفتح الكاف وفتح الميم وتسكينها) - الحزن الشديد المكتوم .

(٤) الوَمَد : (محركة) - شدة حرّ الليل .

(٥) تقبضت نفسه عنها : اشمأزت .

(٦) امَر نَقْدُهُ : امَرَالشىءُ - صار مُرّاً .

(٧) دُخْلتى : دخلة الرجل (بالتثليث) - داخلتُه .

(٨) الإنفاض : انفض القوْم - أرملوا . وقيل هلكت أموالهم وفَنِىَ زادهم أو افنوه .

(٩) نقضا قوتى : هَزَلاهَا .

(١٠) نكثا : نَقَضا وهَزَلا .

(١١) مِرتى : قوتى وشدتى .

(١٢) قرنانى بالأسى : وصلانى بالأسى ، والأسى - الحزن .

(١٣) حجبانى عن الأسُى : الاسى - جمع أسوة بكسر الهمزة وبضمها ، وهو ما يأتى به الحزينِ يتعزى به ، وجمعها اسى بكسر الهمزة وبضمها ، ثم سمِّى الصبر اسَىً .

(١٤) اتفق : تصادف .

(١٥) النَّدَّافُ : الذى يضرب القطن بالمِنْدف .

جانبى أسْدَرني[1] بصُنانه[2] ؛ وأسكرنى بنَتَنِه ، فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النِحْلة [3] ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة محتملا للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً لما لابد من حلوله ؛ فشمس العمر على شَفَا[4] وماء الحياة إلى نُضُوب[5] ، ونجم العيش إلى أفول[6] ، وظل التلبُّث[7] إلى قُلوص[8] .

وفى تمجيد الصمت مرَّ بى كلام لبعض الحكماء القِدماء ، أنا أروِيه لك ههنا لالأجُدِّد عليك بما ليس عندك ، ولكن لأُذْكِرَك ؛ فإن الإذْكار[9] بالخير بعثٌ على الاهتمام به ، والبعث عليه سلوكٌ لطريقه .

قال هذا الحكيم : لو لم يكن للصامت فى صمته إلا الكفاية لأن يتكلم ، فيُحكى عنه محرفاً ، فيضطر إلى أن يقول : ليس هكذا قلت ، وإنما قلت كذاوكذا ، فيكون إنكاره إقراراً ، ويكون اعترافه بأصل ما حُكِى عنه شاهداً لمن وشَىَ به ، وادّعاؤه التحريف غير مقبول منه بلا بيّنة يأتى بها ، لكان ذلك من أكبر فضائل الصمت ، وأدَعُ هذا كله وأقول : كان سبب إنشاء هذا الرسالة فى (الصداقة والصديق) أنى ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبى الخير ، فَنَمَاهُ[10] إلى ابن سعدان الوزير أبى عبدالله سنة

(١) اسدرنى : حَيَّرنى .
(٢) صُنانه : الصنان (بضم الصاد) - رائحة الإبط المنتن .
(٣) النِّحْلة : المذهب والديانة .
(٤) على شفا : اى لم يبق منه إلا قليل ، ويقال للرجل عند موته ، وللقمر عند امّحاقه ، وللشمس عند غروبها : « ما بقى منها إلا شفا » ، اى قليل .
(٥) نضوب : يقال : « نَضَبَ عنه البحرُ » اى نَزَحَ ماؤهُ ونشِف .
(٦) افول : غياب .
(٧) التلبُّث : التوقُّف .
(٨) قلوص : ذهاب .
(٩) الإذكار : اذْكَرَهُ الشىء - جعله يَذْكُرهُ والمصدر إذْكار .
(١٠) فنماه : فبلغه .

إحدى وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة ، حين كانت الأشغال خفيفة ، والأحوال على أدلالها[1] جارية .

فقال لى ابن سعدان : قد قال لى زيد عنك كذا وكذا .

قلت : قد كان ذاك .

قال : فدوِّن هذا الكلام ، وصِلْهُ بِصِلاتَه[2] مما يصح عندك لمن تقدم ، فإن حديث الصدق حلو ، ووصف الصاحب المساعد مطرب . فجمعت ما فى هذه الرسالة وشغل عن رد القول فيها ، وأبطأت أنا عن تحريرها إلى أن كان من أمره ما كان ، فلما مر على ذلك بعض سنين ، عثرت على المسوَّدة ، وبَيَّضْتُها على نحيلها[3] ، فإن راقتك فذاك الذى عزمت بنيّتى وحَوْلى[4] واستخارتى[5] ، وإن تزحلقت[6] عن ذلك فللعذر الذى سحبت ذيله[7] ، وأرسلت سيْله[8] .

وقبل كل شىء ينبغى أن نثق بأنه لا صديق ولا من يتشبه بالصديق ، ولذلك قال جميل بن مرة فى الزمان الأول حين كان الذين عُرفوا بالإخلاص ، والمروءة تتهادى[9] بين الناس ، وقد لزم قعر البيت ، ورفض المجالس ، واعتزل الخاصة والعامة .

وعُوتب فى ذلك فقال : لقد صحبت الناس أربعين سنة ، فما رأيتهم غفروا لى ذنباً ، ولا ستروا لى عيباً ، ولا حفظوا لى غيْباً ، ولا أقالوا بى عَثْرة ، ولا رحموا لى عَبْرة ، ولا قبلوا منى معذرة ، ولا فكّونى من أسْرَة ، ولا جبروا لى من كَسْرَة ، ولا بذلوا لى نَصْرة .

---

(١) أدلالها : الدَلُّ ـ الحالة التى يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة ، والجمع أدلال ، والمقصود أن الأمور تسير سيرها الطبيعى المألوف .

(٢) صِلْه بصلاته : أى ألحِقْه بما ترى أنه يتصل به مما قال الأقدمون .

(٣) نحيلها : أصلها الهزيل السقيم الذى كاد يذهب .

(٤) الحَوْل : الحيلة ، وهو أيضا القوة .

(٥) الاستخارة : طلب الخِيرة ، يقال « استخِر الله يخِر لك » أى اطلب من الله أن أن يختار لك ما يوافقك فيختار .

(٦) تزحلقت : تَدَحرجْت .

(٧) سحبت ذيله : الذيل ـ آخر كل شىء ، وذيل الثوب والإزار ـ ما جُرَّ منه إذا أسْبِلَ ، والمقصود ، فللعذر الذى أبديته عن آخره ولم أكتم منه شيئا .

(٨) أرسلت سيله : السيل ـ الماء الكثير ، وقد شَبَّه به العذر الذى اعتذر به .

(٩) تتهادى : تمشى وحدها مشياً غير قوى متمايلا .

ورأيت الشغل بهم تضييعاً للحياة ، وتباعداً من الله تعالى ، وتجرُّعاً[1] للغيظ مع الساعات ، وتسليطاً للهوى فى الهَنات[2] بعد الهنات .

ولذلك قال الثورى لرجل قال له أوْصِنى : أنْكِرْ مَنْ تعرفه . قال : زدْنى . قال : لا مزيد .

وكان ابن كعب يقول : لا خير فى مخالطة الناس ، ولا فائدة فى القرب منهم والثقة بهم والاعتماد عليهم ؛ ولذلك قال الأول :

إخاءُ الناس مُمْتَزِجُ ... وأكبر فعْلهم سَمِجُ[3]

فإن بَدَهَتْك مَقْطَعةٌ ... فما لدنيئهم فَرَجُ[4]

فقوِّمْهم بهجرهُم ... فإن لم يُهجَروا اعْتوجُوا[5]

صروف الدهر دانيةٌ ... تَقَطَّعُ بينها المُهَجُ[6]

وأنشدنى أبو إسحق إبراهيم بن هلال الكاتب الصابى فى أحوال الزمان :

أيارِبّ : كلُّ الناس أبناء عَلَّةٍ ... أما نعْثُر الدنيا لنا بصديق ؟[7]

---

(1) تجرُّعاً للغيظ : كظْماً للغيظ ، وحبْساً له ، وإمساكاً على ما فى نفسه منه .

(2) الهَنات : خَصلات الشر ، ولا تقال فى الخير .

(3) ممتزج : مختلط غير صاف . سمج : قبيح .

ومعنى البيت : أن صداقة الناس ليست صافية ، وإنما يخالطها دائماً الهوى والحقد ، ولو تأملت أعظم أعمالهم لوجدته منكراً قبيحاً .

(4) بدهَتْك : بَغَتَتْك وفجِئتك .

مقطعة : قطيعة ، وهجر وعقوق . دنيئهم : الدنىء ـ الخسيس والدُّون .

فرج : فرَّج الله الغَم ـ كشفه ، وانفرج الغم والكرب ـ انكشف ، وانفرج فلان من ضيقه ـ تخلص .

ومعنى البيت ـ أنهم إن قاطعوك وهجروك لغير سبب ، فتلك طبيعتهم التى تلازمهم دائماً ، ولا يستطيعون الفكاك منها ، ولن تجد منهم يوماً غير ذلك .

(5) قوِّمْهم : عدِّلهم وأصلحهم . اعتوجوا : ساء خلقُهم .

يقول الشاعر : أصلحْهم بهجرهم وقطيعتهم ، فذلك علاج لسوء فعالهم ؛ فإنك إن لم تهجرهُم ، زاد اعْوجاجهم وسوء خلقهم

(6) صروف الدهر : نوائبه وحوادثه .

دانية : قريبة . تَقَطَّعُ : تتقطع .

المُهَجُ : القلوب والأنفس ، جمع مُهْجة .

أى إن حوادث الدهر ونوائبه قريبة الوقوع ، وهى حوادث تتقطع منها القلوب .

(7) عَلَّة : بنو العَلَّات ، بفتح العين ، ـ بنو رجل واحد من أمهات شتى ، والواحدة عَلَّة ، وهى الضَرَّة .

والمعنى : أن كل الناس ليسوا أشقاء ، أى ليسوا من أب واحد وأم واحدة ، والمقصود أن اخوَّتهم ليست كاملة ، ولن نعثر فى هذه الدنيا بصديق كامل الصداقة .

وجوهٌ بها من مُضْمَر الغِلّ شاهدٌ ذوات أديمٍ فى النفاق صفيق(١)
إذا اعترضوا دون اللِّقاء فإنهم قَذًى لعيون ، أو شَجًى لحُلوقِ(٢)
وإن أظهروا بَرْد الوداد وظله أسرُّوا من الشَّحناء حَرَّ حريق(٣)
ألا : ليتنى حيث انْتوتْ أفرخ القطا بأقصى محل فى الفَلاة سحيق(٤)
أخو وَحْدة قد آنستنى ، كأننى بها نازل فى معشرى وفريقى(٥)
فذلك خير للفتى من ثَوَائِهِ بمَسْبعة ، من صاحب ورفيق(٦)

---

(١) مُضْمَر : خفىّ . الغِل : الغش والحقد .
شاهد : دليل . اديم : جُلد . صفيق : ضد رقيق .
والمعنى : ان قلوبهم ممتلئة بالحقد والعداوة ، وذلك يبدو على وجوههم ، وإن حاولوا إخفاءه تحت جلودهم الصفيقة السميكة .
(٢) اعترضوا دون اللقاء : حالوا دونه .
قَذَى لعيونٍ : القذى – ما يقع فى العين من تِبْنَةٍ او غيرها ، تقول « صار الامر قذىً فى عينيْه » اى اقلقه واجتهد فى إزالته .
= شَجَىً لِحُلُوق : الشجا – ما اعترض فى الحلْق من عظم ونحوه ، ثم استُعير للهمِّ والحزن ؛ لأن الإنسان يَغَصُّ بهما .
ومعنى البيت : انهم إن حالوا دون اللقاء ، فما هم عند اللقاء إلا قذى للعين إذْ تراهم وما هم إلا شجى للحلق كالعظم الذى يتوقف فيه فيؤذيه ويُضْنيه .
(٣) اَسَرُّوا : اضمروا واخفوا .
الشَّحْناء : العداوة التى تمتلىء منها النفوس .
والمعنى : أن الناس قد يُظهرون لك المودة ، وما هو إلا مظهر كاذب ؛ فإنهم يضمرون لك العدواة الملتهبة كنار الحريق .
(٤) انْتوت : اقامت ، تقول « انتوى القومُ بموضع كذا » اى أقاموا .
افْرُخُ القَطا : القطا نوع من اليمام يُؤثر الحياة فى الصحراء ، ويطير مسافات شاسعة .
الفلاة : الصحراء . سحيق : بعيد .
اى ليتنى اقيم بعيداً عن الناس حيث تُقيم افرخ القَطا فى الصحراء البعيدة ، فلا أرى منهم أحداً ، ولا أكابد من شرورهم ما أكابد .
(٥) اخو وَحْدة : صاحب وحدة . انستْنى : اى الوحدة .
معشرى : أهلى . فريقى : طائفتى وجماعتى .
يقول الشاعر . إنى أَنِسٌ بالوحدة حتى لكانى – وأنا وحيد منفرد – اعيش بين اهلى وطائفتى ، فالوحدة تُؤنسنى ولا أستشعر فيها وحشة ، ولا أحس انفرادا .
(٦) ثَوَائِه . إقامته ، تقول « ثَوَى بالمكان » اى اقام فيه .
المسبعة . الأرض التى تكثر فيها السباع .
الرفيق : المرافق .
= والمعنى : ان الوحدة خير للإنسان من ان يقيم بين الناس الذين هم – فى حقيقتهم – كالسباع . وأرضهم – فى حقيقتها – كالمسبعة التى تكثر فيها السباع ؛ فإن تلك السباع خير من الصاحب والرفيق .

وكان العسجدى يقول كثيراً : الصداقة مرفوضة[1] ، والحِفاظ معدوم ، والوفاء اسم لا حقيقة له ، والرعاية موقوفة على البذل ، والكرم فقد مات ، والله يحيى الموتى .

استرسال الكلام فى هذا النَمط شفاء للصدر ، وتخفيف من البَرحاء[2] ، وانْجياب[3] للْحُرقة ، وإطْراد للغيظ ، وبَرْد للغليل[4] ، وتعليل للنفس[5] .

ولا بأس بإيراد كل مالاءَمهُ ودخل فى حَوْزته[6] وإن كان آخرُهُ لا يُدرَك ، وغايته لا تُمْلك .

قال صالح بن عبدالقدوس :

بَنىَّ ، عليك بتقوى الإلـ	ـهِ ؛ فإن العواقب للمتقى[7]
وإنك ماتأتِ مْن وجهها	تجد بابها غير مُسْتَغْلِقِ[8]
عدوَك ذو العقل أبقى عليـ	ـك من الصاحب الجاهل الأخرقِ[9]
وذو العقل يأتى جميل الأمور	وذى خَلَّةَ الأرشد الأوفق[10]

---

(١) مرفوضة : متروكة ، وَرَفَضَ الشيء ـ تركه ورَمَاه وجانَبَهُ .

(٢) البُرَحَاء : شدة الأذى والمشقة .

(٣) انْجيابُ الحرقة : انكشافها وانقطاعها ، والحرقة (بضم الحاء وفتحها وتسكين الراء) ـ الاحتراق ، والحرارة .

(٤) الغليل : حرارة العطش .

(٥) تعليلُ للنفس : تَلْهيةُ لها ، كما يُعلِّلُ الصبيُّ بشيء من الطعام يتجزأ به عن اللبن .

(٦) حوزته : ناحيته .

(٧) عليك بتقوى الإله : اى الزَمْها ، والتقوى ـ مخافة الله .

العواقب : جمع عاقبة ـ وهى الجزاء بالخير .

يأمر الشاعر ابنه بتقوى الله ومخافته ، وذلك باتباع اوامره واجتناب نواهيه ، مؤكدا له ان الجزاء بالخير والحسنى إنما يكون للمتقين وحدهم .

(٨) وجهها : بابها . مستغلق : عسير الفتح .

يقول الشاعر : إن ابواب التقوى مفتوحة لمن يشاء ، وليس منها ما يعْسُر الدخول منه ، ومَنْ اراد ان يَلْزم التقوى فليطْرق إليها اى باب وسيجدُهُ مفتوحاً وسهلا مُيسراً .

(٩) ابقى عليك : اشدّ حفظاً لك ، وإبقاء على مودتك .

الأخرق : الأحمق قليل العقل .

يقول الشاعر : إن عدوك ذا العقل اشد إبقاء على صداقتك ومودتك من صديقك الأحمق قليل العقل ، ومثل ذلك قولهم : « عدوّ عاقل ، خير من صديق جاهل » .

(١٠) ياتى : يفعل . جميل الامور : طيّبها وحسنها .

وذى : اى وهذه . خَلَّة : (بفتح الخاء) ـ خصلة .

الأرشد : المهتدى الذى يُحسن التقدير فيما يُقدِّر .

الأوفق : من (التوفيق) ـ وهو جعل الأسباب موافقة للمطلوب ، او تسهيل طريق الخير وسد طريق الشر .

يقول الشاعر : إن العاقل لا يفعل إلا جميل الفعال ، وتلك خصلة المهتدى الذى يلازمه التوفيق والسداد .

فأما الذى قال فى أصدقائه وجلسائه الخير ، وأثنى عليهم الجميل ، ووصف جَدَّهُ[1] بهم ، ودلَّ على محبته لهم ، فغريب .

أنتم سرورى وأنتم مَشْتَكَى حَزَنى وأنتمُ - فى سواد الليل - سُمَّارى[2]
أنتم - وإن بَعُدت عنا منازلكم - نوازلٌ بين إسرارى وتذكارى[3]
فإن تكلمت لم ألفظ بغيركمُ وإن سكتُّ فأنتم عقد إضمارى[4] .
الله جاركُمُ مما أحاذرهُ فيكم، وحبى لكم من هجركم جارى[5]

---

(١) الجَدُّ : الحظ والنصيب . وزاد بعضهم فقال : الحظ من الفضل والخير .

(٢) سُمَّارى : الذين يسمُرون معى ، ويتحدثون إلىّ ليلا . والمفرد - سامر .

يصف الشاعر أصدقاءه بانهم مبعث سروره ، وبانهم الذين يفرِّج بهم الغَمَّ عن نفسه بالشكوى إليهم مما يلقى من احزان ومواجع ، وبانهم الذين يسمرون معه ويتحدثون إليه ليلا حين ينصرف النأس إلى مضاجعهم ويخلو هو إلى همومه .

وقد قيل فى مثل ذلك :

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يُواسِيكَ ، او يُسْليك ، او يَتَوجَّعُ

(٣) إسرارى : اسَرَّ السِّر - كَتَمَهُ .

تَذْكارى : التذكار - الذِكر ، وهو ان تذكر الشىء بلسانك ، وتقول فيه شيئاً .

يقول الشاعر : إنكم وإن نأت دياركم وبعُدت منازلكم ، حَالون فى قلبى ، مذْكُورُونَ من لسانى ، وفى ذلك قال أحد الشعراء :

فإن القُرْب بالروحِ وليس القربُ الجسمِ

وقال شاعر آخر :

خيالك فى عينى ، وذكرك فى فمى ومَثْواك فى قلبى ، فأين تغيبُ ؟

(٤) لم ألفظ : لم انطق لفظاً واحداً . عقد : عَقَدَ العهدَ - احكمَهُ .

إضمارى : اضمر الشىء - اخفاه فى ضميره ولم يُصرِّح به .

والمعنى : إنكم انتم الذين لا ينطق لسانى إلا بذكركم إذا نطقت ، ولا ينطوى ضميرى على غيركم إذا سكتّ .

(٥) الله جاركم : مُجيركم .

احاذِرُهُ : اخشاه ، واخافُ حدوثه .

يقول الشاعر : الله مجيركم وحاميكم مما اخشاه من بِعاد وهَجْر ، وحبى لكم هو مُجيرى ، والشافع لى من أن تهجرونى .

وقال آخر :

أخ لُمْتُهُ ، أوْلا منى ، ثم نزْعوى   إلى تائب من حلمنا غير مُخْدَج[١]
أهُـونُ إذا عـزَّ الجليـل وربمـا   أزَمْتُ بـرأس الحيـة المُتَمعـج[٢]

أخبرنا أبو سعد السيرافى قال : أخبرنا ابن دريد قال ، قال أبو حاتم السجستانى : إذا مات لى صديق سقط منى عضو .

كتب علىّ بن عبيدة الريحانى البصرى إلى صديق له : كان خوفى من أن لا ألقاك متمكناً ، ورجائى خاطراً[٣]، فإذا تمكن الخوف طَنِيت[٤] ، وإذا خطر الرجاء حَيِيت .

---

(١) نَزْعَوى : نكُفُ ونرجع . مُخْدَجٌ : ناقصٌ .
يقول الشاعر . إن لى أخاً أنْحِى عليه باللائمة . ويفعل بى هو مثل ذلك ؛ لأعمال تصدر من احدنا تستوجب هذا اللوم . ثم نكف عنها ونرجع ونثوب إلى حلمنا ونتوب توبة كاملة لا خَلَلَ فيها ولا نقص .

(٢) اهُونُ . الينُ واسْهَلُ .
الجليل : الثُمام ، وهو نبت ضعيف يُضْرَبُ به المثل لما هو هيِّن المُتناوَل
ازمْتُ : ازَمَ بصاحبه وبالمكان ـ لَزِمَهُ .
المتمعِّج : المُتلوىُ المُتثنِّى .
يقول الشاعر : إنه سهْلُ ليّن مع إخوانه ، فلا يُصَعِّر لهم خَدّه ، ولا يقف منهم مواقف العناد والمكابرة ، بل إنه ليسْهُلُ ويتضاءل ، على حين يشتدّ ويقوى ويعَزُّ الثمام ، وهو ذلك النبْتُ الذى يُضْرَبُ به المثل فى الضعف والضالة .
ويزيد الشاعر فى وصف سهولته ولينه . فيقرِّر انه ربما لازم شيئاً ضئيلا كراس الحية ، واقام إلى جانبه ، وهو احقر واضألُ واقل شىء .
(٣) الخاطر : ما يخطر بالقلب من تدبير اوامر ، والهاجس .
(٤) طَنِيتُ : مرضْتُ .

وقال جعفر بن محمد رضى الله عنهما : صُحبة عشرين يوماً قرابة .

وقال رجل لضيغم العابد : أشتهى أن أشترى داراً فى جوارك حتى ألقاك كل وقت . قال ضيغم : المودة التى يفسدها تراخى[1] اللقاء مَدْخولة[2] .

وكتب آخر إلى صديق له : مثلى هفا ، ومثلك عفا . فأجابه : مثلك اعتذر ، ومثلى اغتفر .

وقال أعرابى : الغريب ، من لم يكن له حبيب .

وقيل لأعرابى : مَنْ أكرم الناس عشرة ؟ قال : مَنْ إن قُربَ مَنحَ ، وإن بَعُدَ مَدَح ، وإن ظُلم صفح ، وإن ضُويق سمح ، فمن ظفِر به فقد أفلح ونجح .

وقال الفضل بن يحيى : الصبر على أخ تعتب عليه ، خير من آخر تستأنف[3] مودته .

وقال عبدالله بن مسعود : ما الدُّخانُ على النار بأدلَّ من الصاحب على الصاحب .

كتب رجل إلى صديق له : أما بعد ، فإن كان إخوان الثقة كثيراً فأنت أولهم ، وإن كانوا قليلا فأنت أوثقهم[4] ، وإن كانوا واحداً فأنت هو .

وقال سيف الدولة بن حمدان :

تركتُ لك القُصْوى لتُدرك فضلها ... وقلتُ: تُرى بينى وبين أخى فَرْقُ؟[5]

ولم يك بى عنها نُكولٌ ، وإنما ... تَوَنَّيْتُ عن حقى فتَّم لك الحقُّ[6]

---

(١) تراخِى اللقاءِ : تباعده .

(٢) مدخولة : مَعيبة .

(٣) تستانف مودته : تأخُذُ فيها وتبتدىء .

(٤) أوثقهم : اعظم من يُؤْتَمَنُ ويُوثَق به منهم .

(٥) القصوى : المنزلة البعيدة الرفيعة .

تُرى : أى يا تُرى ، ويافَلْ تُرى . ومعناها يارجل ، هل ترى ؟

يقول الشاعر لصاحبه : إنى قد تركت لك المنزلة السامية : لتسْتاثر بها دونى ؛ إذْ لا فرق عندى بين أن تنالها أنت ، أو أن انالها انا .

(٦) نُكُولٌ : نُكُوصٌ ، وإحجامٌ ، وجُبْنٌ .

تَوَنَّيْتُ عن حقى : فَتَرْتُ ، ولم اجِدّ فى طلبه .

تم لك الحق : وافاك تاماً قد تكمّلتْ اجزاؤه .

يتحدث الشاعر عن قدرته على بلوغ تلك المنزلة القصوى ، وانه لم يكن به ضعف عن بلوغها ، أو عجْز عن الوصول إليها ، ولكنه تراخى ـ عامداً ـ عن طلبها ، وتوانى ـ عن قصد ـ فى السعى لنوالها : لينالها صاحبه دونه ، ويظهر بها كاملة تامة

مثالب الوزيرين

ويعرف أيضا بأخلاق الوزيرين ، كتبه بعد أن ارتحل إلى بلاط الصاحب ابن عباد ، وخابت آماله فيه ، وخاب أمله أيضا فى ابن العميد الأب وابنه أيضا المعروف بأبى الفتح ، ويعد الكتاب من أعنف نصوص الهجاء التى كتبت بالعربية ، اعتمدنا على الطبعة الصادرة عن المجمع العلمي العربى بدمشق ، بتحقيق العلامة محمد بن تاويت الطنجي، وقد أعادت اصدارها بالتصوير دار صادر للنشر - بيروت .

أركان الحياة

ولقد رأيتُ الجَرْجَرائيّ[1] ـ وكان فى عِداد الوزَراءِ وجِلَّة الرؤساء ، وإنَّما قَتَله ابن بَقِية [2] لأنه نَغِم له بالوزارة ـ يقول للحاتميّ أبى عَليٍّ[3] ، وهو منْ أدْهِياءِ النّاس :

إنما تُحرَمُ لأنك تَشْتُمُ .

فقال الحاتميُّ إنما أشتم لأنى أُحْرَم .

فأعادَ الجَرْجَرائى قولَه .

فأعادَ الحاتميّ جوابَه .

فقال ثم ماذا ؟

فقال الحاتميّ : دَع الدَّسْتَ[4] قائمةً ، وإن شئت عمِلناها على الواضِحة .

قال : قُل !

قال الحاتميّ : يقطع هذا أن لا يَسْمعوا مَدائحَهم ، ولا يَكترثوا بمراتِبهم ؛ وأن يَعْترفوا لنا بمزية الأَدب وفضْل العلم وشرَف الحِكمة ، كما خَذِينا لهم بعظَمة الولاية ، وفضْل العَمل ، وبَسْط اليد ، وعرض الجاه ، والاستبداد بالتنَعُّم والطّاق

---

(١) الجرجرائى : محمد بن أحمد البغدادى الكاتب ، مات سنة ٣٦٣ هـ ، وترجمته وأحداثه مع الوزير ابن بقية ـ فى تجارب الأمم ٢/٣١٠ ـ ٣٢٣ ، وفى المقابسات لأبى حيان ٨١ حديث لأبى سليمان المنطقى مع الجرجرائى حول « الوزارة » ، ثم حديث عنه بعد مقتله من أجلها . وانظر الامتاع ٣/٣١٧ .

(٢) ابن بقية : أبو طاهر محمد بن محمد بن عليّ الملقب نصير الدولة . وزر لعز الدولة بختيار فى سنة ٣٦٢ هـ ، وبقى فى الوزارة أربع سنين : وكان قبل الوزارة يتولى أمر المطبخ لمعز الدولة ، فلما ولى الوزارة قال الناس : « من الغضارة إلى الوزارة » يشيرون إلى وضاعة أصله ، ولكن كرمه غطىّ على عيبه . وفى سنة ٣٦٧ قتله عضد الدولة وصلبه ،وبقى مصلوبا إلى أيام صمصام الدولة حيث أنزل ودفن . ترجمته فى عيون التواريخ لابن شاكر سنة ٣٦٢ ، ٣٦٧ (جـ ١١ ورقة ١٤٦ ب ـ ٧٥ ب نسخة بشير آغا) ، تاريخ أبى الفداء ٢/١١٩ ، ١٣٢٥ وانظر بعض أخباره فى الامتاع ١/٤٢/٤٣ ، وفى يتيمة الدهر ٢/٣٤٤ (طبع مصر) قصيدة لابن الأنبارى فى رثائه تعتبر من عيون الشعر العربى .

(٣) أبو على الحاتمى : محمد بن الحسن بن المظفر البغدادى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ . لغوى كاتب ناقد شهير ، وله مؤلفات . وقد وصَفه ابو حيان (الامتاع ٣/١٢٦ ـ ١٢٧) بثقل الروح والغرور والخيلاء . ترجمته فى تاريخ الاسلام للذهبى ١٢/١٩٨ أ (نسخة أيا صوفيا) رقم (٣٠٠٨) ، عيون التواريخ سنة ٣٨٨ .

(٤) الدست ، يُستعمل ويراد به الديوان ، ومكان الوزارة ، كما يستعمل بمعنى الرياسة والوزارة نفسها استعارة من المعنى السابق . انظر تاج العروس (دست) شفاء الغليل للخفاجى ٩٧ . والمعنى : إما أن تدع هذه المسألة تسير على هذا النحو ، وإما ان نتكلم فى إيضاحها بصورة صريحة واضحة .

والرِّواق ، والأمر والنهْى ، والحجاب والبوّاب ؛ وأن يَكتبوا على أبواب دُورهم وقُصورهم :

يابَنى الرَّجاء ! ابعدوا عنّا ، ويا أصحابَ الأَمَل ! اقْطعوا أَطْماعَكم عن خَيْرِنا ومَيْرِنا[٤] وأَحْمِرَنا وأصفَرنا ، ووفِّروا علينا أموالَنا .

قال أبو العَتاهية : فإن العَبد يقُول : لو وفَّقْتنى لأطعتُك ، أيكونُ ما يحتاج العبد إليه نَسيئَةً ، وما يُطالِبه الله به نَقْدا ؟

قال المأمون : فما يَقْطَع هذا ؟

قال : يا أميرَ المؤمنين ، اضرِب عنْه ، فإنَّ الدَّسْتَ قائمةٌ[١] .

وأرجعُ فأقول :

وماخَلا النَّاسُ منْذُ قامت الدُّنيا مِن تَقْصيرٍ واجْتهاد ، وبلُوغِ الغاية ، وقُصُورٍ عن النِّهاية ، وتَشارُكٍ فى المحامد والْمَذامِّ ، والمَساوِى والمحاسِن ، والمَناقِب والمثَالب ، والفَضائل والرَّذائل ، والمَكارِم والمَلائم ، والمنافع والمضارّ ، والمَكارِه والمسارّ ؛ ومِنْ بَعضِ ما يَكون للقائل فيه مَنْدُوحَة ، ولِلشَّاغِب به استِراحة ، وللنّاظر فيه مُتَّسَع ، وللسَّامع فيه مُسْتَمْتَع ؛ وأَحسَنُهم حالاً ، وأَسعَدُهم جَدّاً ، وأَبلَغُهم يُمْنًا ، وأَربَحُهم بِضاعَة ، مَن كانَت مَحاسِنُه غامرةً لمساوِيه ، ومناقبُه ظاهرةً على مَثالبه ، ومَادِحُه أكثَرُ مِن هَاجِيه ، وعاذِرُه أَنطَقُ مِن عاذِله ، والمحتَجُّ عنْه أَنبَهُ من المحتجِّ علَيْه ، والنَّافِحُ عَنه أصدَقُ مِن النافح فيه[٢] ؛ ولَيْسَ العَمَل على عَدَد هذه وهذه ، ولكِن علَى أن لا يَكون معَ صاحِب المحاسِن من الخِصال اللَّئيمة ما يَحْبِطُها ويَجتاحها ، ويَخْتَلعها ، ويأْتى علَيها وإن صغُر جِرم تلك الخَلَّة ، وخَمل اسم تلك الخِصْلة : وأَن يكون مع صاحب المساوى من الخِلال الكريمة ما يُغَطّيها ، ويُسْبِل السَّتْر عليها ، ويُعِينُ الذَّائد عَنها ، ويُبيِّضُ وَجْهَ النَّاصِر لها ، وَيُمدُّ باعَ المتطاول إليها ؛ وكما وَجَدْنا السَّيِّئاتِ يَحْبِطن الحَسَناتِ ، كذلك قد وَجَدْنا الحسَناتِ يُذْهِبْن السَّيِّئات .

---

(١) الدست قائمة : المشكلة مستمرة ، والقول فيها تتصل أواخره بأوائله .

(٢) النفح : الضرب والرمى ، وأشدّ العذاب : يعنى أن يكون المدافع عنه أصدق من الطاعن فيه .

والعمُود الذى عَليه المعوَّل ، والغايةُ التى إليها المَوْئِل ، فى خِصال ثَلاثٍ هُنَّ دَعائمُ العالم ، وأركانُ الحَياة ، وأُمَّهاتُ الفضائل ، وأصولُ مصالح الخلق فى المعاش والمعادِ ؛ وهُنَّ : الدِّينُ ، والخُلُق ، والعِلْم ، بهِنَّ يعْتَدِل الحال ، ويُنتَهى إلى الكمال ، وَبِهِنَّ تُمْلك الأَزِمَّة ، ويُنالُ أعَزُّ ما تَسمو إليه الهِمَّة ؛ وبهِنَّ تُؤمَن الغَوائل ، وتُحمَد العَواقب ؛ لأَنَّ الدِّينَ جِماعُ المَراشد والمصالح ، والخُلُقَ نظامُ الخيراتِ والمنافع ، والعِلْمَ رباطُ الجَميع ؛ ولأَنَّ الدِّين بالعَلْم يصِحّ ، والخُلقَ بالعِلْم يَطْهُر ، والعِلْمَ بالعَمَل يَكْمُل ؛ فَمَن سَلِم دينُه من الشَّك واللِّحاء ، وسُوءِ الظَّنّ والمِراء ، وثَبَت عَلَى قاعدة التَّصديق بموادِّ اليقَين الذى أَقَرَّ به البُرهان ، وَطَهَّر خُلقَهُ من دَنَس المَلال ، ولَجاج الطَّمَع ، وهُجْنة البُخْل ، وكان له من البِشر نَصيبٌ ، ومن الطَّلاقة حِظ ، ومن المُساهلة موضع ؛ وحَظِى بالعلم الذى هو حياة الميِّت ، وحَلْى الحىِّ ، وكمال الإنسان فقد بَرَّز بكل فضْل ، وبان بكل شَرَف ، وخلاَ عن كلّ غباوة ، وبَرِىء من كلّ مَعابَة ، وبلَغ النَّجْد الأَشرَف ، وصار إلى الغاية القُصْوى .

ولم أذكُر لك العقلَ فى هذا التَّفصيل ، وهو أُولهُنّ ، وبه يَتم آخرهنّ ، وعليه مَجْرَى جميع ما افْتَنَّ القول به ؛ لأنه مَوهِبة الله العُظمَى ، ومِنحته الكُبْرَى ، وباب السعادة فى الآخرة والأُولَى ، وكان ما عَداه فرْعاً عليه ، ومضموماً إليه ؛ لأَنه متَى عَدِمه الإنسانُ الحىُّ الناطق فقد سقَط عنه التكليف ، وبَطَل عليه الاختيار ، وصار كبَعض البَهائم العامِلة ، وكبَعض الشُّخُوص الماثلة ؛ وبه يُعرَف الدِّين ، ويقوَّم الخلُق ، ويُقتَبس العلم ، ويُلتَمس العَمَل الذى هو الزُّبدة ؛ وقد يعدم العمَلُ والعقل موجود ، وقد يُفقَد الخلُق والدِّين ثابت ؛ فليس الأَصل كالفَرع ، ولا الأول كالثانى ، ولا العلّة كمَجْلوب العِلَة ، ولا ما هو قائم[1] كالجوهَر ، كما هو داثر كالعَرَض ؛ فلهذا أَضربتُ عن ذِكره ، وغَنِيت عن الاستظهار به ؛ وإذا تَّمت فائدة الكلام فما زادَ عليه لَغو ، وإذا استقرّ فيه المعنَى فما أَلَمَّ به فساد .

فقــــر

وصاحِب الفَقر إن مَدح فَرّط ، وإن ذَمّ أَسقَط ، وإن عَمِل صالحاً أَحبَط ، وإن ركبَ شيئًا خلط وخبَّط ؛ ولم أَرَ شيئًا أَكشفَ لغطاءِ الأَديب ، ولا أَنشَف لماءِ وجْهه ،

ولاَ أذعر[١] لسرب حياته منه ، وإن الحُرّ الآنِف ، والكَريم المتعيّف[٢] من مُقاساته والتجلّد عليه ، لَفى شغل شاغل وموتٍ مائت .

ولابدّ لمن ظُلِم من أن يتظَلَّم ، وكيف يكون المظلومُ إذا انتَصر ظالما[٣] ، واللهُ يقول : « وَلِمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ »[٤] ، ولو كان المظلومُ إذا تظلم ظالماً ، لكان الظالمُ إذا ظَلَمَ مَعذُورا ؛ وكما هجَّن الله لَوْمَ المحسِن ، فكذلِك حَسَّن توبيخَ المُسِيء ، وكما أثابَ عَلَى تَزكِية مَن كان طَاهرا ، كذلك آجَرَ عَلَى جَرْحِ مَن كان مَدخولا ؛ ألا تَرَى أن التقرُّب إلى الله بِعدَاوَة أبى جَهْل[٥] ، وذَمِّه ولعْنِه وذِكر لُؤْمِه وخَساسته ، كالتقرب إلى الله بولاية أبى بكر[٦] ومَدْحِهِ والترحُّم علَيه وذكر فضْله وبَلائه ونُصْرته ؛ وهذا مُسْتَمِر فى غَير أبى جَهْلٍ مِّمن عادَى اللهَ ورسولَه صلى الله عليه وسلم ، كما أنه مُسْتَمِر فى غير أبى بكر مِّمن أطاعَ اللهَ ورسولَه ؛ وإنما الأُمورُ بعَواقبها ، والمذابِبُ بشواهِدها ، والنتائج بمقدّماتها ، كما أَن الفُرُوعَ بأُصُولها ، والأَواخرَ بأَوائِلها ، والسُّقوفَ بأَسَاسِها .

حقيقة

ولسْتُ أُدَّعِى عَلَى ابن عَبَّاد ما لا شاهدَ لى فيه ، ولا ناصرَ لى عليه ، ولا أُذكر ابن العَميد بما لا بَيِّنَة لى معَه ، ولا برهانَ لدَعوايَ عنده ، وكما أَتوَخَّى الحقَّ عن غيرِهما إن اعترضَ حديثُه فى فَضْلٍ أَو نَقْص ، كذلك أُعاملُهما به فيما عُرِفَا بين أَهلِ العَصْر باستِعماله ، وشُهِرا فيهم بالتَحلِّى به ، لأَن غَايتىِ أَن أَقولَ ما أَحطتُ به خُبرا ، وحَفِظته سَماعًا .

---

(١) اذعر : اسم تفضيل من ذعَر بمعنى نفر .

(٢) كذا بالاصل ، والمتعيف : الكاره ، وأخشى ان تكون : « المتغيف » ، من تغيّف عن الأمر : بمعنى نكل عنه .

(٣) فى الكشاف ٧١/٣ : « وقالوا : العفو مندوب إليه ، ثم الأمر قد ينعكس فى بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه ، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغى وقطع مادة الأذى . وعن النبى صلى الله عليه وسلم ما يدل عليه ، وهو ان زينب أسمعت عائشة بحضرته ، وكان ينهاها فلا تنتهى ، فقال لعائشة : دونك فانتصرى » .

(٤) الآية ٤١ من سورة الشورى ، وفى الكشاف ٣٩٣/١ ـ ٣٩٤ : « ... وقيل : ضاف رجل قوماً فلم يطعموه فاصبح شاكياً ، فعوتب على الشكاية فنزلت الآية : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » ، وقيل : هو ان يبدأ بالشتيمة فيردّ على الشاتم » .

(٥) هو عمرو بن هشام المخزومى ، كان يكنى فى الجاهلية ابا الحكم فكناه النبى صلى الله عليه وسلم ابا جهل فلزمته . وتاتى ترجمته بعد .

(٦) ابو بكر بن ابى قحافة : عبدالله بن عثمان بن عامر التيمى الخليفة الأول المتوفى سنة ١٣ هـ عن ٦٣ سنة . المعارف ٨٣ ـ ٨٦ .

وسهلٌ على أن أقول : لم يكن فى الأولين وَالآخرين مثلُهما، ولا يكونُ إلى يوم القيامة من يَعْشِرهما اصطناعاً للنّاس ، وحِلْماً عن الجُهّال ، وقياماً بالثواب والعِقاب ، وبَذْلاً لقنْيَة المال ، ولِكُلّ ذُخْرٍ من الجواهر وَالعقد ؛ وأنّهما بلَغا فى المجد الذّرْوَة الشمَّاء ، وأحرَزا فى كل فَضلٍ وعلم قَصَب السَّبَقِ ، وأن أهل الأرض دَانُوا لَهما ، وأن النقصَ لم يَشِنْهما بوجهٍ من الوجوه ، وأن العَجْز لم يَعْتَرهما فى حال من بسَبَب ثوبٍ لعلّه أخذَه ، أو دِرهمٍ ثَنَى عليه كفَّه ، أو حاجةٍ خَسِيسةٍ قُضِيت له ؛ تبلُغُ به قِلّة الدِّين وسُوء النظَرَ فيما يُتعقّب بالتّقبيح والتّحسين أنه يَمْدح واحداً مقْروفاً بالزّندقة والكُفر ، ويُقَرّظ آخر مَعروفاً بالإلحادِ والسُّخْف ، ويَصِف بالجُود مَن كان أبخلَ من كْلب عَلَى عقى صَبِىّ ويَدَّعى العقلَ لِمن كان أحمقَ من دُغَة[1] ؛ ومَن أظلَم مِمَّن يَصِف السفيهَ بالحصَافة ، واللئيمَ بالكَرَم ، والمتَعَجْرِفَ بالأناة ، والعاجِزَ بالكِفاية ، والنّاقصَ بالزيادة ، والمتأخّر بالسَّبْق ، والعَنِيفَ بالرِّفق ، والبَخيلَ بالسَّخاء ، والوضيعَ بالعَلاء ، والوَقَاح بالحياء ، والجَبَان بالغَناء ؟

فلا يكون حِينئذ لقولى قابِلٌ ، ولا لحُكْمى ملتَزِم ، ولا لنَصَبى مَرجُوع ، ولا لسَعْيى نُجْح ، ولا لصَوابى مُختَار ، ولا لحُدائى مسْتَمِع ؛ وفى الجملة لا يكون لدعْواى مُصَدّق .

ولعَمرى لو انقلَبتُ عن ابن عبّاد ـ بعدَ قصدِى له من مَدينة السَّلام وإناختى بفِنائه مع شِدّة العُدْم والإنفاض[2] ، والحاجَةِ المُزْعِجة عن الوَطَن ، وصفْر الكَفّ عما يُصان به الوَجه ؛ وبعدَ تردُّدى إلى بَابه فى غمار[3] الغادِين والرّائحين ، والطّامعين الرّاجين ، وصَبْرى عَلَى ما كَلَّفنى نَسْخَه حتى نشِبتُ به تَسعةَ أشهرٍ خِدمةً وتقربا ، وطلباً للجدوَى مِنه ، والجاهِ عنده ، مع الضَّرَع والتملُّق ـ ببعضِ ما فارقتُ مِن أجلِه الأعِزَّة ، وهجَرتُ بسَببه الإخوان ، وطوَيتُ له المَهامِة والبلاد ، وعَلَى جُزءٍ مما كان الطمَعُ يُدنْدِنُ حولَه ، والنفسُ تحلُم به ، والأمَل يطمئن إليْه ، والناسُ يعذرونه ويحققونه[4] ، لكنتُ لاحسانه من الشاكرين ولإسَاءَته من السَّاترين ، وعندَ ذكره بالخير

---

(١) دغة : اسم رجل كان احمق ، ولقب معاوية بنت مغنج (أو معنج) العجلية وكانت تحمق ايضاً ، فكان يقال : « أحمق من دغة » ، وللمثل قصة تجدها فى أمثال الضبى ١٠٢ والمعارف ٣٠٤ والاقتضاب ١٥٠ ، وأخبار الحمقى والمغفلين ٤١ ، ومجمع الأمثال ١٩٣/١ ، ١٤٧ وتاج العروس ١٢٨/١٠ ، واللسان (دغا) .

(٢) الإنفاض : ذهاب المال وفناء الزاد .

(٣) غمار ، بفتح الغين وبالضم : جماعة الناس . يقال : دخلت فى غمار الناس أى فى جمعهم المتكاثف .

(٤) يحققونه : يصدقونه .

من المسَاعِدين المصدِّقين ، وعِندَ قرفِهِ بالسُّوءِ من الذَّابّين الممتَعضِين . والشاعر يقول :

« من يُعطِ أثمانَ المحامد يُحمَد » .

والآخر يقول :

« والحْمدُ لا يُشتَرى إلاَّ بأَثمان » .

سرعة التحول

وكان ابن عبَّاد شديدَ السَّفه عجيبَ المناقضة ، سريعَ التحوُّل من هيئةٍ إلى هيئة ، مُستقبلا للأحرار بكل فرْية وفاحِشة ؛ كان يقول للإنسان الذى قد قدِم عليه من أهل العلم : تَقدَّم يا أخى ! وتكلَّم ، واستأنِس ، واقتَرِح ، وانبَسِط ، ولا تُرَع ، واحسبنى فى جَوف مرقَّعة ، ولا يَهولك هذا الحَشَم والخَدَم ، وهذه الغاشِية والحاشِية ، وهذه المرتَبة والَمِسْطَبة وهذا الطَّاق والرِّواق ، وهذه المجالس والطنافس ؛ فإن سلطان العِلم فوقَ سلطان الوِلاية ، وشرفَ العلم أعلَى من شرف المال ، فليفرَخْ روعُك ولَيْنعَم بالُك ، وقُل ما شئت ، وانصُر ما أَردت ، فلسْتَ تجدُ عندنا إلا الإنصاف والإسعاف والإتحاف والإطراف ، والمقارَبة والمواهَبة ، والموانَسة والمقابَسة ، وعَلى هذا التنزيل ، ومن كان يَحفَظ ما يَهذِى به فى هذا وغيره ؟

حتى إذا استقَى ما عندَ ذلك الإنسان بهذِه الزَّخارِف والحِيلَ ، وسَالَ الرجُلُ معَهُ فى حَدُوره عَلَى مذهبِ الثّقَة ، وَرَكب فى مناظَرته ، وردعه وحاجَّه ، وَراجَهَ وَضاجَعه وَشاكعهَ[1] ووضع يَدَه عَلَى النكْتة الفاصِلة ، والأَمر القاطِع تَنمرً له ، وتنغّر[2] عليه ، واستحصد غضباً وتلظَّى لهبا ، وقال بعد وثبتين أَو ثلاث : يا غلام ! خذ بيد هذا الكلب إلى الحَبْس ، وَضعه فيه بعد أَن تصبّ عَلَى كاهله وظهره وجَنبَيْه خمسمئة عصًا ؛ فإنه مُعانِد ضِدّ ، يحتاج إلى أَن يُشَدّ بالقِدّ[3] ، ساقط هابط ،كلبٌ نباح ، متعجرف وَقَاح ؛أَعجبه صَبرى ، وغَرَّه حِلمى ، ولقد أَخلَف ظنى ، وعدت عَلى

---

(١) شاكعه : غاضبه . وفى الأصل : « ساكعه » . ضلّله .

(٢) تنغر عليه : غلا عليه من الغضب .

(٣) القِدّ : السير الذى يقدّ من الجلد .

نفسى من أجله بالتّوبيخ ، وما خَلَق الله العصَا باطلا ، ولا ترَك خَلْقَة هامِلا .

فيُقام ذلك البائس على هذه الحال التى تَسْمَع ، عَلَى أَن مَسْموعَك دون مُشاهَدتك لو شاهَدت ، ومن لم يَحضُر ذلِك المجلس لم يَرَ منظراً رفيعاً ورجُلا رقيعاً ، قد عامَل بما وصفتُ الحريرى غلام ابن طرارة[1] والجامدى[2] الشاهرَ الوارد عليه من البَصرة ، وأبا زيد الكلابى وغيرهم .

وكان أبو الفضل أعنى ابن العميد إذا رآه يقول : أحسَب[3] أنّ عَينيه رُكّبتا من زئبق وعنقَه عُمل بلَوْلَب .

وصدَق ، لأَنّه كانَ طَريف التّثَنّى والتلوّى شديدَ التفكّك والتفتّل كثيرالتعوُّج والتموُّج ، فى شكل المرأة المُومِسَة والفاجرة الماجنَة ، والمخنَّث الأَشمط .

وسمعتُ أبا الفَضل الهَرَوى[4] يقول له يوماً : لو وُضِعَ فى خِزانة الكتب للوقفِ شىء من الطّبّ لكان ذلك باباً من المنافع الحاضِرة والفوائِد المجّلة والخير العامّ .

احتقــار !

وطلع علىّ يوماً فى داره وأنا قاعد فى كِسْر[5] رواق أكتُب له شيئاً قد كادنى به ، فلما أبصرتُه قمتُ قائماً ، فصاحَ بحلق مشقُوق : اقعُد ! فالورّاقون أخسُّ من أن يقوموا لنَا ، فهممت بكلامٍ ، فقال لى الزّعفرانى الشاعر : احتمل فإن الرَّجلَ رَقيع ، فغَلَب على الضّحِك ، واستحالَ الغيظُ تعجُّباً من خِفّته وسخْفِه ، لأنه قالَ هذا وقد لَوى شِدقَه وشَمَخَ أَنفَهُ وأَمالَ عنقَه واعترض فى انتصَابه وانتصَب فى اعتراضِه ، وخرج

---

(١) هو المعافى بن زكريا بن يحيى النهراونى الجريرى المعروف بابن طرارة ـ علامة شهير وله مؤلفات ، ولد سنة ٣٠٥ أو ٣٠٣ وتوفى سنة ٣٩٠ . ترجمته فى الإرشاد ١٦٢/٧ ـ ١٦٤ والفهرست ٣٢٨ ـ ٣٢٩ والبداية ٣٢٨/١١ .

(٢) ابو عبدالله محمد بن حامدالجامدى (نسبة إلى جامدة من أعمال واسط) ذكره الثعالبى فى اليتيمة(الباب ٦ القسم ٢ الورقة ٧٣ أ نسخة احمد الثالث) وهو من شعراء العراق ، وكان من جلاس الصاحب وعنه نقل الثعالبى (١٧٢/٣ ، ١٧٣ مصر) فقراً وصف فيها مجلس الصاحب وحُضُورَه . وقد ذكره ابن شاكر فى عيون التواريخ وقال لم تَتحقق وفاته ، وكان فى حدود الأربعمائة ، وانظر « جامدة » فى معجم البلدان .

(٣) فى الأصل : « احسبوا » ، تصحيف . والضمير فى « رآه » لابن عباد .

(٤) كان ابو الفضل الهرَوى راصداً بحضور ابى جعفر الخازن فى المرصد الذى بناه أبو الفضل ابن العميد بالرىّ ، وكان رصدُهما سنة ٣٤٨ هـ . ذكره البيرونى فى تحديد نهايات الأماكن ، ١٤٥ . ـ وله تصانيف زادت على ١٥٠ مصنفا . انظر شرح الاحياء ٥/٢ ، واصول الدين للبغداد ٣١٠ ، إشارات المرام ٢٤ .

(٥) الكسر : جانب البيت .

فى مَسْك[1] مجنون قد أفلت من دير حَنُون[2] . والوصْف لا يأتى على كُنه هذه الحال لأن حقائقها لا تدرَك إلا باللحْظ ، ولا يؤتى عليها باللفظ .

أفهذا كلُّه من شمائل الرُّؤساءِ وكلامِ الكُبَراء وسِيرة أهل العقل والرزّانة ؟ لا ، والله ! وتُرْباً[3] لمن يقول غير هذا .

لقــاء

فأما حديثى معه ، فإنى حين وصلت إليه قال لى : أبو مَن ؟

قلتُ : أبو حَيّان .

قال : بلغَنى أنك تتأدّب .

قلتُ : تأدُّبَ أهل الزمان .

قال : فقل لى ، أبو حَيّان ينصرف أولا ؟

قلتُ : إن قِبله مولانا لا ينصرِف . فلما سمِع هذا تنمّر وكأنّه لم يُعجبه ، وأقبَل عَلَى واحدٍ إلى جانِبه فقال له بالفارِسية سَفهاً ، على ما فُسِّر لى .

ثم قال لى : الزَم دارَنا ، وانسَخ لنا هذا الكتاب .

فقلت : أنا سامِعٌ مُطيع .

ثم قلتُ فى الدّار لبعض الناس مُسترسِلاً : إنما توجَّهت من العِراق إلى هذا الباب ، وزاحَمتُ منتجِعِى هذاالرَّبْع ، لأتخلَّص من خَرَزَة الشُّؤْم ؛ فإن الوِراقَة لم تكن ببغدادَ كاسدة .

فنُمِى إليه هذا أو بعضُه ، أو عَلَى غَير وجهه ، فزادَه تنكّراً ؛ وكان الرجلُ خفيفَ الدّماغ ، لا يَعرِف الحِلم إلا بالاسم ؛ والسُّؤْددُ لا يكون ولا يكْمل ولا يَتِمّ إلا بعد أن يُنسَى جميع ما يُسمع ، ويتأوّلَ ما يُكره ، ويؤخَذ بالأَسَدّ فالأَسَدّ .

وقال أبو سعيد السّيرافى : الحِلم مشارك لمعنَى الحُلُم ؛ فصاحب الحلم هو الذى يعرض عَما يَرى ويَسمع كالحالِم ، واللفظُ إذا واخَى اللفظَ كان معناه قريباً من معناه ، وهذا الخَلْق والخُلُق ، والعَدْل والعِدْل ، وسست الرجل ، وسست المرأة .

---

(١) المسك ، بالفتح : الجلد .
(٢) لم اجد له ذكراً فى المظان .
(٣) كلمة تقال فى الدعاء ، اى لا أصاب من يقول هذا خيرا .

وقال لى يوماً آخر ، أعنى ابنَ عبّاد ؛ يا أبا حيّان ! من كنّاك أبا حيّان ؟
قلتُ : أجَلُّ النّاس فى زمانِه ، وأكبرهم فى وقته .

قال : مَن هو ويلك ؟

قلت : أنت .

قال : ومتى كان ذلك ؟

قلتُ : حين قلتَ لى : يا أبا حيّان .

فأضربَ عنَ هذا الحديث وأخَذ فى غَيره عَلَى كَراهةٍ ظهَرت عليه .

وقال لى يوماً آخَر ، وهو قائم فى صحْن دارِه ، والجماعةُ قيامٌ ؛ منهم الزَّعْفرانى ، وكان شيخاً كثيرَ الفَضل ، جَيد الشعر ، مُمتِع الحديث ؛ والنَّميمى المعروف بسَطل وكان من مِصر ؛ والأَقطع ، وصالح الوّراق ، وابن ثابت ، وغيرُهم من الكتّاب والنُّدماء : يا أَبا حيّان ! هل تعرِف فيمن تقَدَّم مَن يُكنَى بهذه الكُنية ؟

قلت : نعم ، مِن أقرب ذلك أَبو حِيّان الدّارِمى .

حدثنا أَبو بكر القاضى محمد بن محمد الدقاق ، قال : حدثنا ابن الأَنبارىّ ، قال : حدثنا ابن ناصِح ، قال : دخل أبو الهُذَيل العَلّاف[1] عَلَى الواثق[2] ، فقال له الواثق : لمن تعرِف هذا الشعر :

سَباكَ من هاشمٍ سليلُ ... ليسَ إلى وصْله سبيلُ
من يتَعاطى الصِّفاتِ فيه ... فالقولُ فى وصفه فُضول
للحُسْن فى وجهه هِلالٌ ... لأَعْيُنِ الخلق ما يَزُولُ
وطُرَّة لا يزالُ فيها ... لنُور بَدْر الدُّجى مَقيلُ
ما اختالَ فى صحْن قَصْر أوسٍ ... إلا تسَجَّى له قَتيلُ
فإن يَقِفْ فالعيون نُصْبٌ ... وإن تولَّى فهُنَّ حولُ

---

(١) محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول العبدى البصرى المتكلِم المعتزلى المتوفى سنة ٢٢٦ أو ٢٢٧ هـ . تاريخ بغداد ٣٦٦/٣ ، الوفيات ٦٠٧/١ ـ ٦٠٨ .

(٢) أبو جعفر هارون بن المعتصم المتوفى سنة ٢٣٢ هـ . العقد الفريد ١٢١/٥ ـ ١٢٢ ، تاريخ الخلفاء للسيوطى ١٣٥ ، حياة الحيوان ٧٢/١ ـ ٧٣ .

فقال أبو الهُذَيل : يا أميرَ المؤمنين ! هذا لرجلٍ من أهل البَصرة يُعرف بأبى حيّان الدّرامى ، وكان يقول بإمامة المَفضُول[1] . وله من كلمةٍ يقول فيها :

أفضله والله قدَّمه عَلَى صَحابته بعدالنّبى المكرَّمِ
بلا بِغْضَةٍ -واللهِ- منى لغيره ولكنّه أولاهم بالتقدُّمِ

وجماعةٌ من أصحابنا قالوا : أنشدَنا أبو قِلابَةَ عبدُالمِلِك بن محمد الرقاشى[2] لأبى حيّان البصْرىّ :

يا صاحبَى دعَا الملامةَ واقصُرا تَركُ الهَوى يا صاحبىَّ خساره
كم لمتُ قَلبى كى يُفيقَ فقال لى : لَجَّتْ يمينُ ما لَها كفَاره
أنا لا أفيقَ ولا أفتّر لحظةً إن أنت لم تعشق فأنت حجاره
الحبّ أوَّل ما يكون بنظرةٍ وكذاالحريق بداؤه بِشَرارَه
يا من أحبّ ولا أسّمى باسمها إياكِ أعنى واسمعى يا جارَه[3]

فلما رويتُ الإسناد ، وأنشدت الشعر ، وريقى بَليل ، ولسانى طلق ، ووجهى متهلّل ، وقد تكلّفت ذلك وأنا فى بَقِيَّة من غَرر الشباب وبعض ريعانه ، فملأتُ الدار صِياحاً بالرّاوية والقافية ، فحين انتهيت أنكرتُ طرفَه ، وعلمت سوءَ موقع ما روَيت عنده .

قال : ومن تعرف أيضاً ؟

قلت : روى الصُولى - فيما حدثنا عنه المرزُبانى : أن معاوية[4] لما حُضِر أنشد يَزيد عند رأسِه متمثلاً :

لو أن حيّاً نَجا لفَاتَ أَبو حَيان لا عاجزٌ ولا وكلُ
الحُوَّلُ القُلَّب الأَريب وهل تَدفع صَرفَ المنية الحِيَلُ

---

(١) يعنى أنه يجيز خلافة أبى بكر ، مع اعتقاده أن على بن أبى طالب أفضل من أبى بكر .
(٢) توفى سنة ٢٧٦ هـ . وترجمته فى تاريخ بغداد ١٠/٤٢٥ - ٤٢٧ .
(٣) نسب الصفدى فى الوافى (أحمد الثالث ٢٩٦٠ جـ ٢٢ الورقة ١٤ ب ١٥ أ) هذه الأبيات لأبى حيان التوحيدى . وهو خطأ ضلّل بعض المحدثين .

(١) توفى سنة ٦٠ هـ عن ٨٠ أو ٨٦ سنة ، ومدة خلافته ١٩ سنة . انظر الوافى ٢٣/٧١ أ - ٧٤ ب (شهيد على ١٩٧١) ، والحوليات (سنة ٦٠) .

قال الصولى : هذا من المعمرين المعقلين .

وانتهى الحديث من غير بشَاشة منه عليه ، ولا هزةٍ ولا أريحية ، بل على اكفهرار الوجه ، ونبُوّ الطَّرْف ، وقلّة التقبُّل . وجرت أشياء أخَر ، وكان عُقباها أنّنى فارقتُ بابَه سنةَ سبعين وثلاثمائة راجعاً إلى مدينة السلام ، بغير زادٍ ولا راحلة ،ولم يعطنى فى مُدَّة ثلاثِ سنين درهماً واحِداً ، ولا ما قيمتُه درهمٌ واحد . فاحمِل هٰذا عَلَى ما أردت .

ولما نالنى منه هذا الحِرمان الذى قصَدنى به ، وأحفَظَنى عليه ، وجعَلنى من بين جميع غاشِية وِرْدِه فرداً ، أخذتُ أتلافَى ذلك بصِدق القول عنه ، فى سُوء الثّناء عليه ، والبادى أظلَم ، ولِلأمور أسبابٌ ، وللأسباب أسْرار ، والغَيب لا يُطّلَع عليه ، ولا قارعَ لِبابِه .

وسألت العمارى عنه فقال : الرجل ذو خَلة[1] ، ولقد سألَه ليلةً شيخٌ من خُراسان فى الموسِم عن قوله عزّ وجَل : « وَلَقَد اصْطَفَيْنَاهُ فى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ »[2] ما مَرتبةُ الصَّلاح المذكور فى الثانى مِن النُّبوة الثابتة فى الدُّنيا ؛ فأَضْرَب عن المسألة ودافَع بصَدْرِها ، ولم يُجْرِ كلمةً فيها .

خصال العماد

فقال : بأنه لله عدوّ ، وللأحرار مُهِين ، ولأهل الفَضل حاسِد ، وللعامّة مُحِبّ ، وللخاصّة مُبغض .

فأماعداوتُه لِله فلقلّة دينه .

وأمّا إهانته للأحرار فهى شَهيرة كهذا النَّهار .

وأما حسَده لأهل الفضل فجرِّب ذلك بكلمةٍ تُبديها .

وأما حبُّه للعامّة فبِمُناظَرته لهم وإقبالِه عليهم .

وأما بغضُه للخاصة فلإذْلالِه لهم وإقصائه إياهم .

* * *

---

(١) الخلة ، بالفتح : الخلل والنقص فى الراى .
(٢) سورة البقرة ١٣٠ .

ابن العميد

فأما ابن العميد أبو الفضل ، فإنه كان باباً آخر ، وطامَّةً أُخرى ، وكان فضلُه من جنسٍ ليس لابنِ عبادٍ فيه نَصيب ، ونقصُه من ضَربٍ لم يكن له فيه ضَريب ، كان يُظهر حلماً تحتهَ سفَه ، ويدَّعى علماً هو به جاهِل ، ويُرِى أنه شُجاع وهو « أجْبَن من المَنزُوف ضَرْطاً » ، وكان يدَّعى المنطِق وهو لا يفى بشىء منه ، ولم يقرأ حرفاً عَلَى أحد ، ويتشبَّع بالهَندسَة وهو منها بعيد ، ولم يكن معه من صناعةِ الكتابة الأَصلُ وهو الحِساب ، وكان أجهلَ الناس بالدَّخلْ والخرجِ ، ولقد بَقِىَ مابَقى فى أيامه فما قعَد يوماً فى الديوان ناظراً فى عمل ، أو فاصلاً لحكم .

شاعر يتملق

ولقد شاهَدت فى مجلسه شاعراً من الكرخ يعرف بممويه ، وكان جيِّد اللسان ، يقول له :

أيها الرئيس ! قد لزمتُ فِناءك لزوم الظل ، وذللت لك ذلَّ النعل ، وخدمت أملى فيك خدمةَ ناصح لنفسى فيما التَمست من الصِّلة والجائزة ، ولك فيما أوفَدتُ عليك من الثناءِ والمدحة ، وما بى ـ والله ـ أَلَمُ الحرمان ، ولكن شماتةُ قوم صدَقونى فاتَّهمتهم ، ونصَحونى فاغتَشَشْتهم ؛ بأَىِّ وجهٍ أَلقاهم ، وبأَيةِ حُجّةٍ أُدافعُهم ؟ وهل حصلتُ من مَديحٍ بعد مَديحٍ ، ومن نظمٍ بعدَ نثر ، ومن رواح بعد بكور ، ومن غَسْلِ أطمارٍ وإخلاق سِربال ، ومن تَأَفُّفٍ لازم ، وضَجَر دائم إلا عَلَى نَدَمٍ مُؤلم ويأسٍ مُسقم ؟ فإن كان للنجاح علامةٌ فما هى ، وأين هى ؟ قد ـ والله ـ طالت غيبتى عن أَهلى ، وعَن السائلين عن حالى ، فى هذه المُعامَلةالتى عاقبتُها الخَيْبة بعدالمطْل ، والحِرمانُ بعد الإطْماع ، والتحَسُّر بعدَ الوعْد ؛ وقد بسَط الله كفَّك ، وجعلَ الخيرَ والجودَ والكرمَ جاريةً فى أسْرارها ونابغةً من جوانبها . فَفِض أيها الرئيس فإنما أَنت بحر ، واسكُب فإنما أَنت سَحاب ، واطلُع فإنما أَنت شَمْس ، واتَّقِد فإنما أَنت نجم ، ومُر فإنما أنت مطاع ، وهب فإنما أنت واجد ، واهتز فإنما أنت ماجِد ، وصِل فإنك جَواد .

والله ما يَقعُد بك خَورٌ فى الطِّباع ، ولا نَغَلٌ[1] فى العِرق ، ولا قَدْح فى الأَصل . المُخُّ قَصِيد[2] والحَبْل حَصِيد[3] ، والزَّنْدُ وارٍ ، والفَروة خَضراء[4] والعُودُ مُورِق ، والمال جمٌّ ، والأَمر أَجَمّ ، والسلكُ دقيق ، والنسيج صَفيق ، والطِّراز أَنِيق ؛ وما هو إلا أَن تقول حتى تُسمَع ، وما هو إلاّ أَن تَأمُر حتَّى يُمتثَل ، لأَن أمرك عَلى الفَور ، وحكمك ماضٍ بالعدل والجَوْر ؛ فما الذي يَثنى عَزمك عن الكرم ؟ ويفُلُّ حدَّك فى الجود ؟ ويُقصِر باعَك عن المَجْد ؟ ويسُدّ أُذنَك عن أَحاديث غد ؟ إن الذين تَكرَهُ لهم ما هُجوا به كانوا مِثلَك ، وإن الذين تَحسُدهم على مَا مُدِحوا به كانوا من طِينتك ؛ فزاحِم بمنِكبك أَضخَمَهم سَناماً وزِد عَلَى مَن كان أَكبرهم كاهِلاً ، وأَعلاَهم يفَاعاً[5] ، وأَسطعَهم شُعاعاً ، وأَزهرَهم ناراً ، وأكثرَهم زواراً !

فلمَّا بهَره هذاالكلام الشَّهِىّ فى ذلك المجلِس البَهِىّ شُدِه وعَلِه[6] ولم يَدْر ما يقول ، وأَطرق هُنيهةً ، ثم قال :

هذا وقتٌ يَضيقُ عن الإطالة منك فى الاستِزادة[7] ، وعن الإطالة منّى فى المَعْذِرة ؛ فإذا تواهَبنا فى الحالِ ما قَد دُفعنا إليه ، استَأنَفْنا فى الثَّانى ما نَتحامد عليه .

فقال الشاعر : أَيها الرئيس ! هذه نُفاثَة صدْرٍ قد جَوِى منذُ سنة ، وفَضْلةُ لسانٍ قد فَدُم منذ زمان ؛ وقد تقدَّم العمل ، والجزاءُ موقوف ، والرَّجاء عَليل ، والأَمَل غادِر ، والحالُ بعرضِ سَوْء ، والشامِت قد شَمَّر للتأنيب ، ولاَ صبْرَ لُمقِلٍ عَلَى مُدِلّ إلا على وجهٍ يُحتَمل ؛ فإن رأَيتَ قدَّمتَ المتأَخّر ، وقربتَ الشّاسع ، وجعلتَ إجزال العطية فى تعجيلها ، وإكرام طالبِها فى تَسْهيلها ، فلاَ مانعَ إن لم يكن ذلك من سدَّةِ جد ، أُو تقاعُس جَدّ .

---

(١) النغل : الفساد فى النسب .
(٢) مخ قصيد : سمين . وهم يستعيرون السمن للجودة .
(٣) الحصيد : المحكم القوى .
(٤) الفروة : الجلدة . واخضرار الفروة كناية عن الخصب وسَعَة العيش .

(٥) اليفاع : المرتفع .
(٦) شده : دهش . وعلة . تبلد وتحير .
(٧) الاستزادة : العتب .

فقال : يا هذا قد كرَّرتَ العتْب ، واجتَرَرت الملام ، وما أستوجِب هذا من أحدٍ من خَلق الله ؛ ولقد نافرتُ العَميدَ بدون هذا حتى ثار من ذلك عَجاجٍ قَاتم ، وانتهينَا منه إلى قَرِىٍ عاتِم ؛ ولستَ وليَّ نِعمتى فأحتمَلك ، ولا صَنيعتى فأُغضِى علَيك ؛ وإنّ بعضَ ما قرّرتَه فى أُذُنى لمَما يَنقُض مِرَّة(١) الحِلْم ، ويُبدِدّ شملَ الصَّبر ؛ ولستُ ممن يطيش لأَدنى سانِح ، ويتطَّير لأوّل بارِح ؛ والله ما دعوتُك إلىَّ ، ولا أغريتُك بى ، ولا سألتُك تقريـظى ، ولا أتعبتُك فى قَصْدِى ؛ وإن الظُّلم منك ، وكذاك العَتْب منك ؛ وأنا عَلَى كلّ حالٍ ما لى ؟ فلا تجمَعْ بين الظُّلمْ والتظَلُّم . والجنايةِ والتَّجنِّى ، وخُذ نفسَك بالنَّزاهَة والعَفاف فإنَّهما لا يَقِفَانِك هذا الموقف ، ولا يَعْرِضانك عَلَى هذا المجلس ، ورزقُ الله مُنتابٌ وغَاد ، واطلُب الغِنَى منك فإنه عندَكَ أكثرُ منه عند مَن تَظلمه وهو لم يَظلم ، وتعاقِبُه وهو لم يُجْرِم .

فقال الرجل : ما كرّرتُ العَتْب حَتَّى أكْلتُ النَّوى المُحَرَّق فى انتظار صِلَتك ، ولا اجتَررتُ الملامَ حتّى خانِنى صِبرى فى توقُّع جائزتك ؛ والغَنِّى إذا مَطَلَ ظَلَم ، والواجِدُ إذا لوَى أَثِم ، والجواد إذا منعَ لِيم .

ولَعمَرى ما دعوتَنى إليك ، ولا أغريتَنى بك بكتاب خَصَصْتَنى ورتَّبتَنى فيه ، ولا سألتَنى تقريـظك، ولا أبغَيْتَنى فى قَصْدك برسولٍ أرسلتَه إلى ؛ ولكن لّما جلستَ فى صَدرِ هذا الإيوان بأُبَّهتك وعَظِمتك وكبريائك وجَبَرُوتك ؛ وقلتَ : لا يخاطبنى أحدٌ إلا بالرياسة .

لا فضل فى

وقد زَجَرتُ ووعَظت ، وقلت وراسَلت ، وكاتَبتُ وشافَهت ، وعاتَبتُ وخاطبت ، وشدَّدت وهوّلت ، ورغبت وأوجَعت ؛ وضربتُ الأمثال ، وذكرت السِّيَر ، وخوفت وحَذّرت ، فما انتفَعت ؛ وجَرائمه تكثُر ، وجَرائره تغلُظ ؛ ولا فضلَ فىّ ، ولا احتمالَ مَعى ، ولا بَقِيَةَ للإغْضَاء عِندِى .

وغَرضى فى هذه المخاطَبة ، ومَغزاى مِن هذه الشكوَى والمُباثَّة ، أن يَشهد القاضى أنى بَرىء منه ، قاطعٌ له ، عادِلٌ عَنهَ ، غيرُ رَاض بقولِه ولا فِعله ، نازِعٌ

---

(١) المرة بالكسر : شدة الفتل . ومِرّة الحبل طاقتُه . ونقضُه : فسخه ؛ والكلام على التجوز .

ما أَلبَسْتُه من بُنُوّة ، مُطَّرِحٌ له دِين ودُنيا ؛ ليسَ مِنّى ولا إلىّ ، قد تَبرأتُ منه وصَرمتُه ، ووَكَلْته إلى اختياره ، ورَفعتُ عنه يَدِى ، وأسلَمته إلى الله لِيأْخُذه بحقّى ، ويقبَلَ به دُعائىَ ، ولا يحفظَ علَيه ما لم يَحفظْهُ علىَّ .

اللهمّ اسمع واشهَد ، وكُن حَسِيبَ الظّالم ، واحكُم بَينى وبينَه ، يا خيرَ حاكِم .

وهذِه شهادةٌ لى عند القاضِى يَحفظُها كما يحفَظ إليه من حُقوق عَمله ، فإنّى مُطالِبُه بها « يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ » وكفَى بالله العَلِىِّ شَهِيداً .

وهذه ـ أبقاكَ الله ـ رسالةٌ تدلّ عَلَى قُرحةٍ دامية ، وعَين باكيَة هامِية ، ونفسٍ قد وَلِهَت عمّا حَلَّ بها ؛ وإن غُلاماً يُحوِج أَباه إلى مثلِ هذِه البَراءَة والشكْوَى مِنه والتأَلُّم ، لَغُلامُ سوءٍ ، واللهُ أكرمُ من أَن يَجْبُرَه فى الدنيا ، وأن يُسعِدَه فى الآخرة .

العالم والجاهل

للطالب المُنْجح لَذّةُ الإدراك ، وللطَّالب المحروم لَذّة اليأس .

ومن صَحِب السلطان فليَصْبر عَلَى قَسْوته كصَبْر الغوَّاص عَلَى ملوحة ماء البحر .

والعالِم يَعرف الجاهل لأَنه كان مرةً جاهلاً ، والجاهل لا يَعرف العالَم لأَنه لم يكُن مرةً عالماً .

ومَن جعلَ الحمدَ خاتماً للنّعمة جعلَه الله مفتاحاً للمزيد .

لو تميَّزَت الأَشياءُ لكان الكذِب مع الجُبن ، والصِّدقُ مع الشجاعة ، والراحةُ مع اليأْس ، والتّعب مع الطمع ، والحرمان مع الحرص ، والذّلُّ مع الدَّيْن .

ومالُ الميّت يُغزّى ورثتَه عنه .

كيف تُريد مِن صديقك خُلُقاً واحداً وهو ذو أَربع طبائع .

تُرقّع خرقَ الدنيا ويَتّسع ، وتَشعَبها وتنصَدِع ، وتجمع منها ما لا يجتمع .

وكان ملّياً بهذا النَّمط ويُفرِغ فى قالَبه ، ولكن لم يكن له منه إلا لقعةُ[1] اللِّسان ، وصَدَى الصوت ، وتقطيع اللفظ . فأَما التحلى والعَمل فكان منهما عَلَى بُعد ؛ والعقلُ متى لم يُثمر كَرَماً فهو وبال ، والحكمة متى لم تُورِث عملا فهى خَبال ؛ والكرم ما قاله الأَعرابى حين سُئل عنه فإنه قال :

---

(١) لقع : رمى : ويقال للرجل الذى يرمى بالكلام ولا شىء عنده وراءالكلام . لُقَعَة . وفى الاصل « لعقة » .

أما الكرم فى اللّقاءِ فالبشاشَة ، وأما في العِشْرِة فالهشاشة ، وأما فى الأَخلاق فالسّماحة ، وأَما فى الأَفعال فالنصاحة ، وأَما فى الغِنَى فالمشاركة ، وأَما فى الفقر فالمواساة .

قلت لأَبى السلم نجبة بن على :
أأبْن عبادٍ أحبُّ إليك أَم ابن العميد ؟

قال : ما فيهما حَبِيَبٌ ، عَلَى أَنى برَقَاعة هذا أَشدُّ انتفاعاً منى بعقل ذاك ؛ هذا يغضَب إذا ترفّعت عن عطائه ، وقبضت يدك عن قبول برِّه ، ومشيْتَ ناكباً عن بابه وقصدِه ؛ وذلك كان يَحقِد إذا رجَوته وتعرّضت له ، ويغضب إذا أُثنيت عليه وطمعت فيه ؛ وهذا يكذِب مُتماجِناً ، وذاك يَصدق مع الدَّماثة ويغيظ ؛ وهذا يفعل الخَير وإن قالَه وأفشَّاه وبَجج به وسحَب ذيلَه عليه .

الأهـوج

وحديثُ ابن عبّاد أَنتَن من الصُّنان ، وأَثقَل من الصُّدام[١] ، وأَبْغض من القضض فى الطعام[٢] ، وأوحش من أَضغاث الأَحلام . يتشاحى[٣] كأنه صبى مترعرع ، يظن أَن الأَرض لم تُقِلَّ غيره ، وأَن السماء لم تُظِلّ سِواه ، أما سمعتَه يشتم فى هذه الأَيام إنسَاناً فقال :

لعن الله هذا الأَهوج الأَعوج الأَفلج الأَفحج الحَفَلَّج[٤] ، الذى إذا قفام لجلج[٥] وإذا مشى تفحّج[٦] ، وإن تكلم تلجلج ، وإن تَنعَّمَ تمجمج[٧] ، وإن مشى تدحرج ، وإن عدا تفجفج[٨] » .

---

(١) الصدام : ثقل ياخذ الإنسان فى راسه .
(٢) القضض : الحصا والتراب يقع فى الطعام ، ثم بين اضراس الآكل .
(٣) يتشاحى : يفتح فاه .
(٤) الأفحج : المعوج الرجلين ، والحفلج كذلك ؛ وفى الأصل : « الخفلج » بالخاء المعجمة .
(٥) لجلج : تردّد .
(٦) تفحج : تفرقت رجلاه وساقاه عندالمشى .
(٧) تمجمج : استرخى وترهل .
(٨) تفجفج : باعد بين رجليه عند المشى .

قال : فهل سَمعت بكلامٍ أنبى عن القلب وأسمَج من هذا ؟ نعوذ بالله من العُجمة المخلوطَة بالتَّعريب ، ومِن العربية المخلوطَة بالتعجيم .

ولو أن هذاالنقصَ لم يَدُلّ إلاّ على اللّفظ الذى معدنُه اللّسان لكانَ العُذرُ أقرَب ، لكنَّه كاشفٌ لِعَوْرة العقل ، هاتَكٌ لسَتْر المعرفَة ، ومَن استَدرَجَه الله إلى هذه الحال فقد خذَله وإن ظنّ أنه مَنصور ، وأفقَرَه وإن حسِبَ أنه مُثْرٍ .

وسمعته يقول لِكاتبٍ بينَ يديه ، وقد كتَب : « مِن إسماعيل بن عباد » ، وكانت العين من إسماعيل قد تطلّست ، ولم يكن لهَا بياض المشقين تتعجرف للكاتب والقلم .

فقال : يا هذا : عينى هكذا ينبغي أن تُكتب بالله ؟ أنت أعمى ؟ أما ترى عينى ؟ انظر إليها حسناً ! أهى محلوسة ، أهى مَمْلوسَة ، أهى مَطلُوسَة ، أهى ممروسة ؟ أهى مَمسوحة ، أهى مَنزوحَة ، أهى مَسطوحة ؟ وما كاد يَسكُت .

وهل هذا إلا رقاعةٌ وجهلٌ وكلام رُقَعاء المعَلِّمين والمخنَّثين ؟!

وقال يوماً :

ها هنا أشياء لا حقيقةَ لها .

منها : إمام الرافضَة ، والاستطاعةُ مع الفعِل ، وفيما كفى فيه كذا وكذا ، وفيما تكلّف من تقديم أهلِ العلم واختصَاص أربَاب الأدب كذا وكذا ، ووصَل أبا سعيد السّيرافى بكذا وكذا ، ووَهب لأبى سُلَيمان المنطقى كذا وكذا ؛ فيزوِى وجهَهُ ويتكرّه حديثه ، وينجذب إلى شىء آخر ليس مما شَرع فيه ، ولا مما حُرِّك له . ثم يقول : أعلم أنك إنما انتجعته من العراق ، فاقرأ علىَّ رسالتك التى توسَّلت إليه بها ، وأسهبت مقرظا له فيها ، فأتمانع فيأمر ويشدد ، فأقرؤها فيَتَّقِد ويذهل .

وأنا أكتبها لك ها هناك لتكون زيادةً فى الفائدة .

بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم هَىء لى من أمرى رشداً ، ووفّقنى لمرضاتك أبداً ، ولا تجعل الحرمان علىَّ رصَداً .

أقول وخيرُ القَول ما انعقَد بالصّواب ، وخيرُ الصواب ما تضَمَّن الصدق ، وخيرُ الصِّدق ما جلَب النَّفع ، وخير النفع ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدَا عن شُكْر ، وخير الشكر ما بَدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشَأ عن إيقان ، وخيرُ الإيقان ما صدَر عن توفيق .

لما رأيت شَبابى هَرَماً بالفقر ، وفَقرى غِنىً بالقناعَه ، وقناعَتى عجزاً عند التحصيل ، عَدلتُ إلى الزّمان أطلب إليه مكانى فيه ، ومَوضعى منه ، يريبيُ طرفه عني نابياً ، وعنانَه عنَ رضاى مَثنياً ، وجانِبَه فى مُرادى خَشِناً ، وإنفاقى فى أسبابه سَيئاً ، والشامتَ بى عَلى الحدَثان متمادياً ؛ طمعِت فى السكوت تجلُّداً ، وانتحلتُ القناعة رياضة ، وتألَّفت شارِدَ حرصى متوقفاً ، وطويت مَنشورَ أمْرى متنزّها ، وجمعتُ شتيت رجائى سَالياً ، وادّرعت الصَّبر مُستَمراً ، ولبست العفافَ محموداً ، واتخذت الانقباضَ صِناعة ، وقمت بالعلاء مجتهداً .

هذا بعد أن تصفحّت الناس فوجدتهم أحد رجُلَين : رجلاً إن نطق نطق عن غَيظ ودِمْنَة ، وإن سكت سكت عَلَى ضِغْنٍ وإحنِة . ورجلاً إن بذَل كدَّر بامتنانه بذْلَه ، وإن منَع حَصَّن باحتياله بُخلَه ؛ فلم يَطَل دَهرى فى أثنائه متبرّماً بطول الغربة وشظَف العيش ، وكلَب الزمان وعَجَف[1] المال ، وجفاء الأهل وسُوء الحال ، وعادية العَدُوّ وكسوف البال ؛ متحرقًا[2] من الحنق عَلَى لئيم لا أجد مُنصَرَفاً عنه ، متقَطّعاً من الشوق إلى كريم لا أجِد سبيلاً إليه ـ حتى لاحت لى غُرة الأستاذ فقلت : حلَّ بى الويل ، وسال بى السَّيل !

---

(١) العجف : الهزال وذهاب السمن .
(٢) متحرقاً : ملتهباً من الحنق .

الامتاع والمؤانسة

أربعون ليلة زمن هذا الكتاب ، في كل ليلة تطرح مسائل فلسفية ، وأدبية ، وعلمية ، وفنية ، ولغوية ، الوزير ابن سعدان يسأل والتوحيدى يجيب ، اخترنا المقدمة ، وما عبر عن ذات التوحيدى ، خاصة الرسالتين اللتين ختم بهما الكتاب ، الأولى للوزير ، والثانية لأبى الوفاء المهندس ، وفى كلتيهما يشكو معاناته الرهيبة ، ويطلب العون .. اعتمدنا على الطبعة الصادرة فى القاهرة عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بتحقيق المرحوم أحمد أمين والمرحوم أحمد الزين .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو حَيّان التوحيدىّ : نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين ووصَلَ إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين ، وظَفِر بالفوز والنعيم مَن قَطَع طمعهَ من الخَلق أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على نبيّه وعلى آله الطاهرين .

أمّا بعد ، فإنّى أقولَ منبّهًا لنفسى ، ولمن كان من أبناء جنسى : من لم يُطِعْ ناصَحه بقبول ما يَسمع منه ، ولم يُمَلِّكْ صديقَه كلَّه[1] فيما يمثّله له ، ولم يَنْقَدْ لِبَيانِه فيما يُريغُه إليه ويُطلِعه عليه ؛ ولم يَرَ أن عقل العالِم الرشيد ، فوق عقلِ المتعلِّم البليد ؛ وأنّ رأىَ المجرِّب البصير ، مقدَّمٌ على رأى الغَمْرِ[2] الغرير فقد خَسِر حظَّه فى العاجل ، ولعلّه أيضا يَخسر حَظّه فى الآجل ؛ فإنّ مصالح الدنيا معقودةٌ بَمراشد الآخرة ، وكليّات الحِسِّ فى هذا العالَم ، فى مقابلة موجودات العقل فى ذلك العالَم ؛ وظاهرُ ما يُرَى بالعِيان مُفْضٍ إلى باطنِ ما يَصْدُق عنه الخَبَر ؛ وبالجملة ، الدّاران متّفقتان فى الخير المغتبَطِ به ، والشرِّ المندومِ عليه ؛ وإنّما يختلفان بالعمل المتقدِّم فى إحداهما ، والجزاءِ المتأخر فى الأخرى ؛ وأنا أعوذ بالله المَلِكِ الحقِّ الجبّار العزيزِ الكريمِ الماجدِ أَن أَجهل حظّى ، وأَعمى عن رُشْدى ، وأُلْقِىَ بيدى إلى التَّهْلُكة ، وأتجانَفَ[3] إلى ما يسوءنى أوّلاولا يسرُّنى آخِرا ؛ هذا وأنا فى ذَيل الكهولة وبادئةِ الشيخوخة ، وفى حالِ مَنْ إنْ لم تَهده التجارب فيما سلف من أيّامِه ، فى حالَى سَفَره ومُقامِه ؛ وفقرِه وغِنائه ، وشِدتِه ورخائه ، وسَرّائه وضرّائه ، وخِيفَتِه ورجائه ؛ فقد انقطع الطمعُ من فلاحِه ووقعَ اليأسُ مِن تدارُكِه واستصلاحِه ؛ فإلى الله أَفزعُ من كلِّ رَيْثٍ وعَجَل وعليه أتوكّل فى كل سؤل وأمل ، وإيّاه أستعين فى كل قول وعمل .

قد فهمتُ أيُّها الشيخ[4] ـ حَفِظ الله رُوحَك ، ووَكَلَ السلامةَ بك ، وأَفرَغَ الكرامة عليك ، وعَصَبَ كلَّ خير بحالك ، وحَشَد كلَّ نعمةٍ فى رَجابِك ورَحِم هذه الجماعةَ

---

(١) كله . مفعول لـ «يملّك» ، يريد بهذه العبارة تمام الطاعة لصديقه حتى كان صديقه مالك له كله يتصرف فيه كيف يشاء .

(٢) الغمر بالفتح والضم : من لم يجرب الأمور : والجاهل الأبله .

(٣) «واتجافى» ، وهو تحريف . والتجانف إلى الشىء : الميل إليه .

(٤) يريد بالشيخ أبا الوفاء المهندس . وهو الذى وصل أبا حيان بالوزير أبى عبدالله العارض كما يفهم مما ياتى .

الهائلة - مِن أبناء الرجاء والأمل - بعنايتك ، ولا قطَعَك من عادة الإحسان إليهم ، ولاثَنى طَرْفَك عنِ الرقة لهم ، ولا زهَّدك في اصطناع حاليهم وعاطِلهم ، ولا رَغِب بك عنِ قبول حقِّهم لبعض باطِلهم ، ولا ثَقَّل عليك إدناءَ قريبِهم وبعيدِهم ، وإنالة مستحِقِّهم وغير مستحِقِّهم أكثرَ مما في نفوسهم وأقصى ما تقدر عليه من مواساتهم ، من بِشْرٍ تبديه ، وجاهٍ تبذُله ، ووعد تُقدِّمه ، وضمانٍ تؤكده ، وهَشاشةٍ تَمزُجها ببشاشة ، وتبسُّمٍ تخلطه بفُكاهة فإن هذه كلَّها زكاةُ المروءة ، ورِباطُ النعمة ، وشهادةٌ بالْمَحْتِد[1] الزكي والعِرْق الطَّيّب والمَنشَأ المحمود ، والعادةِ المَرْضيّة ؛ وهي مؤذِنةٌ بأن المِنْحة راهنة[2] ، والمَوْهِبةَ قاطنة ، والشكرَ مكسوب ، والأجرَ مذخور ، ورضوانَ الله واقع ؛ وأسأل الله بعد هذا كلِّه ألا يُسْهِم[3] وجهي عندَك ، ولايُزِلَّ قَدَمي في خدمتِك ، ولا يُزيغني[4] إلى ما يقطع مادَّةَ إحسانِك وعائدةَ رأيك ونافعَ[5] نيّتك وجميلَ معتقَدِك ، بمنه ولطفِه .

فهمت جميعَ ما قلته لي بالأمس فهما بليغا ، ووعيتُه وَعْيًا تاما ؛ وبان لي الرُّشْدُ في جملتِه وتفصيله ، والصلاحُ في طرفيه ووسطه ، والغنيمةُ في ظاهره وباطنه ، والشفقةُ من أوّله إلى آخره . وأنا أعيده هُهنا بالقلم ، وأرسُمُه بالخط وأقيّده باللفظ ، حتى يكون اعترافي به أَرْسَى وأَثْبَت ، وشهادتي على نفسي أَقْوَى وأَوْكَد ، ونُكُولي عنه أَبعَدُ وأَصعب ، وحُكْمُكَ بِه لي وعليَّ أَمضَى وأَنفذ .

قلتَ لي - أدام الله تعالى توفيقَك في كل قولٍ وفعل ، وفي كل رأيٍ ونظر - : إنك تعلم يا أبا حَيّانَ أنك أنكفَأْتَ من الرَّيِّ[6] إلى بغداد في آخر سنة سبعين[7] بعد

---

(١) « بالمجد » .
(٢) راهنة : دائمة .
(٣) السهوم : تغير الوجه وعبوسه من الهم ؛ وكنى به عن تغير الحال .
(٤) يزيغني : يميلني .
(٥) « ويافع » .
(٦) الري : مدينة فارسية قديمة كانت قصبة بلاد الجبال ، وكان اسمها الفارسي راغة ومنه اخذ اسمها العربي ، وهي الآن أطلال على مسافة خمسة كيلومترات من طهران .
(٧) اى وثلثمائه .

فوتِ مأمولِك من ذى الكفايتين[1] ـ نضَّر الله وجهه ـ عابسا على آبن عباد[2] مَغِيظا منه ، مقروحَ الكبد ، لما نالك به من الحِرمان المُر ، والصد[3] القبيح ، واللقاءِ الكريه ، والجفاءِ الفاحش ، والقَدْع[4] المؤلم والمعامَلةِ السيِّئة ، والتغافلِ عن الثواب على الخدمة ، وحبسِ الأجرةِ على النسْخ والوِراقة ، والتجهُّم المتوالى عند كل لحظةٍ ولفظة .

وذكرتَ فى الجملة شقاءً اتصل بك فى سَفَرك ذلك ، وعناءً نال منك فى عُرْضِ[5] أحوالِك ؛ ولَعَمرى إن السَّفَر فَعول لهذا كلِّه ولأكثر منه ؛ فأرعيتك بصرى ، وأُعرتك سمعى ، وساهمتُك فى جميع ما وقرته فى أُذُنى بالجزع والتوجُّع والاستفظاع[6] والتفجُّع ؛ [8]بِمنتُ لك تلافىَ ذلك كلِّه بِحاقِّ[7] الشفقة وخالصِ الضمير ، ووعدتُك صلاحَ الحال عن ثبات النية ، وصِحةِ العقيدة ، وقلتُ : أنا أرعى حقك القديمَ حين التقينا (بأرجان[6]) ، وأنا على باب (ابن شاهَوَيْه[9]) الفقيه ، وعَهْدَك الحديثَ حين اجتمعنا بمدينة السلام سنة ثمان وخمسين ؛ وأُوصِلُك إلى الأستاذ أبى عبدالله العارض[10] ـ أدام الله تأييده ـ وأخطب لك قبولا منه ، وتخفيفَ الإذن عليك ، وامتلاءَ

---

(١) ذو الكفايتين : لقب لأبى الفتح على بن ابى الفضل محمد المعروف بابن العميد . ويعنون بالكفايتين كفاية السيف وكفاية القلم ، وقد قام مقام ابيه ابن العميد ، واستوزر لركن الدولة البويهى ، ثم لما تولى عضد الدولة نكبه وقتله سنة ٣٦٦هـ .

(٢) ابن عباد ، هو الصاحب ابو القاسم إسماعيل بن ابى الحسن عباد ، ولد سنة ست وعشرين وثلاثمائة ، وتوفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بالرى ، وكان وزيرا لمؤيد الدولة ابى منصور بويه الديلمى ، ثم وزر لأخيه فخر الدولة ابى الحسن على ، وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء ، لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا .

(٣) « والقصد » .

(٤) القدع بالمهملة : المنع والزجر . وبالذال المعجمة : الشتم . والمعنى يستقيم على كلا الوجهين .

(٥) « فى عرض احوالك » اى فى اكثرها . وعرض الشىء اكثره ومعظمه .

(٦) « والاستقطاع » .

(٧) حاق الشفقة : اى صادقها وكاملها .

(٨) ارجان : مدينة بين فارس وخوزستان ، وهى من كور الأهواز . وتعرف الآن باسم « بابهان » .

(٩) ابن شاهويه هو ابو بكر محمد بن احمد بن على بن شاهويه الفارسى الفقيه الشافعى تولى القضاء ببلاد فارس ، وتوفى سنة ثنتين وستين وثلاثمائة بنيسابور .

(١٠) ابو عبدالله العارض ، هو ـ فى رأينا ـ ابو عبدالله الحسين بن احمد بن سعدان كان وزيرا لصمصام الدولة بن عضد الدولة من سنة ٣٧٢ إلى سنة ٣٧٥ والعارض لقب له وهو كما فى الأنساب للسمعانى « من يعرِّف العسكر ويحفظ ارزاقهم ويوصلها إليهم ، ويعرض العسكر على الملك إذا احتيج إلى ذلك » ، والظاهر انه لقب بهذا إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة ، أو كان هذا لقبا لأسرته .

الطَّرْف بك ، ونَيْلَ الحظوة بخدمتك وملازَمتك ؛ وفعلت ذلك كلَّه حتى استكَتَبك (كتابَ الحيوان) لأبى عثمان الجاحظ ، لعنايتك به ، وتوفُّرِك على تصحيحه ، ثم حَضنتُ[١] لك هذه الحالَ إلى يومنا هذا ؛ وهو الوزير العظيم الذى افتقرت الدولة إلى نظره وأمرِه ونهيه ، وإلى أن يكون هو المُبْرِمَ والناقض ، والرافعَ والواضع ، والكافىَ والوافى والمقرِّبَ لخَدَمِها ونصائحها ، والمزحزِحَ لحسدتها وأعدائها ؛ والراعىَ لرعيّتها ودَهْمائها ، والناهضَ بأثقالِها وأعبائها ، أعانه الله على ما تولاه ، وكفاه المهمَّ فى دنياه وأُخراه ، بمنه وقدرتِه .

نعم ورتَّبت ذلك كلَّه ، ولَم أقطع عنك عادتى معك فى الأُسترسال والأُنبساط ، والبر والمواساة ، والمساعدة والمواتاة[٢] ، والتعصّب والمحاماة .

أفكان من حقِّى عليك فى هذه الأسباب التى ذكرتُها ، وفى أخواتها التى تركتُها كراهةَ الإطالة بها أنَّك تخلو بالوزير ـ أدام الله أيَّامه ـ ليالىَ متتابعةً ومختلفة ، فتحدّثُه بما تحبّ وتريد ، وتُلقِى إليه ما تشاء وتختار ، وتكتبُ إليه الرُّقعةَ بعد الرُّقعة ؛ ولعلّك فى عُرْض ذلك تعدو طَوْرَك بالتَشدُّق[٣] وتجوزُ حَدّك بالأُستحقار ، وتتطاولُ إلى ما ليس لك ، وتغلَط فى نفسك ، وتَنسَى زَلّة العالِم ، وسَقطةَ المتحرِّى ، وخَجلةَ الواثق ؛ هذا وأنت غِرٌّ لا هيئة لك فى لقاء الكُبَراء ، ومحاورةِ الوزراء ؛ وهذه حالُ تحتاج فيها إلى عادة غيرِ عادتك ، وإلى مِرانٍ سوى مِرانِك ، ولِبسَةٍ لا تشبه لِبْسَتَك ؛ وقَلَّ مَن قُرِّب من وزيرٍ خَدَم فأجاد ، وتكلَّم فأفاد ، وبُسِط فزاد ؛ إلاّ سَكِر ، وقَل من سَكِر إلا عَثر وقَلَّ من عثَر فانتَعش ،وما زَهِد فى هذه الحال كثيرٌ من الحكماء الأولين والعُبّاد الربّانيين ؛ إلا لِغلظها وصعوبتها ، ومكروهِ عاقبتها ، وشدة الصبر على فوارضها ورواتبِها[٤] ، وتفسُّخ[٥] المتن بين حوادثها ونوائبها .

والعَجَب أنك مع هذه الخِلَّة[٦] تظن أنها مطويَّةٌ عنّى وخافية دونى ، وأنك قد

---

(١) « حضنت لك هذه الحال » ، أى كفلتها لك وحفظتها عليك .

(٢) المواتاة : الموافقة .

(٣) التشدق ، هو التوسع فى الكلام من غير احتياط واحتراز . وهو أيضا استهزاء الرجل بالناس يلوى شدقه بهم وعليهم .

(٤) « وروايتها » .

(٥) التفسخ : الضعف والعجز عن النهوض . والمتن : الظهر .

(٦) « الجملة » . والخلة بالكسر : الثلمة . يريد ما فيه من العيوب والنقائص .

بلغت الغاية وادعَ القلب ، وملكتَ المكانة ثانى العِنان ؛ وقد انقطعتْ حاجتُك عنى وعمن هو دونى ، ووقع الغِنى عن جاهى وكلامى ولطفى وتوصيلى ؛ وجهلتَ أنَّ من قَدَر على وُصولك ، يقدر على فصولك[1] ، وأن عنْ صَعِد بك حين أراد ، ينزل بك إذا شاء ، وأن من يُحسِن فلا يُشكر ، يجتهد فى الاقتصاد حتى يُعذَر .

وبعد ، فما أُطيل ، ولعلَّ لَهَبَ المَوْجِدة يزداد ، ولسانَ الغيظ يغلو ، وطباعَ الإنسان تحتد ، والندمَ على ما أسلفتُ من الجميل يتضاعف ؛ ولستَ أنت أوّلَ مَن بُرفعَقّ ، ولا أنا أولّ من جُفِىَ فَنقّ[2] . وهذا فراقُ بينى وبينك وآخرُ كلامى معك ، وفاتحةُ يأسى منك ؛ قد غسلتُ يدى من عهدك بالأُشْنان[3] البارقىّ ، وسلوتُ عن قربك بقلب معرِض وعزمٍ حىّ ؛ إلا أن تُطلِعنى طِلعَ[4] جميعِ ما تحاورتما وتجاذبتما هُدْبَ الحديث عليه ، وتصرفتما فى هزله وجِدّه ، وخيره وشرِّه ، وطيِّبه وخبيثه ، وباديه ومكتومِه ؛ حتى كأنى كنتُ شاهدا معكما ورقيبا عليكما ، أو متوسطا بينكما ، ومتى لم تفعل هذا ، فانتظر عُقبى آستيحاشى منكْ ، وتوقَّعْ قلَّة غُفولى عنك ، وكأنى بك وقد أصبحتَ حَرّان حيرانَ يا أباحيّان ، تأكل أصبعك أسفا ، وتَزدَرِدُ ريقَك لهفا ، على ما فاتك من الحَوْطة لنفسك ، والنظر فى يومك لغدِك ، والأخذِ بالوثيقة فى أمرك ، أتظنّن بغرارتك[5] وغمارتك[6] ، وذَهابك فى فُسُولَتك[7] التى اكتسبتَها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأدنياء الأردياء ؛ أنك تقدر على مثل هذه الحال ، وأنامُ معك على حسن الظن بك ، والثقة بَصَدرِك ووِردك ، وأطمئن إلى حَكِّك وجَرْدِك وأتعامى عن حرِّك وبردك ؛ هيهات ؛ رَقدتَ فَحَلَمْت ، فخيرا رأيت وخيرا يكون .

على هذا الحدّ كان مَقْطع كلامك فى مَوجِدتك ، وإلى ههنا بلغ فَيْضُ عَتبِك

(١) فصولك . أى خروجك من عند الوزير . يقال : « فصل القوم من البلد فصولا » ، إذا خرجوا منها .

(٢) نَق : من النقيق . وهو فى الأصل صياح الضفدع ، والمراد هنا التحدث بما أسداه من النعم وما يلقاه من الكفران .

(٣) الأشنان : غاسول كانت تغسل به الثياب والأيدى ، وهو نبات لا ورق له ، وله أغصان دقاق فيها ما يشبه العقد ، وهى رخصة كثيرة المياه .

(٤) يقال : « أطلعته طلع أمرى » بكسر الطاء ، أى أثثته سرى .

(٥) الغرارة : الغفلة .

(٦) الغمارة . الجهل والبلاهة .

(٧) الفسولة : الضعف والخسة وقلة المروءة .

ولائمتك ؛ وفى دون ذلك تنبيه للنائم ، وإيقاظٌ للساهى ، وتقويمٌ لمن يقبل التقويم ؛ وقد قال الأول :

ألا إنما[١] يكفى الفتى عند زَيغِه من الأَوَد[٢] البادى ثِقافُ المقوِّمِ

فقلت لك : أنا سامع مطيع ، وخادمٌ شكور ، لا أشترى سخطَك بكلّ صفراءَ[٣] وبيضاءَ فى الدنيا ؛ ولا أنفِر من التزام[٤] الذنب والاعترافِ بالتقصير ؛ ومِثلى يهفو ويَجْمَح ، ومِثلك يعفو ويصفح ؛ وأنت مولىً وأنا عبد ، وأنت آمرٌ وأنا مؤتِمر ، وأنت ممتثِلٌ وأنا ممتثل ، وأنت مصطنِع وأنا صنيعَةٌ ، وأنت منشِّئٌ وأنا مُنَشَّأ ، وأنت أول وأنا آخِر ، وأنت مأمول وأنا آمِلٌ ، ومتى لم تغفر لى الذنب البِكْر ، والجنايةَ العَذْراء ، والباردةَ النادرة ؛ فقد أَعْنَتنى على ما كان منّى ، وَذَلَلْتَ على مَالَكَ لى ؛ وأنك كنت مترصِّدًا لهذه الهفوة ومعتقدًا فى مقابلتها هذه الجفوة ؛ وكرمُك يأبى عليك هذا ، ومُثولى بين يديك خِدمةً لك يَحظُره عليك .

هذا وأنا أفعل ما طالبتَنى به مِنْ سَرْدِ جميع ذلك ، إلّا أن الخوض فيه على البديهة فى هذه الساعة يُشُقّ ويصعُب بعقِب ما جرى من التفاوض ، فإن أَذِنْتَ جمعتُه كلَّه فى رسالة تشتمل على الدقيق والجليل ، والحلوِ والمُر ، والطرىِّ والعاسى[٥] ، والمحبوب والمكروه ؛ فكان مِنْ جوابك لى : افِعَلْ . وَنِعم ما قلتَ وهو أَحَبُّ إلىّ وأقربُ إلى إرادتى ، وَأَحْصَرُ لما أُريغُ[٦] منه ، وأدخَلُ فى الحجة عليك ولك ؛ وأغسَلُ للوسخ الذى بينى وبينَك ، وأزهَرُ للسراج الذى طَفِىءَ عنى وعنك ، ويجذَبُ لعِنان الحجة إن كانت لك ، وأَنطَقُ عن العذر إن اتَّضح بقولك ؛ وإذا عزمتَ فتوكّل على الله ؛ وليكن الحديثُ على تباعد أطرافِه ، واختلافِ فنونه مشروحا ، والإسناد عالياً متّصلا ، والمتنُ تاماً بينا ، واللفظُ خفيفا لطيفا ، والتصريحُ غالبا[٧]

---

(١) « أيما » بالياء .
(٢) الأود : العوج . والثقاف : ما تسوَّى به الرماح .
(٣) يريد بالصفراء الذهب ، وبالبيضاء الفضة .
(٤) « اكرام » .
(٥) العاسى : اليابس .
(٦) اريغ : اطلب وأريد .
(٧) « عاليا » .

متصدِّرا[١] ، والتعريض قليلا يسيرا وتَوَخَّ الحقَّ فى تضاعيفه وأثنائه ، والصدقَ فى إيضاحه وإثباته ؛ وٱتّقِ الحذف الْمُخِل بالمعنى ، والإلحاقَ المّتصلَ بالْهَذَر ، وٱحذرْ تزيينَه بما يَشينُه ، وتكثيرَه بما يقّلله ، وتقليلَه عما لا يُستغَنى عنه ؛ وٱعمِدْ إلى الْحَسَن فزد فى حُسنه ، وإلى القبيح فأنُقصْ من قبحِه ؛ وٱقصدْ إمتاعِى بجُمعَة[٢] نظمِه ونثره ، وإفادتى من أولِّه إلى آخره ؛ فعَلّ هذه المثاقَفة[٣] تَبقَى وتُروَى ، ويكون فى ذلك حُسنُ الذكرى ؛ ولا تُومِىء إلى ما يكون الإفصاحُ عنه أحلى فى السمع ، وأعذَبَ فى النفس ، وأَعلقَ بالأدب ؛ ولا تُفصِحْ عما تكون الكنايةُ عنه أسترَ للعيب ، وأنفى للرَّيب ؛ فإن الكلام صَلِفٌ تَياه لا يستجيب لكلّ إنسان ، ولا يَصحَب كلَّ لسان ؛ وخطهُ كثير ، ومتعاطيه مغرور ، وله أَرَنٌ[٤] كأَرَنِ المُهْرِ وإباءٌ كإباء الحَرُون ، وزهوٌ كزهو المَلِك ، ونَخْفُقٌ كَخَفْقِ البرق ؛ وهو يَتَسهّل مرة ويتعسر مرارا ، ويَذِل طورا ويَعِزّ أطوارا ؛ ومادّته من العقل [والعقلُ] سريعُ الحُؤُول[٥] خفيُّ الخداع ؛ وطريقهُ على الوهم ، والوهم شديد السَّيَلان ومجراه على اللسان ، واللسان كثير الطغيان ؛ وهو مركب من اللفظ اللغويّ والصَّوْغ[٦] الطِّباعى ، والتأليفِ الصّناعيّ ، والاستعمالِ الاصطلاحيّ ، ومُستْملاه من الحجا ، ودَرْيُهُ[٧] بالتمييز ؛ ونَسْجُه بالرّقة ، والحجا فى غاية النشاط[٨] وبهذا البَوْن يقع التباين ويتّسعُ التأويل ، ويجول الذّهن ، وتَتمطَّى[٩] الدعوى ، ويُفزَعُ إلى البرهان ، ويُبرأ من الشبهة ، ويُعثر بما أشبه الحجّةَ وليس بحجّة ؛ فٱحذر هذا النّعت وروادفَه ، واتق هذا الحُكم وقَوائفَه[١٠]؛ ولا تعشَق اللفظ دون المعنى ولا تهو المعنى دون اللفظ ؛ وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء فى جانب ، فإن صناعتهم يُفتقَر فيها أشياءُ يؤاخذ بها غيرُهم ، ولستَ منهم ، فلاتتشبه

---

(١) « متصورا » .
(٢) الجمعة : المجموعة .
(٣) يريد بالمثاقفة المطارحة فى العلم والأدب ومذاكرتهما .
(٤) الأرن بالتحريك : النشاط .
(٥) الحؤول . التحول .
(٦) « والصرع » .

(٧) دريه ، أى دريانه وعلمه .
(٨) الظاهر أن هنا كلاما سقط من الناسخ .
(٩) تمتطى : تتطاول .
(١٠) قوائفه ، أى توابعه . يقال . قاف اثره إذا تبعه .

بهم ، ولا تجرِ على مثالهم ، ولا تنسُج على منوالِهم ، ولا تدخل فى غِمارِهم ، ولا تكثِّر ببياضك سوادَهم ، ولا تُقابل بُفكاهتك براعتهم ، ولا تجذب بيدك رشاءَهم ، ولا تحاول بباعك مطاولتهم(١) وآعرف قدرَك تَسلَم ، وآلزم حدَّك تأمن ؛ فليس الكَوْدَن(٢) من العتيق فى شىء ، ولا الفقيرُ من الغنى على شىء ؛ أما سمعتَ قول الناس : ليس الشامىُّ للعراقىِّ(٣) بصاحب ، ولا الكردى من الجندى بساخر ، فإن طال(٤) فلا تُبَلْ ، وإن تَشعَّبَ فلا تكترث ، فإن الإشباع فى الرواية أشفَى للغليل ، والشرحَ(٥) للحال أبلَغُ إلى الغاية ، وأظفرُ بالمراد ، وأجرَى على العادة .

فكتبت : (بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيم) ، أقول أيها الشيخ - عطَف الله قلبك علّى ، وألهمك الإحسان إلىّ - فى جوابِ جميع ما قلتَه واجداً علىّ وعاتبا ، وفابضا ، وباسطا ، ومرشدا ، وناصحا ؛ ما يُعْرَف الحقّ فيه ، ويَستبِينُ الصوابُ منه ، غيرَ خائنٍ لك ، ولا جانحٍ إلى مخالفَتك ، ولا مُريغٍ (٦) للباطل معك ، ولا جاحدٍ لأياديك القديمة والحديثة ، ولا منِكرٍ لنعمتك الكافية الشافية ، ولا غاطٍ(٧) على فواضلك المجتمعة والمتفرقة ، ولا تاركٍ لشىء هو على من أجل شىء هو لى ، ولا معرض عن شىء هو لى بسبب شىء هو علىّ ؛ بل أجهِّز دِقَّه وجِلّه إليك حتى تراه بسِدِّه(٨) وغُباره ، وأجلوه عليك حتى تلحظه بردائه وإزارِه . كأنى لم أسمع قولَ الأوّل :

« والكفر(٩) مَخبثةٌ لنفس المنعِمِ » « والشكر مَبعثهُ لنفس المفضِلِ »

أأنا أَدَعُك واجداً علىّ ، وأرقد وأنت ما قِتٌ لى ، وأجد حِسَّ نعمة أنت وهبتَها إلىّ ، وأَلَذّ عيشاً أنت أذقتنى حلاوتَه . أأنسى أياديَك وهى طوقُ رقبتى ، وتُجاهَ

---

(١) « مطاوعتهم » .
(٢) التكودن : الفرس الهجين والبرذون . والعتيق من الأفراس : الكريم الرائع منها .
(٣) يشير بهذه الجملة إلى ما وقع بين الشام والعراق من العداوة أيام على ومعاوية وما تبع ذلك .
(٤) طال ، أى الكلام .
(٥) « والسرج » .

(٦) المريغ . المريد .
(٧) غطى على الشىء بتخفيف الطاء : كغطى عليه بتشديدها .
(٨) السِّد : الصحيح من الكلام وكنى بالغبار عما يثور حول الكلام من اعتراض ونحوه ، ومنه قولهم : « كلام لا غبار عليه » .
(٩) هذا الشطر عجز بيت لعنترة العبسى وصدره :
نبئت عمرا غير شاكر نعمتى

عينى ، وحشوُ نفسى ، وراحةُ حِلمى ، وزادُ حياتى ، ومادة روحى ؟ هيهات ، هذا بعيد من القِياس ، وغيرُ معهود بين أحرار الناس ؛ الذين لهم آهتمام بصون أَعْراضهم ، وحرثٌ على إكرام أنفسهم ؛ قد عَبِقوا[1] بفوائح الفتوة ، وعَلِقوا بحبائل المروءة ، وشدَوْا[2] من الحكمة أشرفَ الأبواب ؛ واعْتَزَوْا من الأدب إلى أعز حَرم[3] ؛ وحازوا شرفا بعد شرف ، وانحازوا عن نَظَف بعد نَظَف[4] ونظروا إلى الدنيا بعين بصيرة ، وعَزَفُوا[5] أنفسهم عن زهراتها بتجربة صادقة .

فأول ما أبدؤك به أننى ظننتُ ظنا لا كيقين أن شيئاً مما كنتُ فيه مع الوزير ـ أدام الله أيّامه ، وقَصَم أعداءه ـ ليس مما يهمك ، ولا هو مما يَقْرَعُ سمعَك سماعُك له ؛ وحسبتُ أيضاً أننى إن بدأتُ بشىء منه رَذَلْتَنى عليه وتنقصتنى به ، وزَرَيتَ علىَّ فيه ؛ وأنك ربما قلت : لم بدأتَ بما لم أسئلك عنه ولم أرخِّص لك فيه ، هلاّ كظمتَ على جِرّتِك[6] ، وطويتَ ما بين جنبيك وما علىّ مما يدور بين الصاحب وخادمه والرؤساء ، والناظرين فى أمور الدهماء[7] والمتصفحين لأحوال العامة والخاصة ، ولهم أسرار وعيوبٌ لا يقف عليها أقرب الناس إليهم ، وأعزُّ الناس عليهم ، وأنت أيضا فلَم تسألْنى عنه ، فكان فى تقديرى أنّك قد عرفتَ وصولى فى وقت دون وقت ، وأنّك قد حَملتَ أمرى على الخدمة التى ليس للعلم بها فائدة ، ولا فى الإعراض عنها فائتة .

وإذْ جرى الأمر على غير ما كان فى حسابى وتَلَبَّسَ[8] بظنى ، فإنى أهدى ذلك كلَّه بَغثاثته وسَمانته ، وحلاوته ومرارته ، ورِقّته وخَثارته فى هذا المكان ؛ ثم أنت أبصَرُ بعد ذلك فى كتمانه وإفشائه ، وحفظِه وإضاعته وستره[9] وإشاعته ؛ ووالله ما أُرَى هذا أمراً صعْباً إذا وصل إلى مرادِك ولا كُلْفةً شاقّةً إذا أكسبنى مَرضاتَك ؛ وإن كان ذلك

(١) « عتقوا بفرائح » .
(٢) شدوا : أخذوا . يقال : شدا من العلم شيئا إذا أخذه كأنه ساقه أو جمعه . وفى الأصل « شذوا » بالمعجمة .
(٣) « خدم » .
(٤) النطف بالتحريك . العيب والفساد .
(٥) « عرفوا » وعزف عن الشىء : أعرض عنه وزهد فيه .
(٦) « جريك » ، وجرة البعير معروفة ، شبه بها الحديث المختزن يفشيه صاحبه .
(٧) « الذبهما » والدهماء : جماعة الناس .
(٨) « ولكبس » .
(٩) « ونشره واشكر عته » .

يمر بأشياءَ كثيرةٍ ومختلفةٍ ، متعصية غريبةٍ ، منها ما يَشِيط[1] به الدم المحقون ، ويُنزَع من أجلِه الرُّوح العزيز ، ويُستصغَر معه الصَّلْب ، ولا يُقنَع فيه بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ؛ وإن كان فيها أيضا غيرُ ذلك مما يُضحِك السِّنّ ، ويُفكّه النفس ، ويدعو إلى الرشاد ، ويدُل على النُّصح ، ويؤكِّد الحُرْمة ، ويَعقِد الذِّمام ، ويَنشُر الحكمة ، ويشرِّف الهمّة ، ويَلْقَح العقل ، ويزيد فى الفهم والأدب ويفتح بابَ اليُمْن والبركة ، ويُنَفِّق بضاعةَ أهل العلم فى السوق الكاسدة ، ويوقظ العيون الناعسة ، ويَبُلّ الشِّنَّ[2] المتغضِّف ، ويُندِّى الطِّين المترشِّف ؛ ويكون سبباً قويا على حُسن الحال وطلبِ العيش ، فإن هذه العاجلةَ محبوبة ، والرّفاهيةَ مطلوبة ، والمكانةَ عند الوزراء بكل حولٍ وقوةٍ مخطوبة ، والدنيا حلوةٌ خَضِرة وعَذْبةٌ نَضِرة ، ومن شَفَّ[3] أمُلُه شَقَّ عملُه ؛ ومن اشتَدَّ إلحاحُه ، توالَى غدوُّه ورَواحُه ، ومَن أسَرَه رجاؤه ، طال عناؤه ، وعَظُم بلاؤه ؛ ومن آلتهب طمعُه وحرصُه ، ظهر عجزُه ونقصُه .

وفى الجملة :

مـن لـم يـكـن لله مـتّـهِـمـاً لَم يُمْسِ محتـاجًـا إلى أحـدِ

ولابد من فتًى يعينُ على الدّهر ، ويُغنى عن كرام الناس فضلا عن لئامهم ، ويذلل قَعودَ الصبر ، ويُجِمّ راحلةَ الأمل ، ويُحلى مُرَّ اليأس ؛ والعُزلة محمودةٌ إلا أنّها محتاجة إلى الكفاية ، والقناعة مَزّة[4] فَكِهةٌ ولكنّها فقيرةٌ إلى البلغة وصيانةُ النفس حسنة إلا أنّها كُلْفةٌ محرجة إن لم تكن لها أداةٌ تَجدُّها[5] وفاشيةٌ[6] تَمُدّها ، وتركُ خدمة السلطان غيرُ الممكن ولا يستطاع إلا بدِينٍ متين ، ورغبةٍ فى الآخرة شديدة ، وفِطامٍ عن دار الدنيا صعب ، ولسانٍ بالحلو والحامض يَلَغ .

---

(١) يشيط : يذهب هدرا .
(٢) « السن بالسين المهملة » . والشن بالمعجمة : القربة الخلق . والمتغضف ، أى المتكسر المتغضن من اليبوسة .
(٣) شف أمله : زاد ، ويجوز أن يفسر بمعنى أسقمه الأمل وأضناه لعلوه وبعد مناله .
(٤) « مرة » والمزّة : الخمرة اللذيذة الطعم .
(٥) تجدها ، اى تجددها .
(٦) الفاشية : ما انتشر من المال . وفى الأصل « غاشية » .

قال آبن السمَّاك[1] : لولا ثلاثٌ لم يقع حَيْف ، ولم يُسَلَّ سيف ، لقمةٌ أسوَغ من لقمة ، ووجه أصبَحُ من وجه ، وسِلْك[2] « أنعمُ من سِلْك » ، وليس كلُّ أحد له هذه القوّة ، ولا فيه هذه المُنّة[3] والإنسان بَشَر ، وبِنيتُه متهافِتة وطينتُه منتشرة ، وله عادةٌ طالبة ، وحاجةٌ هاتكة ، ونفسٌ جَموح ، وعينٌ طموح ؛ وعقلٌ طفيف[4] ، ورأى ضعيف ، يهفو لأول ريح ، ويستخيلُ[5] لأول بارق ؛ هذا إذا تخلص من قُرناء السوء ، وسلم من سوارق[6] العقل ، وكان له سلطان على نفسه ، وقَهْرٌ[7] لشهواته . وقَمْعٌ لهوائجه[8] وقبولٌ من ناصحه ، وتهيّؤٌ فى سعيه ، وتبوُّءٌ فى مَعَانِ[9] حَظِّه ، وآئتمامٌ بسعادته ، وآستبصارٌ فى طلب ما عند ربّه ، وآستنصافٌ من هواه المُضِلِّ لعقله المرشِد ، هذا قليلٌ وصعب ولو قلتُ : معدومٌ أو مُحال فى هذا الزمن العسير والدهر الفاسد ، لما خفتُ عائقاً يعوقنى ، ولا حسودا يرد قولى . قال ابن السَّمَّاك : الله المستعان على ألسُنٍ تَصِف وقلوب تَعترف ، وأعمالٍ تختلف . وقال معاوية لأبى بكر بن عبدالرحمن بن الحارث ـ ورآه لايَلِى له عملا ، ولم يَقبل منه نائلا ـ : يا ابن أخى ، هى الدنيا ، فإما أن تَرضَع معنا ؛ وامّا أن تَرتَدِع عنّا . وربما قال بعض المتكلفين قد قال بعض السلف : ليس خيرَكم مَن تَركَ الدنيا للآخرة ، ولا مَن ترَكَ الآخرة للدنيا ولكنّ خيرَكم مَن أَخذ من هذه وهذه . وهذا كلام مقبول الظاهر موقوفُ الباطن . وربما قال آخَرُ من المتقدمين : (آعمل لآخرتك كأنّك تموت غدا ، وآعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدا) . وهذا أيضا كلامٌ منمَّق ، لا يَرجع

---

(١) « ابن السماك » . وهو تحريف وابن السماك هو ابو العباس محمد بن صبح الكوفى الزاهد الواعظ المشهور لقى جماعة من الصدر الأول واخذ عنهم وقدم من بغداد زمن هرون الرشيد وتوفى سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة .

(٢) السلك : الخيط . وكنى به عن الثوب لانه من الخيوط .

(٣) « المقة » . والمنة بضم الميم : القوة .

(٤) الطفيف الناقص والقليل .

(٥) فى الأصل : « ويستحيل » بالحاء . وهو تصحيف . ويستخيل لاول بارق : اى يخال المطر عند اول بارق .

(٦) يريد بسوارق العقل : الشهوات التى تذهب به وتجعله فى حكم غير الموجود كانها تسرقه . والذى فى الأصل : « سرادق » ؛ وهو تصحيف .

(٧) « وفهم » .

(٨) لهوائجه ، اى لما يهيج به من النزعات والمطامع .

(٩) المعان : المباءة والمنزل .

إلى معنًى محقَّق ؛ أين هو من قول المسيح ـ عليه السلام ـ حين قال : الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب متى بَعُد أحدكم من أحدهما قَرُب من الآخَر ؛ ومتى قَرُب من أحدهمابَعُد من الآخَر . وأين هو من قول الآخَر : الدنيا والآخرة ضَرّتان ، متى أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى ، ومتى أسخطتَ إحداهما أرضيتَ الأخرى .

وهذا لأنّ الإنسان صغيرُ الحجم ، ضعيفُ الحَول ، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذِ حظوظ بدنه وإدراكِ إرادته ، وبين السعى فى طلب المنزلة عند ربِّه بأداء فرائضه ، والقيام بِوظائفه ، والثباتِ على حدود أمرِه ونهيِه ، فإن صَفَق وجههُ وقال : نَعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار ، فهذا المذبذب الذّى لا هو من هذه ولا من هذه ؛ ومن تخَنَّثَ[1] وتَلَيَّث لم يكن رجلًا ولاآمرأة ، ولا هو يكون أبا ولا أما ؛ وهذا كما نرى .

ونرجع فنقول : ونعوذ بالله من الفقر خاصة إذا لم يكن لصاحبه عِياذٌ من التقوى ، ولا عِمادٌ من الصبر ، ولا دِعامةٌ[2] من الأنَفة ولاآصطبارٌ على المرارة .

وقد بُلينا بهذا الدهر الخالى من الدّيّانين الذين يُصلِحون[3] أنفسهم ويُصلِحون غيرَهم بفضل صلاحهم ، الخاوى من الكرام الذين كانوا يتّسعون فى أحوالهم ، ويوسِّعون على غيرهم مِن سَعَتِهم ، وكانوا يهتمون بذخائر الشكر المعجَّل فى الدنيا ، يَحرِصون[4] على ودائع الأجر المؤجَّل فى الأخرى ؛ ويتلذّذون بالثناء ، ويهتزون للدعاء ؛ وتَملِكهم الأريحيّةُ عند مسئلة المحتاج ، وتعتريهم الهِزّةُ معها والابتهاج ؛ وذلك لعشقهم الثناءَ الباقى ؛ والصنيعَ الواقى ؛ ويرون الغنيمةَ فى الغرامة ، والرِّبحَ فى البذل ، والحظَّ فى الإيثار ، والزيادةَ فى النقص ؛ أعنى بالزيادة . الخلَفَ المنتظَر من الله ؛ وبالنقص : العطاء ؛ ورأيتُ الناس يعيبون ابن العميد حين قال : أنا أعجب من جهل الشاعر الذى قال :

أنت للمالِ إذا أمسكتَه فإذا أنفقتَه فالمالُ لك

قال : ولو كان هذا صحيحاً كان لا ينبغى أن يُكتَسبَ المال ، لأنّه ليس فى ترك

(١) فى الأصل : « تحثث » ؛ وهو تصحيف . ويريد بالتخنث والتليث : اللين والتشدد تشبها بالمخنثين والليوث .

(٢) « دماثة » . والدعامة : العماد .

(٣) « لا يصلحون » : وقوله « لا » زيادة من الناسخ .

(٤) « يخوضون » .

كسبه أكثرُ من إخراجه بالإنفاق . هذا لقولهم[1] بحكمته وعقلهِ وتحصيله وصوابُ الجاهلِ لا يُستحسَن كما يُستقبَح خطأ العاقل ؛ نعم ، وكانوا إذا وَلُوا عَدَلوا ، وإذا مَلَكوا أَفضَلوا[2] ، وإذا أعطَوا أَجزَلوا ، وإذا سُئلوا أجابوا وإذا جادوا أطابوا ، وإذا عالوا[3] صبروا ، وإذا نالوا[4] شكروا ؛ وإذا أنفقوا واسَوا ، وإذا امتُحِنوا تَأَسَّوا ؛ وكانوا يرجعون إلى نقائبَ ميمونة ، وإلى ضرائبَ[5] مأمونة ؛ وإلى ديانات قوّية ، وأماناتٍ ثخينة[6] ؛ وكان لهم مع الله أسرار طاهرة ، وعلانيةٌ مقبولة ؛ ومع عباد الله معاملَة جميلة ، ورحمةٌ واسعة ومَعْدِلَةٌ فاشية ؛ وكانت تجارتُهم في العلم والحكمة ، وعادتهم جارية على الضِّيافة والتَّكرِمة ؛ وكانت شِيمتُهم الصفح والمغفرة ورِبحُهم[7] من هذه الأحوال النجاةَ والكرامةَ في الأُولى والعاقبة ؛ وكانوا إذا تلاقَوا تواصَوا بالخير ، وتناهَوا عن الشرِّ ؛ وتَنافَسوا في اتخاذ الصنائع ، وآدخار البضائع (أعنى صنائعَ الشكر ، وبضائعَ الأجر) فذهب هذا كلُّه ، وتاه[8] أهلُه ؛ وأصبح الدِّين وقد أُخلِقَ لَبُوسُه ، وأُوحِشَ مأنوسُه ، وآقتُلِع مغروسُه ؛ وصار المنكَر معروفا ، والمعروفُ منكَرا ، وعاد كلُّ شىء إلى كدِره وخاثِره ، وفاسدِه وضائرِه ؛ وحَصَل الأمرُ عَلَى أن يقال : فلانٌ خفيف الرُّوح ، وفلان حسَنُ الوجه ، وفلان ظريفُ الجملة ، حلوُ الشمائل ، ظاهرُ الكَيْس ، قويُّ الدَّسْت[9] فى الشِّطْرَنْج ، حَسَنُ اللّعب فى النَّرْد ، جَيِّدٌ فى الاستخراج ، مدبِّر[10] للأموال ، بَذولٌ للجَهْد ، معروفٌ بالاستقصاء لا يُغضِى عن دانق ، ولا يتغافَل عن قيراط ؛ إلى غير ذلك مما يأنَفُ العالِم من تكثيره ، والكاتبُ من تسطيره .

وهذه كُلها كنايات عن الظلم والتجديف[11]، والخساسة والجهل وقلّةِ الدِّين وحبِّ

---

(1) هذا لقولهم ، اى عيب الناس لابن العميد فى كلامه السابق ، لما يصفونه به من الحكمة والعقل الخ .

(2) افضلوا : انعموا .

(3) فى الأصل « اعتزلوا » . وعالوا ، افتقروا ، من العيلة بفتح اوله .

(4) « قالوا » .

(5) الضرائب ، الطبائع والسجايا ، الواحدة ضريبة .

(6) ثخينة : قوية كما يقال فى عكس ذلك : هو رقيق الدين ، اى ضعيفه .

(7) « وزكحم » .

(8) تاه اهله : هلكوا . وفى الأصل « وباه » .

(9) الدست : الحيلة ، وهو ايضا ما يكون فيه الغلب فى الشطرنج ؛ تقول : « الدست لى والدست على » .

(10) « مثير » .

(11) التجديف : الكفر بنعمة الله . وفى الأصل : والتخويف .

الفساد ، وليس فيها شيءٌ مما قدمنا وصفَه عن القوم الّذين اجتهدوا أن يكونوا خلفاء الله على عباد الله بالرأفة والرِّقةِ والرحمة والاصطناع والعدلِ والمعروف .

وارجعُ عن هذه الشَّكيَّة الطويلة اللاذعة والبليةِ العامةِ الشاملة ؛ إلى عينِ ما رسمتَ لى ذِكرَه ، وكلّفتنى إعادتَه ؛ عائذا بالله فى صَرف الأذى عنى وسَوْقِ الخير إلىّ ؛ ولائذا بكرمك الذى رِشْتَنى[1] به إلى الساعة ، وكفيتَنى به مؤونةَ الخِدمة لغيرك من هذه الجماعة ؛ والأعمالُ بخواتيمها ، والصُّدورُ بأعجازِها ؛ وأنت أولى الناس بالصَّفْح والتجاوُزِ عنى إذا عرفتَ براءتى فى كل ما يتعلق بى من ذمامك ؛ ويجب علىّ من الحقّ فى مودّتك ، والاعتصامِ بحبلك والانتجاع[2] من عُشْبك ،والارتغاءِ[3] من لبَنِك .

الليلة الأولى

وصلتُ أيّها الشيخ ـ أطال الله حياتك ـ أوّل ليلة إلى مجلس الوزير ـ أعزّ الله نصرَه ، وشدَّ بالعصمة والتوفيق أَزْرَه ـ فأمَرَنى بالجلوس ، وبسَطَ لى وجهَه الذى ما اعتراه منذ خُلِق العُبوس ؛ ولَطَّفَ كلامَه الذى ما تَبدل منذ كان لا فى الهَزْل ولا فى الجِد ، ولا فى الرضا .

ثم قال بلسانه الذْليق[4] ، ولفظِه الأنِيق : قد سألتُ عنك مرّاتٍ شيخَنا أبا الوفاء ، فذَكر أنك مراعٍ لأمر البيمارِسْتان من جهته ، وأنا أَرْبأُ بك عن ذلك ، ولَعلّى أعرّضك لشىء أَنْبَهَ من هذا وأَجدَى ، ولذلك فقد تاقت نفسى إلى حضورك للمحادثة والتأنيس ، ولأتعرّفَ[5] منك أشياءَ كثيرةً مختلفة تَرَدَّدُ فى نفسى على مَرّ الزمان ، لا أحصيها لك فى هذا الوقت ، لكنّى أَنثُرها فى المجلس بعد المجلس على قدر ما يَسنح ويَعرِض ، فأجبْنى عن ذلك كلِّه باسترسال وسكونِ بال ؛ بملء فيك ، وجَمِّ خاطرِك ، وحاضرِ عِلمِك ؛ ودَعْ عنك تفنُّنَ البَغداديِّين[6] . . . .[7] مع

---

(١) راشه يرشه : جعل له ريشا . شبه ما بذله له من المعروف بالريش للطائر .

(٢) الانتجاع : طلب المعروف .

(٣) فى الأصل « الارتقاء » بالقاف ؛ وهو تصحيف . والارتغاء : اخذ رغوة اللبن واحتسلؤها .

(٤) اللسان الذليق : الحاد البليغ .

(٥) « ولا تفرق » .

(٦) يريد بتفنن البغداديين : استطرادهم فى الكلام وخروجهم فيه من فن إلى فن .

(٧) هنا كلمة مطموسة بالأصل لا تمكن قراءتها .

عفوِ لفظِك ، وزائد رأيِك ، وربْحِ[1] ذِهنِك ؛ ولا تَجبُنْ جُبْنَ الضُّعفاء ، ولا تتأطّرْ[2] تأطُّرَ الأغبياء ؛ وآجزِم إذا قلت ، وبالِغ إذا وصفت ؛ وآصدُق إذا أُسندْت ، وآفصل إذا حَكَمْت .

الليلة الرابعة

قال لى بعد ذلك فى ليلة أخرى : كيف رضاك عن أبى الوفاء[3] ؟ قلت : أرضى رضًا بأتم شكر وأحمدِ ثناء ؛ أخذ بيدى ، ونظر فى معاشى ، ونشطنى وبشرنى ، ورعى عهدى ، ثم ختم هذا كله بالنعمة الكبرى ، وقلدنى بها القلادة الحسنى ، وشملنى بهذه الخدمة ، وأذاقنى حلاوة هذه المزّية ، وأوجهنى عند نظرائى .

قال : هات شيئا من الغَزَل . فأنشدته :

كلانا سواء فى الهوى غير أنها تـجلّدُ أحيـانـا ومـا بى تـجلّدُ
تخـاف وعيـد الكـاشحين وإنمـا جنونى عليهـا حين أُنْهَى وأُبْعَـدُ

ثم قال : غالب ظنّى أن نصرا غلامَ خواشاذه[4] ما هرب من فِنائى إلا برأيك وتجسيرك ؛ فإنّ ذلك عبد ، ولا جرأة له على مثل هذا النُّدود والشّذوذ ، فقد قال لى القائل : إنّك من خُلْصانِه .

فقلت : والله الذى لا إلٰه إلا هو ما كان بينى وبينه ما يقتضى هذا الأنس وهذا الاسترسال ، إنما كنا نلتقى على زَنبرية[5] باب الجسر بالعشايا وعند البيمارِستان وعلى باب أبى الوفاء ؛ وإنما ركنت إليه لمرقَّعَتِه[6] وتاسومته عندما كنت رأيُته عند

---

(١) ربح ذهنك ، أى فضلته .

(٢) التأطر . التحبس والتثنى . شبه به وقوف الغبى وتردده فى جواب ما يسأل عنه .

(٣) يريد ابا الوفاء المهندس . وهو محمود بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس . مولده ببوزجان من بلاد نيسابور سنة ٣٢٨ . وانتقل إلى العراق سنة ٣٤٨ ، وكان إماماً فى الحساب والهندسة والجبر والفلك . توفى سنة ٣٨٧ كما فى ابن الأثير أو سنة ٣٨٨ كما فى تاريخ الحكماء وهو الذى ألف أبو حيان له هذا الكتاب .

(٤) خواشاذه هو ابو نصرخواشاذه كان فارسيا من كبار رجال شرف الدولة البويهى وكان سفيرا فى الاتفاق وعقد الصلح بين شرف الدولة وصمصام الدولة .

(٥) انظر تفسير هذا اللفظ فى الحاشية رقم ٢ صفحة ٤١ .

(٦) المرقعة : من لبس الصوفية ، لما فيها من الرقع . والتاسومة كلمة شائعة الاستعمال عند العامة فى نوع من النعال البالية يلبسه الفقراء : ولم نجدها فيما راجعناه من كتب اللغة ، كما أنها لم ترد فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الألفاظ العامية والدخيلة .

صاحبه بالرَّىّ سنة تسع وستين وهو متوجه إلى قابوس وجرجان ، فى المذلة الدائمة والحال المربوطة[١] ؛ ولو نَبَس لى بحرف من هذا[٢] ، أو كنت أشعر بأقل شىء منه ، لكنت أقوله لأبى الوفاء قضاءً لحقه ، ووفاءً بما لَه فى عنقى من مننه وخوفا من هذا الظن بى ، وقصورا عن اللائمة لى .

قال : أفما تعرف أحدا تسأله عنه ممن كان يخالطه ويباسطه ؟ قلت : ما رأيته إلا وحده ؛ وكم كان زمان التلاقى ؟ كان أقل من شهر ، أفى هذا القدر يتوكد الأنس وترتفع الحشمة وتستحكم الثقة ويقع الاسترسال والتشاور ؟ هذا بعيد . قال : هذا المتخلفُ[٣] كنتُ قد قرّبْته ورتّبْته ، ووعدته ومنّيته ؛ وتقدمت إلى أبى الوفاء بالإقبال عليه ، والإحسان إليه ، وإذكارى بأمره فى الوقت بعد الوقت ، حتى أزيده نباهة وتقدما ، فترك هذا كلَّه وطوى الأرضَ كأنَّه هارب من حبس ، أو خائف من عذاب .

ويقال فى الأثر : إن بعض الصَّفِيحيِّين[٤] قال : لله قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ، ما أكثر من يفر من هذه الكرامة ، ويَقوى ـ على تَرفٍ جَمٍ ـ على الهوان ، ويصبر على البلاء ، ويَقلَق فى العافية ! إن السجايا لمختلفة ، وإن الطباع لمتعادية ؛ قَلَّما يُرَى شخصان يتشاكلان فى الظاهر إلا يتباينان فى الباطن .

قلتُ : كذلك هو .

قَال : حدِّثنى لِمَ آمتنعت من النفوذ مع آبن موسى إلى الجبل فيما رسَمْنا له أن يتوجّه فيه ؟ ولقد أطلتُ التعجب من هذا وكرّرتُه على أبى الوفاء .

فقلتُ : منعنى من ذلك ثلاثة أشياء : أحدها أن آبن موسى لم يكن من شكلي « ولا أشدَّ للضدّ »[٥] هُونا[٦] من مصاحَبة الضِّد[٧] ، لأنه سَوداوىّ وجَعْد . والآخَر أنّه قيل : ينبغى أن تكون عينا عليه ، وأنا لو قررت لك الحديث لما رأيْته [لائقا[٨]]

---

(١) لعله يريد بالمربوطة فى هذا الموضع ، الواقفة عند حد من الفاقة لا تنتقل عنه .
(٢) من هذا ، اى من امر هربه .
(٣) يريد بالمتخلف : هذا الغلام الآبق ، لتخلفه عن متابعة مولاه .
(٤) الصفيحيون نسبه إلى الصفيح ، وهو من أسماء السماء ، يريد المتعبدين المتعلقة قلوبهم بالعالم العلوى .
(٥) وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى الأصل محرفة لا معنى لها وما أثبتناه هو أقرب الحروف إلى الرسم الوارد فى الاصل ، كما ان سياق الكلام يقتضيه .
(٦) الهون : الذل والهوان .
(٧) « الصك » .
(٨) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ، ولعله يريد انه لو اكتفى بنقل حقيقة الحديث لما كان ذلك لائقا بحاله لما فى هذا العمل من وصفه بالسعاية والوشاية .

بحالى ، فكيف إذا قُرنتُ برجلى باطلىّ[1] لو مرَّ بوهمه أمرى لدَهْدَهَنِى[2] من أعلى جبل فى الطريق . والآخَر أنّى كنت أفِدُ مع هذا كله على آبن عبّاد ـ وهو رجل أساء إلىَّ وأوحشنى ، وحاول على لسان صاحبه آبن شاهويه أن أنقلب إليه ثانيا ؛ وكنت أكره ذلك ، وما كنتُ[3] آمَنُ ما يكون منه ومنى ، والمجنون[4] المطاع ، مهروب منه بالطباع .

وبعد ، فليس لى [حَاجَةٌ][5] فى مثل هذه الخدمة ، لأن صدر العمر خلا منى عاريا من هذه الأحوال ، وكان وسطه أضعفَ حَملا ، وأبعدَ من القيام به والقيام عليه .

فقال : ما كان عندى هذا كله .

قَال : إنّى أريد أن أسألك عن آبن عباد فقد آنتجعتَه وخبرتَه وحضرتَ مجلسه ، وعن أخلاقه ومذْهبه وعادته ، وعن علمه وبلاغته ، وغالبِ ما هو عليه ، ومغلوب ما لديه ؛ فما أظن أنى أجد مثلك فى الخبر عنه ، والوصف له ، على أنى قد شاهدتَه بهَمَذان لَمّا وافى ، ولكنّى لم أَعْجُمْه ، لأن اللُّبث كان قليلا ، والشغلَ كان عظيما ، والعائقَ كان واقعا .

فقلت : إنى رجل مظلوم من[6] جهته ، وعاتبٌ عليه فى معاملتى ، وشديدُ الغيظ لحرمانى ، وإن وصفتُه أَرْبَيْتُ[7] منتصِفا[8] ، وانتصفتُ منه مسرِفا[9] ، فلو كنتُ معتدل آلحال بين الرضا والغضب ، أو عاريا منهما جملة ، كان الوصف أصدق ، والصدق به أَخْلَق ؛ على أنى عملت رسالة فى أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نَفَسى الغزير ، ولفظى الطويلَ والقصير ، وهى فى المسوَّدة ولا جسارة لى على

---

(١) يريد بالباطلى انه ياخذ بالشبهات والظنون الباطلة .

(٢) دهدهه : دحرجة .
(٣) « وما اكتب » .
(٤) « والمجكوت » .
(٥) موضع هذا اللفظ فى الاصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها . وسياق الكلام يقتضى ما اثبتنا او ما يفيد معناه .
(٦) « أمر » .
(٧) اربيت . زدت .
(٨) ورد فى الأصل بعد هذه الكلمة لام وميم : ولعلهما من زيادات النساخ . لاستقامة الكلام بدونهما .
(٩) « مشترقا » . وقد ورد بعد هذه الكلمة فى الأصل حاء وياء · ولعلهما من زيادات النساخ .

تحريرها ، فإن جانبه مَهيب ، وَلمكره دبيب ، وقد قال الشاعر :

إلى أن يَغيبَ[1] المرء يُرجَى وُيتَّقَى ولا يَعلم الإنســانُ مـا فى المغيَّبِ

قال : دع هذا كلَّه ، وآنسخ لى الرسالة من المسوَّدة ، ولا يَمنعنَّك ذاك فإن العين لا ترمقُها والأذنَ لا تسمعها واليدَ لا تنسخها .

وبعد ، فما سألتك إلا وصفه بما جُبِل عليه ، أو بما كسب[2] هو بيديه من خير وشر : وهذا غير منكر ولا مكروه ، لأمر الله تعالى ، فإنه مع علمه الواسع ، وكرمِه السابغ ، يصف المحسن والمسىء ، ويُثنى على هذا ويَنْثُو[3] على ذاك ؛ فآذكر لى من أمره ما خف اللفظ به وسبق الخاطرُ إليه وحضر السببُ له .

قلت : إنَّ الرجل كثيرُ المحفوظ حاضرُ الجواب فصيحُ اللسان ؛ قد نَتَف من كل أدب خفيفٍ أشياء ، وأَخَذَ من كل فن أطرافا ؛ والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزِلة ، وكتابته مهجَّنة بطرائقهم ، ومناظَرته مشوبة[4] بعبارة الكتاب ؛ وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقِى والمنطق والعَدد ؛ وليس [عنده][5] بالجزء الإلهِى خبر ، ولا له فيه عين[6] ولا أثر ؛ وهو حَسَن القيام بالعَروض والقوافى ؛ ويقول الشِّعر ، وليس بذاك ؛ وفى بديهته غزارة . وَأمارويته[7] فخوارة ؛ وَطالِعُهُ الجوزاء ، وَالشِّعْرى قريبة منه ؛ ويتشيع لمذهب أبى حنيفة ومقالِة الزيدية ، ولا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة ، والناس كلُّهم محجمون عنه ، لجرأته وسلاطته واقتدارِه وبسطتِه ؛ شديد العقاب طفيفُ الثواب ، طويلُ العتاب ؛ بذىء اللسان ؛ يُعطِى كثيرا قليلا (أعنى يعطى الكثيرَ القليل) ، مغلوبٌ بحرارة الرأس ، سريعُ الغضب ، بعيد الفيْئَة[8] قريبُ الطِّيَرة ، حسودٌ حقودٌ حديد ، وحسدُه وقفٌ على أهل الفضل ، وحِقْدُه سارٍ إلى أهل

---

(١) يغيب ، أى يموت . وفى الأصل « يعيش » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .
(٢) « كتب » بالتاء .
(٣) « ينثو على ذلك » ، أى يخبر عنه بذنوبه . يقال : « ثنا على فلان ذنوبه » ، إذا أخبر بها عنه وأشاعها .
(٤) كذا فى معجم الأدباء . والذى فى الأصل « مسترقة » .
(٥) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل : ومكانها كلمة مطموسة تتعذر قراءتها .

(٦)« جبن ولا إبر » .
(٧)كذا فى معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٧٦ الطبعة الأولى . والذى فى الأصل : « بديهته » ولا يستقيم مع العبارة السابقة .
(٨) « النية » . والتصحيح عن معجم ياقوت . والفيئة : الرجعة .

الكفاية ؛ أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، وأمَّا المنتجِعون[1] فيخافون جفوته ؛ وقد قَتَل خَلْقا ، وأهلك ناسا ، ونَفَى أُمّة ، نخوةً وتعنُّتا وتجبُّراوزَهْوا ؛ وهو مع هذا يخدعه الصبى ، ويَخلُبه الغبى ؛ لأن المَدخَل عليه واسع ، والمأتَى إليه سهل ؛ وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أُعارَ شيئا من كلامه ، ورسائلِ منثوره ومنظومِه ؛ فما جُبْتُ الأرض إليه[2] من فَرْغانةَ ومصرَ وتفليسَ إلا لأستفيد كلامَه وأُفْصُحَ به ، وأتعلم البلاغَة منه ؛ لكأنّما رسائل مولانا سُوَر قرآن ، وفِقَرُه فيها آيات فرقان ؛ وآحتجاجُه من آبتدائها إلى آنتهائها برهان فوقَ برهان ؛ فسبحان من جَمَع العالَمَ فى واحد ، وأبرز جميع قدرتِه فى شخص .

رسالتان كتب بهما المؤلف الى الوزير

أما الرسالة الأولى :

بسم الله الرحمن الرحيم : اللهمّ حَلِّنى بالتوفيق ، وأيِّدْنى بالنُّصْرَة ، وآقرِنْ مَنْطِقى بالسَّداد ، واجعل لى مِن الوَزير وزير المَمالِكِ عُقْبَى فارِجَةً[3] من الغُمَم ، وخاتمةً موصولةً بالنجاح ، فإنك على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير .

كنتُ وصلتُ إلى مجلسِ الوَزير ، وفُزْتُ بالشَّرَفِ منه ، وخدمت دولته ، وعلاه من صدرى بخَبِيئَتِه ، ومن فؤادى بمحِيضته ، وتصرفتُ من الحديث بإذْنِه فى شُجونِه وفُنونِه ، كلُّ ذلك آمِلًا فى جَدْوَى آخُذُها ، وحُظْوَةٍ أَحْظَى بها ، وزُلْفَى أَمِيسُ معها ، ومَثالةٍ أُحْسَدُ عليها ؛ فتقبَّل ذلك كلَّه ، ووَعَدَ عليه خيرًا ولمْ يزَلْ أَهْلَه ، وانقَلَبْتُ إلى أهلى مَسرورًا بوَجْهٍ مُسْفِر ، ومُحَيًّا طَلْق ، وطَرْفٍ عازم[4] ، وأَمَلٍ قد سَدَّ ما بين أُفُقِ العراق إلى صَنْعاءِ اليَمن ، حتّى إذا قلتُ للنفس : هذا مَعانُ الوَزير ومَعْمَرُه ، وجَنابُه ومَحضَرُه ، [فانشرحى مستفتِحَة ، وتيمنى مقترحة ، وآطمئنّى راضيةً مرضيّة ،

---

(١) « المنكجفون » .
(٢) « إلا من فرغانة » ، وقوله « إلا » زيادة من الناسخ .
(٣) فى (١) : « نازحة » : وهو تحريف .
(٤) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصول ولعلها تحريف إذ لم نتبين معنى وصف الطرف بهذا الوصف .

لا كدرَةَ الشُّرْب ، ولَا مذعورةَ السِّرْب] ، حَصَلْتُ من ذلكَ الوَعد والضمان ، على بعض فَعَلات الزمان ؛ ولا عَجَب فى ذلكَ من الزمان فهو بمثله ملىء ، وله فَعُول .

وبَقيتُ محمولاً بينى وبَين إذكارِه ـ قَرَنَ الله ساعاتِه بسعاداتِه ، ووَصَلَ عِزَّ[1] يومه بسعادةِ غَدِه ؛ وغَدَه بامتِدادِ يَده ـ حيرانَ لا أَرِيش ولا أبرى ، ثم رفعتُ ناظِرى ، وسَدَّدْتُ خاطرى ، وفصّلتُ الحسابَ لى وعَلَىّ ؛ فوَضَحَ العذرُ المبينُ ، المانِعُ من استزادة المستزيدين ، وذلكَ أنى رأيتُ أعباءَ الوزارةِ تؤودُ[2] سِرَّه ، وتُتعِبُ[3] بالَه ، والمملكةَ تَفْزَعُ ولْهَى عليه ، وتُلقِى بجِرَانِها[4] له بين يديه ، والدولة تَسْتَمِدُّه التدبيرَ الثاقب ، والرأْىَ الصائب ، سِوى أمورٍ فى خلاف ذلكَ لا يحررها رسمُ راسم ، ولا يقرِّرها قَسْمُ قاسِم ، ولا يَحْوِيها وهمُ واهمٍ ، ولا يَفوزُ بها سَهْمُ مُساهِم ، وهو يخطر فى حواشى هذِه الأحوال ، متأبِّطا بَواهظ الأثقال ، مفتَتِحاً عَوِيصَ الأقفال[5] ، فسيحَ الصَّدْر ، بَسَّامًا على العِلّات ، غيرَ مُكترِث بهاكَ وهاتِ ، يَتَلقَّى ما أَعْيَا مِنْ ذلك باللَّىّ[6] ، وما أَشْكَلَ بالإيضاح ، وما عَسُرَ بالتدبير ، وما فَسَدَ بالإصلاح ، وما أَرِقَّ بالعِتْق ، وما خُرِق بالرَّتْق ، وما خَفِىَ بالتكشيف ، وما بَدَا بالتصريف ، وما أوِدَ بالتثقيف ، وما لَبَس بالتعريف ، حتى أَجْمَعَ على هَوَاهُ قاصيها ودانِيها ، وجَرَى عَلَى مُرَادِه خافِيها وباديِها ، واستجابَ لأمْرِه أبيُّها ومُنقادُها ، وأْتَلَفَ بَلفْظِه نادِرُها ومُعْتادُها ؛ فلمّا تيقَّنْتُ[7] ذلك كله وقتَلْتُه خُبْرًا ، أمسكت عن إذكارِه ـ نَفَّس الله مُدَّته ـ سالِفَ عَهْدِه ، ومتقدِّمَ وَعْدِه ، عالمًا بأنَّ أَسَرَّهما[8] مَرْعِىٌّ عنده فى صَدْرِ الكَرَم ، ومَكتوبٌ لديه فى صَحِيفِة المجد ، وثابتٌ قِبَلَهُ فى دِيوانِ الحُسْنَى .

ولكنْ كان ذلك الامتنان[9] عَلَى رَغْمٍ منى[10] ، لأنى قتلتُ فى أثنائِه بين جَنْبَىَّ قلباً

---

(1) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « عن » مكان « عز » وهو تحريف .
(2) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام « تود » ؛ وهو تحريف .
(3) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام « وتستعين » مكان « وتتعب » ؛ وهو تحريف
(4) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام « بحرانها » وهو تصحيف

(5) فى الأصول « الافعال » ؛ وهو تصحيف .
(6) فى كلتا النسختين : « بالكى » بالكاف ؛ وهو تحريف لا معنى له هنا . ولعل صوابه ما أثبتنا .
(7) فى الأصل « نفثت » وهو تحريف .
(8) فى كلتا النسختين « ايسرهما » ؛ والياء زيادة من الناسخ .
(9) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصول ؛ ولا معنى للامتنان هنا ، ولعل صوابه الكتمان أو « الإمساك » أو ما يفيد ذلك اخذاً من قوله قبل : فأمسكت عن إذكاره .
(10) فى (أ) على زعم من ابى فلبث إلى انيابه . مكان قوله على رغم منى لأنى قتلت فى أثنائه .

مَغْرُورَ الرَّجاء ، ومَنْزُورَ العَزاء ، عَلَى عَوارِضَ لم تَسْنَح فى خَلَدِى ، ولم أَعْقِدْ عَلَى شىء منها يَدِى .

فالحمدُ لله الذى جعل مَعاذِى إلى الوزير الكريم ، البَرِّ الرَّحيم ، والمنَّة لله الذى جعلنى من عُفاةِ جُوده ، وناشِئة عُرْفِه ، ووَارِدِ عِدِّه ، وقادِحِى زَنْده ، ومُقْتَبِسِى نُورِه ، ومُصْطَلِى نَارِه ، وحامِلِى نِعْمَتِه ، وطالِبِى خِدْمَتِه ، وجَعَلَ خاصَّتِى وخالِصَتِى من بينهم روايةَ مَناقِبِه باللِّسانِ الابْيَن ، ونَشْرَ فضائلِهِ بالثَّناءِ الأحْسَن ، وذِكْرَ آلائه باللَّفظِ الأفْصَح ، والاحتِجاجَ لسَدادِ آرائِهِ بالمعْنَى الأوْضَح ؛ فلازَالَ الوَزيرُ - وزيرُ الممالك - مَمْدُوحًا فى أَطْوَارِ الأَرْض على أَلْسِنَةِ الأدباءِ والحكماء ، وفى نَوادِى الرُّؤساءِ والعُظماء ، ما آب آئب[1] ، وغابَ غائب ، بمَنِّه ولُطْفِه .

قد نَادَيْتُ الوزيرَ حَيًّا سامِعًا ، وخيرًا جامعًا ، وهَزَزْتُ منه صارمًا قاطِعًا ، وشِهابًا ساطِعًا ، واستَسْقَيْتُ من كرَمِه سَحابًا هاطلاً ، ونُقاخا[2] سائلاً ، وأسألُه أن يُجَنِّبَنى مرارةَ الخَيْبَة ، وحَسْرَةَ الإخفاق ، وعذابَ التَّسْويف ، فقد تلَطَّفْتُ بالسِّحْرِ الحلال ، والعَذْبِ الزُّلال ، وجُهْدَ المُقِلِّ المحتال ، وهو أَوْلَى بَمجْدِه ، فى تَدْبير عَبْدِه ، إن شاء الله تعالى .

هذا آخرُ الرِّسالة الأولَى .

***

وحَضَرَ وُصُولَها إليه بهرام - لعنه الله - وتكلم بما يشبه نذالتَه وخِسَّته ونَتْنَ نِيَّتِه ، فما كنتُ آمَنُه[3] ؛ وما أَشَدَّ إشفاقى على هذا الوَزير الخطير من شؤمِ نَاصِيَةِ بْهرام ، وغِلِّ صَدْرِه ، وقلَّةِ نَصِيحتِه ، ولؤمِ طَبْعِه ، وخُبْثِ أَصْله ، وسُقُوطِ فَرْعِه ، ودَمامةِ مَنْظَره ، ولآمِة مَخْبَره ؛ حَرَسَ الله العبادَ من شرِّه ، وطهَّرَ البلاد من عُرِّهِ وضُرِّه .

---

(١) فى كلتا النسختين : « وغلب غالب » : وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .
(٢) ورد هذا اللفظ بالياء والفاء ؛ ولعل صوابه ما اثبتنا .
(٣) فى كلتا النسختين : « آمله » بالام . وهو تحريف . والسياق يقتضى ما اثبتنا .

الرسالة الثانية

وأما الرسالة الثانية فهى التى كانَتْ فى هذه الأيام بعد استِئذانى إيّاهُ فى المخاطبةِ بالكاف ، حتّى يَجْرِىَ الكلامُ على سَنَنِ الاسْتِرْسال ، ولا يُعْثَرَ فى طريقِ الكتابةِ بما يزاحَمُ عليه من اللَّفْظِ واللّفظ ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم . أيُّها الوزير ، جَعَلَ الله أَقْدارَ دَهْرِكَ جارِيَةً على تَحَكُّم آمالِك ، ووَصَل توفيقَه بمَبالِغ مُرادِكَ فى أقوالِك وأفعالِك ، ومكَّنَكَ مِنْ نَواصى أعدائك ، وثبَّتَ أَوَاخِىَ دَوْلَتِكَ على ما فى نُفُوسِ أوليائك .

يَجِبُ على كلِّ مَن آتاه الله رأياً ثاقِباً ، ونُصْحاً حاضراً ، وتنبُّها نافعاً ، أن يَخْدُمَكَ مُتحرِّياً لرُسوخِ دعائم المَمْلكة بسِياسَتك ورِيادَتِك[1] ، قاضياً بذلك حقَّ الله عليه فى تَقْوِيَتِكَ وحِياطَتِك . وإنى أَرَى عَلَى بابِكَ جماعةً ليست بالكثير - ولعلَّها دُونَ العَشَرَة - يُؤْثِرُون لِقاءَك والوُصول إليك لما تُجِنُّ صدورُهم من النصائحِ النافعةِ ، والبلاغاتِ المُجْدِيَةِ ، والدَّلالات المُفيدة ، ويَرَوْنَ أنَّهم إذا أَهَّلُوا لذلك فقد قَضَوْا حَقَّك ، وأَدَّوْا ما وَجَبَ عليهم من حُرْمَتِك ، وبَلغوا بذلك مُرادَهم من تَفَضُّلِكَ وآصطِناعِك ، وتقديمِكَ وتكريمك ؛ والْحِجابُ قد حالَ بينَهم وبينَك ، ولكلٍ منهم وسيلةٌ شافعةٌ ، وخدِمْةٌ للخَيْراتِ جامعةٌ ؛ منهم - وهو أهل الوفاء - ذَوُو كفايةٍ وأمانةٍ ، ونَباهةٍ ولَباقة ؛ ومنهم مَن يَصْلُحُ للعَمَل الجليل ، ولِرَتْقِ الفَتْقِ العَظيم ؛ ومنهم مَن يُمتِعُ إذا نَادَم ، ويَشْكُرُ إذا آصطُنِع ، ويَبْذُلُ المجهودَ إذا رُفِع ؛ ومنهم مَن يَنْظِمُ الدُّرَّ إذا مَدَح ، ويُضْحِكُ الثَّغرَ إذا مَزَح ؛ ومنهم مَن قَعَدَ به الدَّهْرُ لِسِنِّه العالية ، وجَلابِيبِه البالية ، فهو مَوْضِعُ الأَجْرِ المَذْخُور ، وناطِقٌ بالشُّكرِ المنظومِ والمَنْثور ؛ ومنهم طائفةٌ أُخرى قد عَكَفوا فى بُيوتِهم عَلَى ما يَعْنِيهم من أحوال أنفسهم ، فى تَزْجِيَةِ عَيْشهم ، وعِمارةِ آخِرَتِهم ، وهمْ مع ذلك مِنْ وَراءِ خَصَاصةٍ مُرَّة ، ومُؤَنٍ غليظة ، وحاجاتٍ متوالية ؛ ولهم العِلْمُ والحِكمةُ والبَيانُ والتَّجرِبَةُ ، ولو وَثِقوا بأنَّهم إذا عَرَضوا أنفُسهم عليك ، وجَهَّزُوا ما مَعَهم من الأدبِ والفَضْلِ إليك حَظُوا منك ، وآعتزُّوا بك ، لَحَضَرُوا بابَك ، وجَشِمُوا المَشقّة إليك ؛ لكنَّ اليأسَ قد غَلَبَ عليهم ، وضَعُفَتْ مُنَّتُهم ،

---

(١) فى كلتا النسختين : « وزيادتك » بالزاى المعجمة : وهو تصحيف .

وعُكِس أمَلُهم ، ورأَوْا أن سَفَّ التراب ، أخفُّ من الوُقوفِ على الأبواب ، إذا دَنَوْا منها دُفِعوا عنها ؛ فلو لَحظْتَ هؤلاءِ كلَّهم بفضْلِك ، وأَدْنَيْتَهم بسَعَةِ ذَرْعِك وكَرَمِ خِيمِك ، وأَصْغَيْتَ إلى مَقالتِهم بسَمْعِك ، وقابَلْتَهُم بمِلْءِ عَيْنِك ، كان في ذلك بقاءٌ للنعمةِ عليك ، وصِيتٌ فاشٍ بذِكرِك ، وثوابٌ مُؤَجَّلٌ[1] في صَحِيفَتِك ، وثناءٌ معجَّلٌ عند قَريبِك وبَعيدِك ؛ والأيامُ مَعْروفةٌ بالتقلّب ، واللَّيالي ما خِضَةٌ بما يَتَعَجَّبُ منه ذو اللُّبّ ، والمَجْدُودُ مَنْ جُدَّ في جَدّه ، أَعني من كان جَدُّه في الدُّنيا مَوْصولاً بحظِّه من الآخِرة ، ولَأَنْ يُوكلَ العاقلُ بالاعتبارِ بَغيرِه ، خيرٌ مِنْ أن يُوكلَ غَيْرُه بالاعتبارِ به .

أيُّها الوزير ، اصطِناعُ الرِّجالِ صِناعةٌ قائمةٌ برأسِها ، قَلَّ مَنْ يَفِي برَبِّها[2] ، أو يَتَأَتَّى لها ، أو يَعْرِفُ خلاوَتَها ، وهي غيرُ الكتابةِ التي تتعلَّقُ بالبَلاغَةِ والحِساب .

وسَمِعْتُ ابنَ سُورين يقول : آخِرُ مَنْ شاهَدْنَا ممَّنْ عَرَفَ الاصطِناع ، واستَحلى الصَّنائع ، وارتَاحَ للذِّكْرِ الطَّيِّب ، واهتز للمَديح ، وطَرِبَ على نَغْمَةِ السائل ، وآغْتَنَمَ خَلَّةَ المحتاج ، وآنتَهَبَ الكَرَمَ انتهابا ، وآلتَهَبَ في عِشْقِ الثَّناء آلْتِهابا ، أبو محمد المُهَلَّبي ، فإنه قَدَّمَ قَوْمًا ونَوَّه بهم ، ونَبَّهَ على فضلِهم وأَحْوَجَ الناظِرين في أَمْرِ المُلْكِ إليهم ، وإلى كفايتهم ، منهم أبو الفَضْل العبّاسُ بنُ الحُسين ، ومنهم ابنُ معروف القاضي ، [ومنهم أبو عبدالله اليَفُرَنّي] ، ومنهم أبو إسحاق الصابيء ، وأبو الخطاب الصابيء ، [ومنهم أحمد الطَّويل ، ومنهم أبو العَلاء صاعد ، ومنهم أبو أحمد بنُ الهَيْثَم ، وابنُ حَفْصٍ صاحبُ الديوان] ، وفلان وفلان ، هؤلاء إلى غير هؤلاء[3] ، [كأبي تمّام الزَّينبّي ، وأبي بكر الزهريّ] ، وابن قريعة ، وأبي حامد المَرْوَرُّوذِي ، [وأبي عبدالله البَصرى] ، وأبي سَعيد السِّيرافي ، [وأبي محمد الفارسي] ، وابن دُرُسْتَويه ، [وابن البقال] ، وَالسَّرِيُّ ، ومَنْ لا يُحْصَى كثرةً من التّجارِ والعُدُول .

وقال لي [ابنُ سُورين] : كان أبو محمد يَطْرَبُ على آصطناع الرِّجال كما يَطْرَبُ

---

(١) في الأصول « بوجد » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد « معجل » .
(٢) في (أ) : « يسقى تربها » مكان « يفي بربها » . وفي (ب) . « بربها » بالياء المثناة : وهو تصحيف في كلتا النسختين . يقال : رب الصنيعة يربها ـ بضم الراء ـ إذا نماها وتعهدها .

(٣) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام . « هذا إلى غير هذا » .

سامِعُ الغِناء على الشَّبابِير[1] ، ويَرْتَاحُ كما يَرْتَاحُ مُدِيرُ الكأس على العشائر . وقال عنه : [إنَّه] قال : والله لأكونَنّ في دولة الدَّيلم ، أول مَن يُذْكَر ، إنْ فاتنى أنْ كنتُ فى دَوْلةِ بنى العَبّاس آخِرَ مَنْ يُذْكَر .

فلولا أنكَ ـ أدامَ الله دَوْلَتكَ ـ أَذِنْتَ لى أن أَكْتُبَ إليكَ كلَّ ما هَجَس فى النْفس ، وطَلَعَ به الرّأى ممّا فيه مَرَدٌّ على ما أنْتَ فيه من هذا الثِّقْلِ الباهِظ ، وتنْبِيهٌ على ما تُباشِرُه بكاهِلِكَ الضَّخْم ، لم يَكُنْ خَطرى يَبْلُغُ مُواجَهَتَكَ بَلفْظٍ يَثْقُل ، وإشارَةٍ تَغْلُظ ، وكنايةٍ تَخْدِش[2] ، لكنّكَ والله يأخُذُ يَدك ، ويَقْرِنُ الصنعَ الجميلَ بظاهِرِكَ وباطنك قد رَخَّصْتَ لى فى ذلك ، وخَصَصْتَنى به من بين غاشِيَةِ بابِك ، وخَدَمِ دَوْلَتِك ، فلذلك أقولُ ما أقولُ معتمداً على حُسْنِ تَقَبُّلِك[3] ، وجميلِ تكفّلِك[4] ، ومُنْتَظِرٍ تفضُّلِك ؛ وليس فى أبوابِ السِّياسةِ شيءٌ أَجْدَى وأَنفع ، وأَنفى للفَسادِ وأقمع ، من الاعتبارِ المُوقِظِ للنفس ، الباعثِ على أَخْذِ الحَزْم ، وتَجْرِيد العَزْم ؛ فإنّ الوِكالَ[5] والهُوَيْنَا قلّما يُفْضِيَان بصاحِبهما إلى دَرْكِ مأمول ، ونَيْلِ مراد ، وإصابة مُتَمَنّى . وقد قال رجُلٌ كبيرُ الحِكمة ، مَعْرُوفِ الحُنْكة : المُعْتَبَرُ كثير ، والمعتبِر قليل . وصَدَق هذا الرَّجُل الصالح ، وهو الحَسَنُ البَصرىّ :

لو آعتَبَرَ من تأخّر بمن تَقَدَّم ، لم يَكُنْ من يَتحسَّر فى الناس[6] ويَنْدَم ، ولكنّ الله بَنَى هذه الدار على أن يكونَ أهْلُها بين يَقظةٍ ونَوْم ، وبين فَرحٍ وتَرَح ، وبين حَيْطةٍ[7] ووَرْطَة ، وبين حَزْمٍ وغَفْلة ، وبين نِزاعٍ وسَلْو ، لكنَّ الآخِذَ بالحَزْم ـ وإن جَرَى عليه مكْرُوه ـ أعذَرُ عند نَفْسِه وعند كلٍّ من كان فى مَسْكه ، مِنَ المُلْقِى بيَدِه ، والمُتَدلّى بغُرُورِه ، والساعِى فى ثُبُورِه ؛ وما وَهَبَ الله العَقْلَ لأحَدٍ إلا وقد عَرَّضَه للنّجاة ، ولا حَلاَّه بالعَلم إلاَّ وقد دَعاه إلى العَمَل بشرائطه ، ولا هداه الطريقين (أَعْنى الغَىَّ والرُّشْدَ) إلا ليزْحَفَ إلى أحدِهما بحُسْنِ الاختيار .

(١) فى كلتا النسختين . « الستاير » : وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام . والشبابير . جمع شبور ، وهو من آلات الموسيقى .
(٢) فى كلتا النسختين : « تخرس » : وهو تحريف صوابه ما اثبتنا كما يقتضيه سياق ما قبله .
(٣) فى كلتا النسختين : « تقلبك » : وهو تحريف .
(٤) فى (ب) : « تكلفك » : وهو تحريف .
(٥) ف (ا) : « الوكان » بالنون . وفى (ب) . « الوكاك » بالكاف ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .
(٦) فى (ب) : « فى الدنيا » .
فى كلتا النسختين : « غبطة » : ولعله تحريف . إذ الغبطة لا تقابل الورطة . والذى يقابلها الحيطة كما اثبتنا .

هذا بالأمْسِ أبو الفَضْل العبّاسُ بنُ الحُسَين الوزير ـ وهو في وزارَتِه وبَسْطَةِ أمره ونَهْيِه ـ قيل له ذاتَ يوم : هذا التركي ساسنكر[1] تَفيَّأ بظِلّه ، واعتصِمْ بحَبْله ، واستَسْق بسَجْله ، وارتَوِ من سُؤْرِه ، ولا يَبْلُغْه عنك ، ما يوحِشُه منك ، ويُجْفِيه[2] عليك . وقد قيل :

★ آسجُدْ لِقِرْدِ السُوْءِ في زمانه ★

وإذا لم تَقْدِر على قَطْعِ يَدٍ جائرةٍ ، فَقبِّلها مُتْهِمَةً[3] مُنجِدَةً غائرة . فلم يَفْعَلْ ، حتى وَجَدَ أعداؤه طرِيقاً إليه ، فسلكوه وأوْقعوه .

ثم قيل له في الوزارة الثانية : قد ذُقْتَ مَرارةَ النَّكبة ، وتحرَّقتَ بنارِ الشماتة ، وتأرَّقتَ على فرَطاتِ[4] العَجْز والفَسالة ، وقد كان من ذلك كلِّه ما كان ، ودارَ لك بما تمنَّيْتَ[5] الزّمان ؛ فآنظُرْ أين تضَعُ الآنَ قَدَمَك ، وبأيِّ شيءٍ تُدِيرُ لِسانَكَ وقَلمك ، فإنّ مُخلِّصَك من وَرْطَتِك بالمِرْصاد ، وقد وَعَدْتَ مِنْ نَفْسِك إنْ أعاد الله يَدَكَ[6] إلى البَسْطة ، وردَّ حالَكَ إلى السرورِ والغِبْطة ، أنّكَ تُجْمِل المعامَلة ، وتَنسى[7] المقابلة ، وتَلقَى ولِيَّك وعدوَّك بالإحسان إلى هذا ، والكف عن هذا ، حتى يَتَساوَيا بنَظَرِك ، ويَتَعبَّدَا لك بتفضُّلك .

فكان من جوابه ما دَلَّ على عتوِّه وثَباتِه[8] ، لأنّه قال ؛ أمَا سَمِعْتُم الله تعالى حيث يقول : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ [وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ؟

وقال لي القُومَسيّ[9] ـ ولم يَعْلَم ما في فَحْوَى هذا الكلام ـ : ماذاك ؟ قلتُ :

---

(١) لم نجد هذا الاسم فيما راجعناه من معجمات الأعلام التركية : والذى وجدناه « سنجر » بالسين والجيم وبلا سين والف فى أوله .

(٢) فى (أ) : « ويخيفه » : وهو تحريف .

(٣) فى كلتا النسختين « بهمه » وهو تحريف .

(٤) فى كلتا النسختين « فطرات » : والظاهر أن فى حروفه قلبا وقع من الناسخ . كما أن فى كلتا النسختين : « وارقت » مكان « وتأرقت » : وما أثبتناه أولى للملاءمة بينه وبين قوله قبل : « وتحرقت » .

(٥) فى (ب) : « ظننت » : والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٦) فى (ب) : « أعاد الله بك أيامك البسيطة » : وفى بعض كلماتها تحريف لا يخفى

(٧) كذا فى (أ) . والذى فى (ب) : « وتسيء » وهو تحريف . وتنسى المقابلة . أى لا تقابل الذنب بما يستحقه من عقوبة بل تعفو .

(٨) وثباته . أى ثباته على ما كان عليه من سوء السياسة .

(٩) فى كلتا النسختين . المسيء » : وهو تحريف ما ترى . صوابه ما أثبتنا .

فحواه ولو عادوا إلى ما نُهُوا عنه لعُدْنا] إلى مُقابَلتهم بما آستَحقُّوا عليه .

وصدق ما قال الله عزَّ وجَلّ ، مالَبِثَ ذلك الإنسانُ بعدَ هذا الكلامِ إلاّ قليلاً حتى أَوْرَدَه[1] ولم يُصْدِرْه وأَعْثَرَه ولم يُنْعِشْه ، وسَلَّمَ إلى عدوِّه حتّى آسْتَلَّ رُوحَه من بين جَنْبَيْه ، شافيًا به ومُشْتَفِيًا منه ، وكان عاقِبةُ أمْرِهِ خُسْرًا ، ولو اتقى الله لكانَ آخِر أمْرِهِ يُسْرًا . والله المستَعان .

وهذا بَعْدَه محمد بنُ بَقِيَّةَ طَغَى وبَغَى ، واقتَحَمَ ظلماتِ الظُلْمِ والعَسْف ، وطاربجناحِ اللّهْوِ والعَزْف ، والشُّرْب القَصْف ، ومَلَّ نِعْمَةَ الله عليه ، وضَلَّ بين إمْهالِ الله وإمْلائه ، فحاقَ به ما ذهبَتْ عليه نَفْسُه ومالُه ، وخُرِّبَ بَيْتُه ، وافتَضَحَ أَهْلُه ، وكيف كان يَسْلَم ؟ أم كيف كان يَنْجو وقد قَتَلَ ابنَ السَّرَّاج بلا ذَنْب ، والجَرْجَرائيَّ[2] بلا حجّة ، وضرَبَ ابن مَعْرُوفٍ بالسِّياط وأبا القاسم ـ أخاً لأبى محمد القاضى ـ وشَهَّرَهُ على جَمَلٍ فى الجانِب الشرْقِى ؟!

والتَّشفِّى حُلْوُ العَلانِيةَ ، ولكنَّه مُرُّ العاقبة ، وكأنَّ الحَفِيظةَ إنما خُلِقَتْ لِتُعْتَقَد[3] ، والحقدَ إنما وُجِدَ لِيُبْلَغَ به ما يَسُرُّ الشيطان .

وكأنَّ العفوَ حرَام ، والكَظْمَ[4] محظور ، والمكافأةَ مأمورٌ بها .

وهذا بالأمْسِ علىُّ بنُ محمد ذو الكفايَتَين ، اغترَّ بشَبَابه ، ولَهَا عن الحَزْمِ والأخْذِ به فيما كان أَوْلَى به ، وظَنَّ أنَّ كِفايَتَه تَحْفَظه ، ونَسَبَه مِنْ أبيه يَكْنُفُه ، وبَراءَتَه تَحْتَجُّ له ، وذنوبَه الصغيرَةَ تُغْتَفَر ؛ لِبَلائه المذكور ، وغَنائه المشهور ؛ ومَشَى فعَثَر ، ورابَ[5] فخثُر ، والأوَّلُ يقول :

مَن سابَقَ الدَّهرَ كبا كَبْوَةً لم يَستَقِلْها آخِرَ الدَّهْرِ
فاَخْطُ مع الدَّهرِ إذا ما خَطَا وآجرِ مع الدَّهْرِ كما يَجْرى

وقال لى الخليل ـ وكان لطيفَ المَحَلِّ عنده ، لِما كان يَرَى من آختصاصِ أبيه له ، ولِما يَظْهَرُ من فَضْله عندَه ـ : قلتُ له يوماً : يا هذا ، فى أىِّ شىءٍ أنت ؟! وبأىِّ

---

(١) أورده ولم يصدره فاعل الفعلين ضمير يعود على الكلام السابق ذكره . أى ورده كلامه الخ .

(٢) فى (ا) : « الجرجانى » .
(٣) فى (ا) : « لتعتد » . وفى (ب): « لتنفذ » : وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .
(٤) فى كلتا النسختين : « واللطم » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى (ا) : « وداب فخسر » . وفى (ب) : « وذاب فخثر » : ولعل الصواب ما أثبتنا .

شيءٍ تَعَلَّلُ ؟! وقد شُحِذَت المَوَاسى ، وحُدِّدت الأنياب ، وفُتِلت المَرائر[1] ، ونُصِبَت الفِخاخ ، والعيونُ مِحَدِّقَةٌ نحوَ القَطِيعة ، والأعناقُ صورٌ[2] إلى الفَظِيعة ، وأنتَ لاهٍ ساهٍ عمّا يُرادُ بك بَعْدُ ؛ يَسْبِيكَ[3] هذا المزرفن[4] وهذا المُرْجِى[5] وهذا المُعَرَّض[6] ، وهذا الحَليق ، وهذا النَّتِيف ، وهذا المعقربُ الصُّدغ ، وهذا المَصْفُوف الطُّرّة ، وبالكاس[7] والطاس ، والغِناء والقَصْف ، والناي والعُود ، والصَّبوح والغَبُوق ، والشرابِ المُرَوَّق العتيق ؛ والله ما أَدْرِى ماأَصْنَع ، إن سَكَتُّ عنك كَمِدْتُ ، وإن نَصَحْتُك خِفْتُ منك ؛ ونَعُوذُ بالله من اشتِباهِ الرأى ، واشتباكِ الأمر ، وقِلَّةِ الاحتراس ، والإعراضِ عمّا يَجرِى من أفْواهِ الناس .

ياهذا ، سُوءُ الاستمساكِ خيرٌ من حُسْنِ الصَّرْعة ، وتَلَقِّى الأمرِ بالحزمِ والشهامةِ أَوْلَى من استِدباره بالحَسرةِ والنَّدامة ، ومَنْ لا تَجْرِبَةَ له يَقْتَبِسُ مِمَّنْ له تَجْرِبَة ، فإذا نَقِبَ الخُفُّ دَمِىَ الأظَلّ . فقال : قد فَرَغ الله مِمَّا هو كائن ، وإذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً ولا يَسْتَقْدِمُون .

قال : قلتُ له : ما أَطْلَعكَ الله على كائنات الأمور ، ولا أَعْلَمَكَ بعواقب الأحوال ، وإنما عَرَّفَكَ حَظَّك بَعْدَ أنْ[8] وَفَّرَ عَقْلَك ، وأَحْضَرَكَ استطاعَتَك ، وأَوْضَحَ ، لِقلبِكَ ما عَلَيْكَ ولك ، حتَّى يَستَشِفَّ ويَسْتَكْشِف ، ومَلَّكَكَ النَّواصىَ حتَّى تَمُنَّ[9] وتُرْسِل ، وما طالَبَكَ إلاّ بعد أن أَزَاحَ عِلَّتَك ، ولا عاقَبَكَ إلاّ بعد أن أَنْذَرَكَ وأَنْظَرَك ، وبمِثْلِ هذا تُطالِبُ أنت مَن هُوَ دُونَكَ مِنْ خَدَمِكَ وحَشَمِك ، وأَوْلِيائِك

---

(1) فى (ا) : « وقبلت » . وفى (ب) : « وقتلت » ؛ وهو تصحيف فى كلتا النسختين . وفى (ا) : « المدابر » مكان « المرائر » ؛ وهو تحريف أيضا . والمرائر : الحبال ، جمع مريرة .

(2) صور ، أى مائلة . إلى الفظيعة ، أى إلى النكبة الفظيعة . وفى كلتا النسختين : « العظيمة » . وما أثبتناه هو ما يستقيم به السجع الذى التزمه المؤلف فى بعض فقراته .

(3) فى (ا) : « يعدر تشبثك » . وفى (ب) : « يعد بسبيك » : وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(4) المزرفن الذى يجعل صدغيه كالزرفين ، وهى الحلقة .

(5) كذا فى (ب) والذى فى (ا) « المزرجن » ، ولا معنى له هنا .

(6) المعرض بتشديد الراء الذى نبت شعر عارضيه . كما يقال عذر الغلام بتشديد الذال إذا نبت شعر عذاره .

(7) وبالكاس متعلق بقوله قبل . « لاه » .

(8) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « مقدار » مكان « بعد أن » : وهو تحريف .

(9) فى (ا) : « تمل وترشد » . وفى (ب) : « تمد » مكان « تمل » : وهو تحريف فى كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا . وتمن وترسل ، أى تمن بالعفو عمن أساء ، وترسله من أمسكته ، أى تطلقه .

وأعْدائك ، وهذا الذى أعْذُبُكَ عليه هُوَ الذى به تَعْذُل غيرَك وتَراه ضالاً فى مَسْلَكِه ، متعرِّضًا لمَهْلَكِه .

فقال : أيَظْلِمُنِى وَلِىُّ نِعْمَتِى صُراحًا بلا ذَنْب ، ويَجْتَاحُنى[1] بلا جَرِيمة ؛ ويَثْلِمُ دَوْلَتَه بلا حُجّة ؟

قلتُ : الله يَقِيك ويَكْفِيك ، نَرَاكَ بلا ذَنْب ، ونَجِدُكَ بريئاً مِنْ كلِّ عَيْب ، وغَيْرُكَ لا يَراكَ بهذه العَين ، ولا يَحْكُمُ لك بهذا الحُكم ؛ فإن كنتَ تَرَى فُرْصَةً فانتَهِزْها ، وإن كنتَ تَحْلُمُ بغُصَّةٍ[2] فاحتَرِزْ منها ؛ فأبوابُ النّجاةِ مُفَتَّحة ، وطُرق الأمانِ مُتَوَجِّهة ، والأخْذُ بالاحتياط واجب ، قد قَرُبَ الشّاخِصُ من هذا المكان ، والقِيامةُ قد قامت بالإرجاف ، والطِّيَرَةُ قُشَعْرِيرة النَّفْس ، كما أنّ القشعريرةَ طِيَرَةُ البَدَن ، والاسترسالُ كلاَل الحِسّ ، والفَأْلُ لِسَان الزمان ، وعُنْوَانُ الحِدْثَان ، ولا يَقَعُ فى الأفواه إلاّ مايُوجِب الحَذَر ، ويَبْعَثُ على الرّأيِ والنّظر ، واستقراءِ الأثَر والخَبَر .

قال : أمّا أنا بَعْدَ التَّوكُّل على الله فقد استَظْهَرْتُ بمحمد بنِ إبراهيم صاحبِ نيسابور ، وبفَخْرِ الدوْلة وهو بهَمَذَانَ على ثلاثة أيام ، وبعِزِّ الدوْلة وهو بمدينة السَّلام ؛ ومتَى حَرَبَ حارِب ، ورَابَ رائب ، أَوَيتُ إلى واحدٍ من هؤلاء .

قال : قلتُ : هاهنا ما هو أسهَلُ مِنْ هذا وإن كان أَهْوَل ، وأَنْجَى وإن كان أَشْجَى ، وأقْرَب وإن كان أَعْزَب .

قال : ما هو؟ فرِّجْ عَنّى وآهْدِني .

قلتُ : لمّا يَدْخُلُ هٰذا الوارِد [الدّار] ، ويَدْنو من طَرف البِساط ، تُنْدِرُ رأسَه عن كاهله ، وتُلقى شِلْوَه فى مزبَلة ، فإنّ الهيْبَةَ تَقَع ، والنّائرة تَخْبُو ، والعَجَب يَغْمُر ، والظِّنّةَ تَزُول ، والصَّدْرَ يَشْتَفى ، والاعتذارَ يَنْتفى ؛ ويُكتَبُ إلى مَوفِدِهِ بأنّ الرّأىَ أوجبَ هذا الفِعل ، لأنه غَلَبَ على الظّنّ أنّه وَافَى لكَيْدٍ يوصِلُه إلَىَّ ، وبَلاءٍ يُفْرِغُه علَىَّ ، فأزَلْتُ هذا الظّنَّ باليَقين ، ودَفَعتُ الشُّبْهَةَ بالجلاء ، واستَخْلَصْتُ النورَ من الظَّلام ؛ ولأنْ تُبْعِدَ ساقطاً مِنْ خَدَمِك ، يَسوءُ ظَنى به مِن جِهَتِك ، ويَقْدَحُ فى طاعتِى ، [ويُضْرِمُ فىَّ نار التُّهمَة بينى وبينَك ؛ خيرٌ لى فى نصيحتى لِدَوْلتك ، وخيرُلك] فى

---

(1) كذا فى (ب) . والذى فى (أ) . « يجننيا » .

(2) فى (أ) : « بعض » بالعين والضاد . وفى (ب) : « بقصة » بالقاف والصاد : وهو تحريف صوابه ما اثبتنا .

بَقائى[١] على أمْرِكَ وَنَهْيِك ، مِن أن يَلْتاثَ ضميرى فى سِيَاسَةِ دَوْلَتِك ، وتَحُولَ نِيَّتى[٢] عمّا عَهِدْتَ من القِيامِ بحقِّ جُنْدِكَ ورَعِيَّتِك ، وحِفْظِ قاصِيَتِك ودانِيَتِك .

فقال : هذا أعظَمَ ، والله المُسْتَعان .

ولَيْتَنى أَصَبْتُ بهذا الرّأى[٣] أمراً عَلاَ عَقْلُه ، فيَقبَله ببَيَان ، أو يَرُدَّه ببُرهان ، فكانَ يَقْوَى أو يَضْعُف ، ويُقْدِمُ عليه أو يُحْجِمُ عنه ، فإنَّ المُبْرَم أَقْوَى من السَّحِيل ، والسمِينَ أَحْمَدُ من النَّحِيل ؛ ثم كان ما كان . وكان مَشايخُ العِراق والجَبَل يَرَوْنَ ما حَدَثَ بذلك الفَتَى أمْرًا فَرِيًّا ، وظُلْمًا عَبْقَرِيًّا .

وحَدَّثنى القُومَسِىُّ أنَّه لم يتقدَّم بذلك أَمْر ، ولا سَبَقَ به إِذْن ، ولكنْ لمَّا حَدَثَ ما حدث ، وَقَع عنه إمساك ، وسُتِرَت الكراهِيَةُ والإنكار .

***

وللأمور أيُّها الوزيرُ ظُهورٌ وبُطون ، وهَوَادٍ وأَعجاز ، وأوائل وأَواخِر ؛ وليس عَلَى الإنسانِ أن يُدرِكَ النجاحَ فى العَواقب ، وإنّما عليه أن يَتَحَرَّزَ فى المبادىء ؛ ولهذا قال القائل :

لأَمْـرٍ عليهـم أن تَتِـمَّ صُـدُورُه ولـيس عليـهم أن تَـتِـمَّ عَـوَاقِـبُـه

وقال سليمانُ بنُ عبدِالملِكِ أو غيرُه من أهْلِ بَيْتِه : ما لُمْتُ نَفْسى على فَوْتِ أَمْرٍ بَدَأْتُه بَحزْم ، ولا حَمِدْتُها على دَرْكِ أَمْرٍ بدأتُه بعَجْز .

هاهنا ناسٌ إذا تلاقَوْا يَنْفُث بعضهم إلى بعض بما هو صريح وكِناية ، ويَحتاجُ الأمرُ إلى آبنِ يوسف ، ويَسْتَمْلِى[٤] الخَبيثُ من الجالس فوقَ مَشْرَعَةِ مكان الزَّوايا .

[٥] وليس يصحُّ كلُّ ما يقال فيُرْوَى على وَجْهِه ، وليس يَخْفَى أيضاً كلُّ ما يَجْرِى فيُمْسَكَ عنه ؛ والأمورُ مَرِجَة ، والصدورُ حَرِجَة ، والاحتراسُ واجب . والنصحُ

---

(١) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « ثنائى » : وهو تحريف .
(٢) فى كلتا النسختين . « بينى » : وهو تصحيف .
(٣) وردت هذه العبارة فى كلتا النسختين هكذا « وليتنى اصبت من امر بهذا الراى على عقله » : وفيها تقديم وتاخير وتحريف إذ لا معنى لها على هذا الوجه : ولعل الصواب ما اثبتنا .

(٤) عبارة (ا) : « ومسلم الخبيث من الحالين فوق مشرعة » : وفيها تحريف ظاهر وفى (ب) : « الحبيب » مكان « الخبيث » : وهو تصحيف ايضا . ويريد بالخبيث ابن يوسف .
(٥) ورد فى (ا) قبل قوله : « وليس يصح » قوله : « فصل » .

مَقبول ، والرّأى مُشْتَرك ، والثقةُ بالله من اللوازمِ على مَنْ عَرَفَه وآمَن به ، وليس مِنَ الله عزَّ وجَلَّ بُدٌّ على كلِّ حال .

والله أسألُ الدفاعَ عنك ، والوقايةَ لك ، فى مُصْبَحِك ومُمْساك ، وفى مَبِيتك ومَقِيلك ، وشهادَتِك وغَيْبَتِك ، ولذوى مليحا[1] فى هذا الباب نَفْخٌ وإيقاد ، وتَنَاقُلٌ وآتِمار[2] ، ومَسئلةٌ وجَواب .

وعند الشيخ أبى الوَفاءِ مِنْ هٰذا الحديث ومن غيره ممّا يَتّصل به من ناحيةِ ابنِ اليزيدى ما يجب أن يُصاخَ له بالأذُن الواعية ، ويُقابَل بالنَّفْسِ الراعية ، ويُداوَى بالدّواءِ الناجع ، وتُحْسَمَ مادّتُه من الأصل ، فإنَّ الفَسادَ إذ زال حَصَلَ مكانَه الصلاح . وليس بَعْدَ المَرَضِ إلا الإفْرَاق ، ولا بعد النَّزْعِ إلا الإغراق .

إلى هاهنا انتهى نَفَسى بالنُّصح وإن كانت شفقتى[3] تتجاوَزُه ، وحِرْصى يَسْتَعْلِى عليه ، لكنّى خادم ، وكما يجب على أن أَخْدُمَ بنِيّات[4] الصدر ، فينبغى أن أَلْزَمَ الحَدَّ بحُسْنِ الأدب .

والله إنى لَوَادٌّ مُخْلِصٌ ، وعَبْدٌ طائع ، ورَجائى اليومَ أقْوَى من رَجائى أَمْس ، وأَمَلِى غدًا أبْسَط[5] من أملى اليوم ؛ أشكُو إليك الأرَق باللّيْلِ فِكْرًا فيما يقال ، وتَحفُّظا[6] مّما يُنال ، وتوُّهماً لِما لا يكون [إن كان] ، وشرُّ العِدا ، الذين يَتمنّونَ لأُولِى نِعْمتهم الرّدَى ، ويبَيِّتون النَّكائث[7] ويَكسِرون الأجفان[8] ، ويتخازرون بالأعْين ، ويَتَجاهَرون بالأذَى إذا تَلاقوا ، ويَتهامَسون بالألْسُن إذا تَدانَوْا ، والله يَصْرَعُ جُدُودَهم ، ويُضْرِعُ خُدُودَهم بين يديك ؛ وهذه الرِّقَّةُ منّى والحَفاوَة ، وهذه الرَّعْشَةُ والقَلَق ، وهذا التَقَبُّعُ والتفزُّع كلُّه ، لأنى ما رأيتُ مِثْلَك ، ولا شاهَدْتُ شِبْهَك ، كَرَمَ خِيم ، ولِينَ عَرِيكة ، وجُودَ بَنان ، وحُضورَ بشر ، وتهلُّلَ وَجْه ، وحُسْنَ وَعْد ، وقربَ

---

(١) كذا وردت هذه العبارة فى (ب) ولم نتبين من هم ذوو مليحا .
(٢) فى كلتا النسختين : « وتثاقل وائتمار » ؛ وهو تصحيف .
(٣) فى كلتا النسختين : « شفتى » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى (ا) : « تبيان » . وفى (ب) : « بثبات » . وهو تصحيف .
(٥) فى (ب) : « انشط » .
(٦) فى (ب) : « وغيظا » .
(٧) فى (ب) : « البيايت » . وهو تحريف .
(٨) فى (ا) : « الأظفار » . وهو تحريف .

إنجاز ، وبَذْلَ مال ، وحُبَّ حِكمةٍ[1] .

قد شاهدتُ نَاسًا فى السَّفر والحَضَر ، صِغارًا وكبارًا وأوْساطا ، فما شاهدتُ مَنْ يَدِينُ بالمَجْد ، ويَتحلّى[2] بالجود ، ويَرْتَدِى بالعَفْو ، ويَتأزَّرُ[3] بالحِلْم ؛ ويُعْطِى بالجُزَاف ، ويَفْرَحُ بالأضياف ، ويَصِلُ الإسعافَ بالإسعاف ، والإتحافَ بالإتحاف ، غيرَك .

والله إنّكَ لتَهَبُ الدرهمَ والدينارَ وكأنَّكَ غَضْبَانٌ عليهما ، وتُطْعِمُ الصادرَ والوارِدَ كأنَّ الله قد آستخَلفَكَ على رِزْقِهما ؛ ثم تَتَجَاوَزُ الذهبَ والفِضَّةَ إلى الثيابِ العزيزة ، والخِلَع النفيسة ، والخَيْلِ العِتاق ، والمَرَاكِب الثقال ، والغِلْمان وَالجوارى ، حتّى الكُتبِ والدفاتر وما يَضنُّ به كلُّ جَواد ؛ وما هذا مِنْ سَجايا البَشر إلا أنِ يكونَ فاعِلُ هذا نَبيًّا صادِقا ، ووَليًّا لله مُجتَبى ، [فإنّ الله قد أمَّنَ هذا الصنف من الفَقْر ، ورَفَع من قلوبهم عزّ المال] ، وهَوَّنَ عليهم الإفراجَ عن كلِّ مُنْفِس[4] ، ياقوتاً كان أودُرًّا ، ذهباً كان أو فضِةً ؛ كفاكَ الله عَيْنَ الحاسدِين ، وَوَقاك كيدَ المُفْسِدين ، الّذِين أنْعمتَ عليهم بالأمس على رُءُوسِ الأشهاد ، وكانوا كحَصىً فجعَلتَهُمْ كالأطواد ؛ وهم يَكْفُرون أيادِيَك ، ويوالُونَ أعادِيَك ، ويَتَمَنَّوْنَ لك ما أَرْجُو أن الله يَعْصِبُه برُءُوسِهم ، ويُنْزِلُه على أرواحِهم ، ويُذِيقهم وَبالَ أمرهِم ، ويَجْعَلُهم عِبرةً لكلِّ مَن يراهم ويَسْمَعُ بهم ، كانَ الله لكَ ومَعَك ، وحافِظَك ونَاصِرَك .

أطلتُ الحديثَ تلذُّذًا بمواجَهَتِك ، وَوَصَلْتُه خِدْمةً لِدَوْلَتك ، وكَرَّرْتُه توقُّعاً لحُسْنِ مَوْقِعِه عِنْدَك ، وأَعَدْتُه وأبْدَيْتُه طَلَباً للمكانةِ فى نَفْسِك .

وأَرْجُو إنْ شاءَ الله ألا أُحْرَمَ هَبَّةً مِنْ رِيحِك ، ونَسيما مِنْ سَحَرِك ، وخِيرةً بنَظَرِك . لَمْ أوفق فى هذه الكلمة الأخيرة ، والله ما يَمرُّ بى يأسٌ مِنْ إنعامِكَ فأُقوِّيه بالرَّجاء ، ولا يَعْتَرِينى وَهْمٌ فى الخَيْبَةِ لَدَيْكَ فأَتَلافاهُ بالأمل . إنَّما قُصارَى أُمنيَّتى إذا حُكِّمْتُ أن أُعْطَى فيكَ سُؤْلِى بالبَقاءِ المَدِيد ، والأمرِ الرَّشيد ، والعَدُوِّ الصريع ، والوَلِيِّ الرَّفيع ،

---

(١) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « وبذل ما اوجب حكمة » . وهو تحريف كما لا يخفى .
(٢) فى كلتا النسختين : « وينتحل » . وهو تحريف صوابه ما اثبتنا . إذ ليس انتحال الجود مما يمدح به .
(٣) فى كلتا النسختين : « ويبارز » . وهو تحريف .

(٤) كذا فى (ا) . والذى فى (ب) : « معسر » . ولا تستقيم معه الكلام الآتى بعده .

والدَّوْلَةِ المُسْتَتِبَّة ، والأحوالِ المُسْتَحَبَّة ، والآمالِ المَبْلُوغة ، والأمانىِّ المُدْرَكة ، مع الأمرِ والنَّهْىِ النَّافِذَين ، بَينَ أَهْلِ الخافِقَيْن ؛ والله يُبْلغنى ذلك بطَوْلِه ومَنِّه .

وآخرُ ما أقول ، أيّها الوزير : مِرْ بالصَّدَقات ، فإنها مَجلَبَةُ السلاماتِ والكرامات ، مَدْفَعَةٌ لِلمكارهِ والآفات ؛ واهْجُر الشراب ، وَأَدِمِ النظرَ فى المُصْحَف ، وافْزَعْ إلى الله فى الاستِخارة ، وإلى الثِّقاتِ بالاستِشارة ؛ ولا تَبْخَلْ على نَفْسِك برَأىِ غَيْرِك ، وإن كان خامِلاً فى نفْسك ، قليلاً فى عَيْنِك ، فإنَّ الرَّأى كالدُّرَّة التى رُبَّما[1] وُجِدَتْ فى الطَّريق وفى المَزْبَلَة ، وقَلَّ من فَزِعَ إلى الله بالتوكل عليه ، وإلى الصَّديق بالإسعاد[2] منه ، إلا أراهُ الله النَّجاحَ فى مَسْئَلَته ، والقَضاءَ لحاجته ؛ والسلام .

فقال لى الوَزِير بعد ما قرأ الرِّسالة : يا أبا مزْيَد[3] ، بَيَّضْتَها ، وعَجِبْتُ من تَشْقيقِ القَوْلِ فيها ، ومِنْ لُطْفِ[4] إيرادِكَ لها ، ومِن بِلَّةِ رِيقكَ بها .

والله يُحقِّقُ ما نأمُلُه له ، ونرجُوه لأنْفسنا ، ويَنْحَسِرُ عنَّا هذا الضَّبابُ الذِى رَكَدَ عَلِيْنا ، ويَزُولُ الغَيْمُ الذى اسْتَعْرضَ فى أمْرنَا ، وعلى الله توكُّلُنا ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

***

رسالة فى شكوى البؤس ورجاء المعونة وجَّهَ بها المؤلف إلى الشيخ أبى الوفاء المهندس الذى كتب له المؤلف هذا الكتاب . وختم كتابه بها :

أَيُّها الشيخ ، سَلَّمَكَ الله بالصُّنْعِ الجَمِيل ، وحَقَّقَ لكَ وفِيك وبكَ غايةَ المأمول .

هذا آخِرُ الحَديث ، وخَتَمْتُه بالرِّسالتين ، ويتقَرَّرُ جميعُ ما جرَى ودارَ[5] على وَجْهِهِ ، إلَّا ما لَمَمْتُ شَعَثاً ، وزَيَّنْتُ[6] به لَفْظًا ، وزَيَّدْتُ مَنْقُوصًا ، ولم أَظْلِمْ معنًى بالتَّحريف ، ولا مِلْتُ فيه إلى التَّحوِير[7] ؛ وأرجو أَن يَبْيَضَّ وَجْهى عِنِدَكَ بالرِّضا عنِّى ، فقد كاد وَعْدُكَ فى عنايتك[8] يَأتى علىّ ، وأنا أسألُ الله أن يَحفَظَ عِنايَتَكَ

---

(١) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « إنما » ، وهو تحريف . والسياق يقتضى ما اثبتنا .
(٢) فى (ا) التى ورد فيها هذا الكلام : « بالإشهاد » : وهو تحريف . وسياق الكلام يقضتى ما اثبتنا .
(٣) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « يا أبا فريد » .
(٤) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « لفظ » : وهو تحريف .
(٥) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ودان » : وهو تحريف .
(٦) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ورتبت » : وهو تحريف
(٧) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « التجويز » بالجيم والزاى : وهو تحريف .
(٨) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « غنائك » : وهو تحريف صوابه ما اثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام .

عليّ ، كسابق آهتمامِك بأمرى[1] ، حتى أَمْلِكَ بهما[2] ما وعدْتَنيه مِنْ تكْرِمَةِ هذا الوَزِير الذى قد أَشْبَعَ كلَّ جائع ، وكَسَا كلَّ عارٍ ، وتألَّفَ كلَّ شارِدٍ ، وأحسَنَ إلى كلِّ مُسىء[3] ، ونَوّهَ بكل خامِل ، ونفَّق[4] كلَّ هَزِيل ، وأَعَزَّ كلَّ ذَلِيل ؛ ولم يَبْقَ فى هذه الجماعة على فَقْرِه وبُؤسِه ، ومُرِّه ويأسِه ، غيرى ؛ مع خِدْمَتى السالِفة والآنِفة ، وبَذْلى كلَّ مَجهود ، ونَسْخِى كلَّ عَوِيص ، وقِيامى بكلِّ صَعْب ؛ والأمورُ مقدَّرة ، والحُظوظُ أقسام ، والكدْحُ لا يَأتى بغيرِ ما فى اللَّوْح .

فصــل

خَلِّصْنى أيها الرَّجُلُ[5] من التَّكَفُّف ، أنقِذْنى من لُبْسِ الفَقْر ، أطْلِقْنى من قَيْدِ الضرّ ، اشْتَرِنى بالإحسان ، اعْتَبِدْنى بالشُّكْر ، اسْتَعْمِلْ لِسانى بفُنُونِ المَدْح ، إكْفِنى مُؤونَةَ الغَداءِ والعَشاء .

إلى مَتَى الكُسَيْرَةُ اليابسة ، والبُقَيْلَةُ الذَّاوِية ، والقَمِيصُ المرقَّع ، وباقِلّى دَرْبِ الحاجب ، وسَذابُ دَرْبِ الرَّوّاسِين ؟

إلى مَتَى التأدُّمُ بالخُبْزِ والزَّيتون ؟ قد والله بحَّ الحَلْق ، وتَغَيَّرَ الخُلْق ؛ الله الله فى أمْرِى ؛ اجبُرْنى فإننى مكسور ، اسقِنى فإننى صَدٍ ، أغِثْنى فإننى مَلهوف ، شَهِّرْنى فإننى غُفْل ، حلِّنى فإننى عاطل .

قد أَذَلَّنى السَّفرُ من بَلَدٍ إلى بَلَد ، وخَذَلنى الوُقوفُ على بابٍ باب ، ونَكِرَنى العارِفُ بى ، وتباعَدَ عنى القريبُ مِنّى .

أغرَّكَ مِسْكَوَيْه حين قال لك : قد لقيتُ أباحَيان ، وقد أخرجتُه مع صاحِبِ البريد إلى قَرْمِيسين ؟!

والله ثم وحيَاتِكَ التى هى حياتى ، ما انقلبْتُ من ذلك بنفقةِ شهر ، والله نَظَرَ لى بالعَوْد ، فإنَّ الأراجيفَ اتَّصلَتْ ، والأرضَ اقشعرَّتْ ، والنفوسَ آستوحَشَتْ ، وتشبَّهَ

---

(١) وردت هذه العبارة فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا « باعريرجي » ولا معنى لها على هذا الوجه : والصواب ما اثبتنا ، كما يقتضيه السياق .

(٢) بهما ، اى بالعناية والاهتمام .

(٣) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « شىء » : وهو تحريف .

(٤) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « وفتق » وهو تحريف .

(٥) يريد بالرجل ابا الوفاء وهو الذى قربه إلى الوزير .

كلُّ ثَعْلَبٍ بأَسَد ، وفَتَلَ كلُّ إِنسان لعدوِّه حَبْلاً مِنْ مَسَد .

أَيُّها الكريمُ ، ارْحَمْ ؛ والله ما يَكْفينى ما يَصِلُ إِلىَّ فى كلِّ شَهْرٍ مِنْ هذا الرِّزْق المقتَّرِ الّذِى يَرْجِع بعد التَّقْتِير والتَّيْسير إِلى أَرْبَعين درهما مع هذه المَئونَة الغليظة ، والسَّفرِ الشاق[1] ، والأبواب المحجَّبَة ، والوُجوه المقطَّبة ، والأيدى المسمَّرة ، والنفوسِ الضيِّقة ، والأخلاقِ الدَّنيئة .

أَيُّها السيد ، أَقْصِرْ تأمِيلى ، اِرْعَ ذِمامَ المِلْحِ بينى وبَيْنَك ، وتذكَّر العَهْدَ فى صُحْبَتى ، طالِبْ نَفْسَك بما يَقْطَعُ حُجَّتى ، دَعْنى من التعليل الذى لا مَرَدّ له ، والتسويف الذِى لا آخرَ معه .

ذَكِّر الوَزِيرَ أمرى ، وكرِّرْ على أُذُنِه ذِكْرِى ، وأَمْلِ عليه سوُرَةً مِنْ شُكْرى ، وآبعَثْه على الإحسان إلىَّ .

افتح عليه باباً يُغْرِى[1] الرّاغبَ فى اصطناع المعروف لا يستغنى عن المرغب ، والفاعلَ الخَيْرِ لا يَسْتَوحِشُ من الباعث عليه .

أَنْفِقْ جاهَكَ فإنّه بحَمْدِ الله عَرِيض ، وإذا جُدْتَ بالمالِ فَجُدْ أيضاً بالجاه ، فإِنّهما أَخَوَان .

سَرِّحْنى رسولاً إلى صاحِبِ البَطائحِ أو[2] إلى أبى السؤل الكُرْدِى[3] أو إلى غَيْرِه مَمنْ هو فى الجبال ، هذا إنْ لم تُؤَهِّلنى برسالةٍ إلى سَعْدِ المعالِمىِّ بأطرافِ الشام ، وإلى البَصرة ، فإنى أُبلغَ فى تَحَمُّلِ ما أَحْمِل ، وأداءِ ما أُؤَدِّى ؛ وتَزْيِينِ ما أُزَيِّن ، حدًّا[4] أَمْلِكُ به الحَمْد ، وأُعْرَفُ فيه بالنَّصيحة وأَسْتَوْفى فِيه على الغاية . دَعْ هذا ، ودَعْ لى ألفَ درهم ، فإنى أتَّخِذُ رأسَ مال ، وأُشارِكُ بقّالَ المَحلَّة فى دَرْبِ الحاجب ، ولا أَقَلّ مِنْ ذا ، تقدم إلى كسج[5] البَقّالِ حتى يستعين بى لأَبِيع

---

(١) وردت هذه العبارة فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا « والسعر الشارى » ؛ وهو تحريف صوابه ما اثبتنا اخذا من سياق الكلام .

(١) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « يغنى » بالنون ؛ وهو تحريف صوابه ما اثبتنا

(٢) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « لولى » ؛ وهو تحريف .

(٣) كذا ورد هذا الاسم فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام دون (ب) ولم نهتد إلى وجه الصواب فيه

(٤) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « جدا » بالجيم ؛ وهو تصحيف .

(٥) كذا ورد هذا الاسم بالكاف والسين والجيم فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام ولم نقف على وجه الصواب فيه .

الدَّفاتر . قلتَ : الوَزيرُ مَشْغول . فما أُصْنَعُ به إذا فَرَغ ، فالشاعرُيقول :

« تُناطُ بكَ الآمالُ ما اتَّصلَ الشُّغْل »

قد والله نَسيتُ صَدْرَ هذا البيت ، وما بالُ[1] غيرى يُنَوِّلُه ويُمَوِّلُه مع شُغْلِه[2] وأُحرَم أنا ؟! أنا كما قال الشاعر :

وبَرْقٌ أضاءَ الأرضَ شرْقاً ومَغْرِبًا ومَوْضِعُ رِجْلِى منه أَسْوَدُ مُظْلَمُ

والله إنَّ الوَزيرَ مع أشغاله المتَّصِلة ، وأثقاله الباهِظة ، وفكرِه المفضوض[3] ورأيِه المشترَك ، لكريمٌ ماجِد ، ومُفْضِلٌ مُحْسِن ، يَرْعَى القليلَ من الْحُرْمة ، ويعُطِى الجزيلَ من النِّعمة ، ويُحافظ على اليَسير من الذِّمام ، ويتقبَّل مَذاهِبَ الكرام ، ويَتلذَّذُ بالثَّناءِ إذا سَمِع ، ويَتَعَرَّضُ للشُّكر من كلِّ مُنتجِع ، ويَزْرَع الخير ، ويَحْصُدُ الأجرْ ، ويواظبُ على كسْبِ المَجْد ، ويثابرُ على آجتِلاب الحمد ، ويَنْخَدِعُ للسائل ، ويتهلَّلُ فِي وَجهْ الآمِل ، ولا يَتبوَّأُ من الفضائل إلاّ فى ذُراها ، رحيم بكلِّ غادٍ ورائح ، ولكلِّ صالحٍ وطالح .

وأنا الجارُ القديم ، والعَبْدُ الشاكر ، والصاحب المَخْبور ، ولكنّك مُقْبِلٌ كالمُعْرِض ، ومُقَدِّمٌ كالمؤخَّر[4] ، ومُوقِدٌ كالمُخْمِد ، تُدْنِينِي إلى حَظِّى بشِمالك ، وتَجْذِبُنِي عن نَيْله بَيمينك ، وتُغَدينى بوَعْدٍ كالعَسل ، وتُعَشِّينى بيَأس كالحَنْظَل ، « ومَنْ[5] كان عتبه على مظنَّة عيبك ، فليس ينبغى أن يكون تقصيره على تيقّنه[6] بنصرك » .

نعم ؛ عَتَبْتُ فأَوْجَعْتُ ، وعَرَفْت البَراءةَ فهلا نفعْتَ ؟ والله ما أدرى ما أقول ، إنْ شكرْتُكَ على ظاهِرِكَ الصحيح لَذعْتُك لباطِنِك السقيم ، وإن حَمِدْتُكَ على أَوَّلك

---

(١) وردت هذه العبارة فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا « وما نال غيرى سؤل وتحول مع شغله وآخر من انا » ؛ وفيها تحريف ظاهر لا يستقيم به المعنى .

(٢) ينوّله ويموّله ، اى نوله الوزير ويموله . مع شغله ، اى مع شغل الوزير .

(٣) المفضوض ، اى المتفرق غير المجتمع .

(٤) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ومؤخر كالمقدم » ؛ وفى كلتا الكلمتين تقديم وتاخير من الناسخ : والسياق يقتضى ما اثبتنا .

(٥) كذا ورد هذا الكلام فى الاصل . وفيه تحريف ظاهر لم نهتد إلى وجه الصواب فيه .

(٦) على تيقّنه ، اى مع تيقنه . « ويكون » هنا تامّة .

الجميل ، أفسدْتُ لآخرك الذى ليس بجميل .

قد أطلت ، ولكنْ ما شُفِيت ، ونَهِلْتُ وعَلَلْتُ ، ولكن ما رَوِيت .

وآخِرُ ما أقول : افْعَلْ ما تَرَى ، وآصْنَعْ ما تَسْتَحْسِن ، وآبلُغْ ما تهْوَى ، فليسَ والله مِنْكَ بُدّ ، ولاعَنْكَ غِنًى .

والصَّبْرُ عَلَيْكَ أَهْوَنُ مِنَ الصَّبرِ عَنْك ، لأنَّ الصَّبْرَ عَنْكَ مَقْرُونٌ باليَأس ، والصَّبْرَ عَلَيْكَ رُبَّمَا يُؤدِّى إلى رَفْعِ هٰذَا الوَسْوَاس ، والسَّلاَمُ لأَهْلِ السلام .

* * *

الهوامل والشوامل

طرح التوحيدى على الفيلسوف المعاصر له مسكويه مجموعة من الأسئلة (هكذا يقول التوحيدى !) . الأسئلة أسماها الهوامل وهى الإبل السائمة يهملها صاحبها ويتركها ترعى ، والأجوبة هى الشوامل أى الحيوانات التى تضبط الابل الهوامل فتجمعها .

اعتمدنا على الطبعة النادرة الصادرة عن مطبعة لجنة التأليف والنشر عام١٩٥١ . بتحقيق المرحوم أحمد أمين والمرحوم أحمد صقر . ولم يطبع الكتاب مرة أخرى حتى تاريخه .

لماذا الشوق إلى ما مضى ؟

ما السبب في اشتياق الإنسان إلى ما مضى من عمره حتى إنه لَيَحِنُّ حنين الإبل ، ويبكى بكاء المُتَمَلْمِل ، ويَطُولُ فكرُه بِتَخَيُّلِه ما سَلَفَ ؟ وبهذا المعنى هتف الشاعر فقال :

لم أبكِ من زمن ذممتُ صُرُوفَهُ إلاّ بكيتُ عليه حينَ يَزُولُ[1]

وقال الآخر :

ربّ يوم بكيت منه فلمّا صرتُ فى غيره بكيتُ عليه[2]

وقال آخر :

وأرجوغدا فإذا ما أتى بكيتُ عَلَى أَمْسِهِ الذَّاهِب[3]

هذا العارضُ يَعْتَرِى وإن كان الماضى من الزَّمَان فى ضِيق وحاجة ، وكَرْب وشِدَّة ، وما ذاكَ كذاكَ إلا لِسِرّ للنَّفْسِ الإنسانُ غيرُ شاعرٍ به ، ولا واجِدٍ له إلا إذا طال فَحْصُه ، وزال نقصُه ، واشتد فى طلب العلم تَشْمِيرُه ، واتصلَ فى اقتباس الحكمة رَوَاحُهُ وبُكُورُه ، وكانت الكلمةُ الحسناء أشرف عنده من الجارية العذراء ، والمعنى المقوم أحب إليه من المال المُكَوّمِ ، وعلى قدر عنايته يَحْظَى بشرفِ الدَّارَين ، ويتحلَّى بزينة المَحَلَّيْن .

الجواب

قال أبو علي مسكويه ـ رحمه الله ـ

ليس يَشْتاقُ إلى الشَّباب والصِّبا إلا أحدُ رجلين :

إما فاقدُ شَهَوَاته ولذَّاته التى سَوْرَتُها وحِدَّتُهَا وقتَ الشَّباب .

وإمَّا فاقِدُ صحَّتِه فى السمع والبصر ، أو بعضِ أعضائه التى قُوَّتُهَا ووُفُورُها زمَنَ الصِّبا وحينَ الحداثة .

والمعنى الأوَّلُ أكثرُ ما يُتَشَوّقُ ، فإنَّ المُكْتَهِلَ والمُجْتَمِع ومَنْ بلغَ الأشُدَّ ـ الذى لا ينكر شيئاً من حواسه ـ يَتَشَوَّقُ إلى الصبا ، والشَّيْخ لا يَعْدمُ من نفسه ورأيه وقُوَّةِ عقله شيئاً مما كان يجده فى شبابه ، اللهم إلا أن يهرم ويلحقه الخرَفُ ، فحينئذ لا يُذْكَرُ بشىء من التشوق ، ولا يوصف به ، ولا يحتج برأيه .

---

(١) ورد هذا البيت غير منسوب فى محاضرات الأدباء للراغب الأصفهانى ٢/٢٢٣ وفى معناه يقول إبراهيم بن العباس الصولى :

سقيا ورعيا لأيام مضت سلفا بكيت منها فصرت اليوم أبكيها
كذاك أيامنا لاشك نندبها إذا نقضت ونحن اليوم نشكوها

(٢) البيت بهذه الرواية فى كتاب « الآداب » لجعفر بن شمس الخلافة غير منسوب أيضا . وفى ديوان أبى العتاهية ص ٢٨٨ :

كم زمان بكيت منه قديما ثم لما مضى بكيت عليه

(٣) المحفوظ « على أمسى » .

وههنا سبب ثالث يُشوِّق إلى الصبا وهو أن الأمل حينئذ فى البقاءِ قوِىّ ، وكأنَّ الإنسان ينتظر أمامَه حياةً طويلة فكُلّما مضى منها زمان تيقَّن أنه من أمَدِه المضروب ، وعمره المقسوم ، فاشتاق إلى أن يستأنف به ، طمعاً فى البقاء السّرمدى الذى لا سبيل للجسد الفانى إليه .

إلا أن المعنى الأوّلَ هو الذى ذهب إليه الشعراء فأكثروا فيه ، وقد صرَّحوا به وذكروه فى أشعارهم .

والمتشوِّق إلى شهواته صورتُه عند الحكماء صورةُ مَنْ أُعْتِقَ فاشتاق إلى الرِّق ، أو صورةُ من أفْلَتَ من سباع ضارِية كانت مقرونةً به فاشتاق إلى مُعاوَدَتِها .

وذلك أن الشّاب تَهِيم به قوى الطبيعة عند الشّهوة وعند الغضب حتى تغْمُر عقلَهُ فلا يستشير لُبَّه ، ولا يكاد يظهر أثر العقل عليه إلا ضعيفا .

وقد بيَّنا فيما تقدَّم من المسائل أنّ فضيلة الإنسان وشرفَه فى الجزءِ الألهىّ منه ، وإن كان الجزءُ الآخرُ ضروريا له .

فقد بان أنّ السِّنَّ التى تَضعُفُ فيها قوى الطبيعة حتى يَقْتَدِرَ عليها العقلُ فيزُمَّها ، ويجرَّها ذليلةً طائعةً غيرَ مُتأَبِّيَة ولا هائجة ـ أفْضَلُ الأسْنَان ، والرَّجلُ الفاضلُ الصالح لا يَشتاق من أشرف أسنانه إلى أخسِّها .

والدليل البِّين على أن الأمر على ما حكيناه ـ أنَّ الشاب العفيفَ الضابط لنفسه ، القوىَّ على قمْع شهواته مَسْرُورٌ بسيرته ، وإن كان فى جَهْد عظيم ، ومحكومٌ له بالفضل ، مشهودٌ له به عند جميع أهل العقل ، وأنَّه إذا كبِرَ وأسنَّ لم يشتق إلى الشباب ؛ لأنَّ ضبطه لنفسه ، وقَمْعَه لشهواته أيْسَرُ عليه وأهونُ .

ومن كان فلسفىَّ الطريق ، شَرِيعىَّ المذهب لم تعرض له هذه العوارضُ ـ أعنى التلُّهفَ على نيل اللذات ، والأسفَ على ما يفوتُه منها ، والنَّدمِ على ما ترَكَ وقَصَّرَ فيها ـ بل يعلم أن تلك انفعالاتُ خسيسةٌ تقتضى أفعالا دنيئة ، وأنَّ الحكماء ـ رضى الله عنهم ـ قد بيَّنوارذائِلَها ، وسطَّروا الكتبَ فى ذمِّها ، وأنَّ الأنبياءَ ـ صلواتُ الله عليهم ـ قد نَهَوْا عنها ، وحذَّروا منها ، وكُتب الله ـ تعالى وتقدس ـ ناطقةٌ بجميع ذلك ، مُصَدِّقَةٌ له .

فأى شوقٍ يحدُث للفاضل إلى النَّقص ، وللعالم إلى الجهل ، وللصحيح إلى المرض ؟

وإنما تلك أعراض تعرِض للجهال الذين غايتُهم الانهماك فى الطبيعة والحواس ، وطلبِ ملاذِّها الكاذِبَة ، لا التماسَ الصِّحة ، ولا بلوغَ السّعادة ، ولا تكميلَ الفضيلة الإنسانيةِ ، ولا مُعْتَبَرَ بهؤلاء ولا التفات إلى أقوالهم وأفعالهم .

لماذا حب الذكر ؟

لم أَحَبَّ الإنسانُ أن يعرفَ ما جرى من ذِكْره بعد قيامه من مجلسه ، حتى إنّه لَيَحِنُّ إلى أن يقفَ على ما يُؤَبَّنُ به بعد وفاته ، ويحبُّ أن يطّلع على حقيقة ما يكون ويُقَال ؟

وكيف لم يتصنع لفعل ما يُحِبُّ أن يكون منسوبا إلَيْه مُزَيَّناً به , هذا ومَحَبَّته لذلك طبيعة لورامَ زَوَاله عنها لما أطاق ذاك ، وإن كَابَرَ طِبَاعَه ، وأراد خِدَاعَه .

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله :

قدتقدّم لنا فى بعض هذه الأجوبة التى مضت أن للنفس قوّتين : إحداهُما هى التى بها يَشْتاقُ الإنسانُ إلى المعارض واسْتِثْبَاتِهَا ، ولما كانت هذه المعرفةُ عامةً له فى سائر الأشياء كانت بما يخصُّه فى نفسه التى هى محبُوبَتُه ومَعْشُوقَتُه ـ أَوْلَى .

فالإنسان يَشتاق إلى هذه المعرفة بالطبع الأوّل ، والقوَّة التى هى ذاتيةٌ للنفس ، ثم يَتَزَيَّدُ هذا التَّشَوّقُ ، ويَشْتعل ويَقْوى ؛ لأجل اختصاصه بمعرفة أحوالِ نفسِه المحبوبة .

* * *

فأما تصنُّعُه لفعل ما يحِبُّ أن يكون منسوباً إليه فإنه ليس يتركه إلا أن يعترضَهُ عارضٌ آخرُ مِنْ شهوة عاجلة تقاومه ، فهى أغلبُ وأشدُّ مجاذبة له كما ضربنا به المثل فيما تقدّم من علم المريض بحفظ الصحة ، وحاجتِه إليها ، ثم إيثَارِهِ عليها نيلَ شهوة دَنِّية عاجلة ، وإن فاتته الصّحة المُؤْثَرَةُ فى العاقبة .

ولولا هذه الشهواتُ الدنّية المُعْتَرِضةُ على السعادات المُؤْثَرةِ ـ ما تميَّزُ الفاضلُ من الناقص ، ولا مُدِحَ العفيف ، وذُمّ النَّهِم ـ ، وكنّا حينئذ لا ننتفِع بالآداب والمواعظ ، وكان لا يحسنُ مِنّا التعبُ والرياضة فيما على الطبيعة فيه كُلْفَةٌ ومشقة .

وهذا بَيِّن كاف فى جواب المسألة .

لماذا العلم ؟

لم كان الإنسانُ محتاجاً إلى أن يتعلمَ العلمَ ؟ولا يحتاجُ إلى أن يتعلم الجهل ، أَلأنَّهُ فى الأصلِ يوجدُ جاهلا ؟ فما علةُ ذلك ؟ فبإثارة عِلَّته يتمُّ الدليل على صحته .

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله :

قد تبينَ فى المباحثِ الفلسفيةِ أن العلمَ هو إدراكُ النفس صورَ الموجوداتِ على

حقائِقِها ، ولمَّا قال بعضُ الأوائلِ : إن النفسَ مكانٌ للصورة اسْتَحْسَنَهُ أفلاطونُ ، وصوَّبَ قائِلَهُ ؛ لأنَّ النفسَ إذا اشتاقت إلى العلمِ الذى هو غايَتُها نَقَلَتْ صورةَ المعلومِ إلى ذاتِها حتى تكونَ الصورةُ التى تحصِّلُها مطابقةً لصورةِ المنقولِ منه ، لا يَفْضُلُ عليها ، ولا يَنْقُصُ منها ، وهو حينئذ علمٌ محضٌ وإنْ كانت الصورةُ المنقولَةُ إلى النفسِ غيرَ مطابقةٍ للمنقولِ فليس بعلم .

وهذه الصورةُ كلَّما كَثُرَتْ عند النفسِ قويتْ على استثباتِ غيرِها ، والنفسُ فى هذا المعنى كالمُنَاصِبِ للجسدِ ؛ وذلك أنَّ الجسدَ إذا حَصَلَتْ فيه صورةٌ ضَعُفَ عن قبولِ صورةٍ غيرِها ، إلا بأن تَنْمَحِى الصورةُ الأولى منه ، أو تتركبَ الصورةُ الأولى والثانيةُ الورادةُ فتخْتَلِط الصورتان ولا تحصُلان ولا إحدهما على التمامِ ، وليست النْفسُ كذلك .

ولما كانت نفسُ الإنسان هيولانيةً مشتاقةً إلى الكلامِ الموضوعِ لها بأن يتصورَ بصورةِ الموجوداتِ كلِّها ، أعنى الأمورَ الكليةَ دونَ الجزئيةِ ، وكانت قَويةً على ذلك ، وكانت صورةُ الموجوداتِ فيها غيرَ مضيفةٍ بعضَها مكانَ بعضٍ ، بل هى بالضِّدِّ من الأجسامِ فى أنها كلَّما استَثْبَتَتْ صورةً فى ذاتها قَويت على استِثْبَاتِ أخرى ، وخلَّصَت الصورَ كلَّها بعضَها من بعضٍ وذلك بلا نهاية - كان الإنسانُ محتاجا إلى تعلُّم العِلم أى إلى استثباتِ صُوَرِ الموجوداتِ ، وتحصِيلها عنده .

* * *

فأما الجهلُ فاسمٌ لعدمِ هذه الصورِ والمعلوماتِ ، ونحن فى اقتناءِ هذه الصورِ محتاجون إلى تَكَلُّفٍ واحتمالِ مشقةٍ وتعبٍ إلى أن تَحْصُلَ لنا .

فأما عدمُها فليس مما يُتَكَلَّف ويُتَجَشَّم ، بل النفسُ عادمةٌ لذلك . ومَثَلُ ذلك من المحسوسِ صورةُ لوح لا كتابةَ فيه ، وإثباتُ الكتابةِ ، وصورُ الحروفِ يكون بتَكَلُّفٍ فأما تركه بحاله ، فلا كلفة فيه إلا على مذهب مِن يرى صورة الأشياء موجودةً للنفس بالذات ، وإنما عرضَ لها النسيانُ ، وأن العلمَ تَذَكُّرٌ وإزالةٌ لآفةِ النسيانِ عن النفسِ .

ولو كان الأمرُ كذلك لكانَ جوابُ المسألةِ بحسب هذا المذهبِ بيِّناً فى أنَّ التعبَ بإزالةِ آفةٍ واجبٌ ، وتركُهُ مَأْوُوفاً[1] لا تعبَ فيه .

ولكنْ هذا مذهبٌ غيرُ مرغوب فيه ، والشغلُ به فى هذا الموضعِ فضلٌ ؛ لأنه ليس

---

(١) مأووفا : اى مصابا .

من المسألةِ فى شيءٍ ، وإن كانَ الكلامُ قد جرَّ إليه ، ولكنَّا ندلُّ على موضعِه فلْيُؤخَذْ من هناك ، وهو كتبُ النفسِ .

* * *

فقد تَبيَّنَ أن العلمَ تَصَوُّرُ النفسِ بصورةِ المعلومِ ، والتصوُّرُ تَفَعُّلٌ من الصورة . والجهلِ هو عدمُ الصورةِ ، فكيف يُسْتَعمَلُ التَفَعُّلُ من الصورةِ فى عدم الصورةِ ؟ هذا مُحَال .

لماذا الحياء ؟

لم طال لسان الإنسان فى حاجة غيره ، إذا عُنِىَ به ، وقصر لسانه فى حاجته مع عنايته بنفسه ؟ وما السر فى هذا ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله :

بِنْية الإنسان وتركيبُهُ ومبدأُ خلقِهِ وقَعَ على أنه مَلِك ، . فكل إنسان له أن يكون مِلكاً بما أعد له من القوى المساعدةِ عليه ، ولا ينبغى لأحد أن يقصِّرَ عن أحد فى هذا المعنى إلّا لآفةٍ أو نقصٍ فى البِنْيَةِ .

ولمَّا عرض للواحدِ بعد الواحدِ أن يَسْأَلَ غيرَه ، مع أنَّ موضوعَهُ موضوعُ الآخرِ ، ولم يكن بأن يحْتَاجَ إلى صاحبه أولى من أنْ يَحْتَاجَ صاحبه إليه ـ وجب أن تحدُثَ له عزةُ نفسٍ تمنَعُهُ من التذَلُّلِ .

ولهذه العلة وجب التمدُّن ، وحدث الاجتماعُ والتعاونُ ، وحسُنَ بين الناس التعاملُ ، وأن يَدْفَعَ الإنسان إلى صاحبه [حاجته][1] إذا كانت عنده ؛ لِيَسْتَدعِىَ مِثْلَها منه ، فيجدَها أيضاً عنده .

فالسائل إذا لم يكن مُعَوِّضاً ، ولا معامِلا ، والتمس الرِّفْدَ من غيرِه من غير مقابَلَةٍ عليه ، ولا وعدٍ من نفسه بمثلِهِ ـ كان كالظالم ، وأيسرُ ما فيه أنَّه قد حطَّ نفسَه عن رتبةٍ خُلِقَ عليها ، ونُدِبَ إليها فَقصُرَ لسانُهُ ، واحتقر نفسَه .

فأما إذا تكلم فى حاجة غيرِه لم يعرِضْ له هذا العارضُ ، فكأنه إنما يُحيلُ بهذا النقصِ على من تكلَّمَ عنه فانطلق لسانُه ، ولم تَذِلَّ نَفْسُه .

لماذا الصيت بعد الموت ؟

ماسبب الصِّيتِ الذى يتَّفِقُ لبعضِهم بعد موته ، وأنَّه يعيش خاملاً ، ويشتهر ميتاً كمعروف الكَرْخِىّ[2] ؟

---

(١) زيادة يوجبها السياق .

(٢) كان معروف بن فيروز الكرخي من كبار مشايخ الصوفية ، ومن موالى على بن موسى الرضا ، وكان أستاذ السقطي . توفي سنة مائتين ، كما في رسالة القشيرى ص ٩ ـ ١٠ .

الجواب

قال أبو علي مسكويه ـ رحمه الله :

معظم السبب في ذلك الحسدُ الذي يَعْتَرِي أكثرَ الناس ، لا سيما إذا كان المحسودُ قريبَ المنزلةِ من الحاسد ، أو كان في درجته من النَّسَب أو الولاية والبلديّةِ أو ما أشْبَهَمَا ؛ فإنَّ هذه النِّسَبَ إذا تقاربت بين الناس فاشتركوا فيها ، ثم انفرد احد منهم بفضيلة نافَسَهُ الباقون فيها ، وحسدوه إياها حتى يحملَهُم الأمر على أنْ يجحدوه آخر الأمر ؛ ولذلك قيل : أزهد الناس في عالم جيرانه ؛ لأن الجِوَارَ وكثرةَ الاختلاطِ سببٌ جامع لهم يَتَسَاوَوْنَ فيه ؛ فإذا انفرد أحدهم بفضيلة لَحِقَ الباقين ما ذكرتُه .

وربما كان سببُ زهدهم فيه غيرَ هذا ، ولكن الأغلبُ ما ذكرتُه .

فأما البعيد الأجنبيُّ فإنه لمَّا لم يجمعهُ وإياه سببٌ خفَّ عليه تسليمُ الفضلِ له ، وقلَّ عارضُ الحسد فيه ؛ ولأجل ذلك إذا مات المحسودُ ، وانقطع السبب الذي بينه وبين الحسَّادِ أنْشَئُوا يُفَضِّلُونَهُ ، ويُسَلِّمونَ له ما مَنَعُوهُ إياه في حياته .

لماذا الجزع من الموت ؟

ما سبب الجزع من الموت ؟ وما الاسترسال إلى الموت ؟

وإن كان المعنى الأولُ أكثر فإن الثانيَ أَبْيَنُ وأظهرُ وأيُّ المعنيين أجلُّ الجزع منه أم الاسترسالُ إليه ، فإنَّ الكلامَ في هذه الفصولِ كثيرُ الرَّيْعِ جمُّ الفوائد .

الجواب

قال أبو علي مسكويه ـ رحمه الله :

الجزع من الموت على ضُروب ، وكذلك الاسترسالُ إليه . وبعضه محمودٌ ، وبعضه مذمومٌ ؛ وذلك أنَّ من الحياة ما هو جيِّدٌ محبوبٌ ، ومنها ما هو رديء مكروهٌ ، فيجب من ذلك أن يكون ضدُّها الذي هو الموتُ بحَسَبِهِ : منه ما هو حيال الحياةِ الجيدة المحبوبةِ ، فهو رديء مكروهٌ ، ومنه ما هو حيال الحياةِ الرديئةِ المكروهةِ ، فهو جيِّدٌ محبوب .

ولابد من تَبْيِينِ هذه الأقسام ليَبِينَ سببُ الجزعِ والاسترسالِ[1] ، وأيُّهما أعلى ، فأقول :

إن الحياة المقترِنَةَ بالآفات العظيمة ، والمِهنِ الهائلةِ[2] ، والآلامِ الشديدةِ : مثلُ أن يُسْبى الرجلُ وأهلُه وولدُه ويَملِكَهُمْ قوم أشرارٌ حتى يَرَى في أهلهِ وولدِه ما لا طاقة

---

(١) يقال : استرسل إلى فلان : انبسط إليه واستأنس به ، ويريد بالاسترسال إلى الموت الرضا به عن سماح

(٢) مهن فلانا الأمر : جهده ، فالمهنة هنا : الجهد والشدة .

له به ، ويُسَامَ في نفسِه وجسمِه ما لا صبرَ عليه ، ويقع في الأمراض الشديدةِ التى لا برءَ منها ، ويُضْطَرَّ إلى فعلٍ قبيحٍ بأصدقائه وبوالديه ، فهذا كلُّه ردىء مكروهٌ ، وليس أحدٌ يختار العيشَ فيه ، ولا يؤْثِرُ الحياةَ معه ، فضدُّه إذاً جيِّدٌ محبوبٌ ؛ لأنَّ الموتَ أمامَ هذه المحنِ فى مجاهدَةِ عدوٍ يسومُ هذا السَّوْمَ ـ موتٌ مختارٌ جِّيدٌ . فيجب بحسب هذا النظرِ أنْ نقولَ : إنَّ تلك الحياةَ المكروهةَ يُسْتَحَبُّ فيها الموتُ الذى هى ضده ، فالاسترسال إلى هذا الموت جيد ، وسببه ظاهر .

وكذلك إذا عُكِسَتْ الحال ، فإن الحياةَ المحبوبةَ والعيشَ المضبوطَ ، التى معه صحةُ البدن ، واعتدالُ المِزاجِ ، ووجودُ الكفايةِ من الوجوهِ الجميلة ، والتمكُّنُ بهذه الأشياءِ من السعى نحو السعادةِ القصوى ، وتحصيلُ الصورةِ المكمِّلةِ للإنسان مع مساعدةِ الإخوان الفضلاءِ ، وقرةُ العين بالأولاد النجباءِ ، والعزُّ بالعشيرة وأهلِ البيت الصالحين ـ كلُّه محبوبٌ مؤثَرٌ جيِّدٌ . ومقابِلُهُ إذن الذى هو الموت ردىء مكروهٌ ؛ لأنَّ هذا الموتَ ينقطعُ به استكمالُ السعادةِ وإتمامُ الفضيلة . ويُفَوِّتُه أمراً عظيماً كان معرَّضاً له .

فالجزع من هذاالموت واجبٌ ، وسببُهُ بيِّنٌ .

وهذا ضربٌ من النظر ، وبابٌ من الاعتبار .

وضرب آخر وهو أن البقاءَ بنفسه أمرٌ مختارٌ ؛ لأنه وجودٌ متصلٌ ، والوجودُ كريمٌ شريفٌ . وضدُّه العدمُ رذلٌ خسيسٌ ، والرغبة فى الشىء الكريم واجبةٌ ، كما أنَّ الزهدَ فى الشىء الخسيس واجبٌ .

وإذا كانتْ حياةٌ ما منقطعة لا محالةَ ، ثم كان ذلك يُفْضِى إلى حياة أخرى أبديَّةٍ ، ووجودٍ سرمدىّ ـ صار هذا الموتُ غير مكروهٍ إلا بقدْرِ ما يُكْرَهُ من الدواء المرِّ إذا أدَّى إلى الصحة ، فإن العلاج المؤلم والدواء الكريه مختاران ، إذا أديا إلى صحة طويلة ، وسلامة متصلة فإن لم يكونا مختارين بالذات فهما مختاران بالعرض .

فالإنسان المستبصر الذى يرى أن أخراه أفضلُ من دنياه ، وآجلَهُ خيرٌ له من عاجله ـ يَسْتَرسِلُ إلى الموت استرسالَهُ إلى الدواءِ الكريه ، والعلاجِ المؤلمِ ؛ ليُفْضِىَ به إلى خير دائم ، وإن كان هذا الاختيارُ بالعرضِ لا بالذَّاتِ ، وربما ظن ذلك ظنا فحسن أيضا منه الاسترسال إليه بحسب قوة ظنه وما وقع إقناعه به ، كما يحسن فى الدواء إذا قوى ظنه بمعرفة واصفه له .

فأما من خلال من هذا الاعتقاد والظَّنِّ القوىِّ فهو يجزع من الموت ؛ لأنه عدم ما ، والعدم مهروب منه ، وهذا سبب صحيح وعلّة ظاهرة .

وهذا ضرب آخر من الاسترسال إلى الموت ، والجزع منه ، وهو أن من قَوِيَ ظنه واستحكمت بصيرته فى عاقبته ومَعاده ولكنه لم يُقدِّم ما يعتقد أنه يسعد به ، ولم يتأهب بأهبته ، ولا استعد له عدةً ، فهو يكره الموتَ ، ويجزع منه ، ولا يسترسل إليه .

وأنت ترى ذلك فى أصحاب الأهواء المختلفة ، والديانات المتضادة ، كالهند فى تسرعهم إلى إحراق نفوسهم ، وإقدامهم على ضروب المَثْل والقتل فى أبدانهم ، وكالخوارج فى حرصهم على الموت ، وبذلهم نفوسهم فى مواقفهم المشهورة ، وحروبهم المأثورة ، وأن الرجلِ إذا طُعِن قَنَّع فرسَه ليسبح فى الرّمح ، وينتهىَ إلى طاعنه[1] ، ثم قَرَأَ : « وعَجِلْتُ إلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى[2] » ؛ولذلك اتخذ أصحاب السلطان فى صدور رماحهم [حاجزا][3] لئلا يسبح فيها المطعون فيصلَ إلى الطاعن .

لماذا .. حب يوم بعينه

لم صار الإنسان يحب شهراً بعينه ، ويوما بعينه ؟

ومن أينِ يتولدِ للإنسان صورة يوم الجمعة على خلاف صورة يوم الخميس ؟

وقيل للرُّوذَكى[4] ـ وكان أكمَه ، وهو الذى ولد أعمى ـ كيف اللون عندك ؟ قال : مثل الجمل .

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله :

أما محبة الإنسان شهراً بعينه فلأجل ما يتَّفق له فيه من سعادةٍ ما ، بحُصول مأمول ، أو ظفَر بمطلوب ، أو انتظار مَرجوّ فى وقت بعينه ، أو سرور بعَقِب غمّ ، أو راحة بعد تعب ، وربّما استمر ذلك به ، وتكرر عليه مدة من عمره فى وقت بعينه ، فأنِسَ به وألفهِ وأحبَّه لَمَا يتفق له فيه ، ولذلك أحبّ صِبيان المسلمين يوم الجمعة ،

---

(١) يريد أن الخارجي إذا طعنه عدوه بالرمح ضرب فرسه ليتقدم حتى يلحق طاعنه فيقضي عليه ، غير عابىء بنفاذ الرمح فى صدره .

قال المبرد فى الكامل ٣/٩٥٤ ، وكان فى جملة الخوارج لدد واحتجاج ، على كثرة خطبائهم وشعرائهم ، ونفاذ بصيرتهم ، وتوطين انفسهم على الموت ، فمنهم الذى طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يقول : « وعجلت إليك رب لترضى » .

(٢) سورة طه : ٨٤ .

(٣) مكان الزيادة يقتضى كلمة بمعناها .

(٤) الروذكى : كما فى انساب السمعانى ٢٦٢ واللباب لابن الأثير ١/٤٨٠ ، بضم الراء ، وسكون الواو ، وفتح الذال المعجمة ، وفى آخرها كاف ـ هذه النسبة إلى روذك ، وهى ناحية بسمرقند ، والمشهور بهذه النسبة الشاعر المليح القول بالفارسية ، الذى سار شعره : ابو عبدالله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبدالرحمن الروذكى ، الشاعر السمرقندى ، وتوفى بروذك سنة تسع وعشرين وثلاثمائة .

وألِفوه بعد ذلك طولَ عمرهم ، وكرهوا يوم السبت ؛ لأن يوم الجمعة مَفْرُوضٌ لهم فيه الرّاحة ، مُرَخَّصٌ لهم اللّعِب ، ويَتْلُوه يومُ السبت الذى هو يوم تعبهم وعودهم إلى ما يكرهون من فقد اللّعب . فأمّا صِبيان اليهود فإنما يعرض لهم ذلك فى يوم السبت وما يليه ، وصبيان النصارى فى يوم الأحد وما يليه ، وكذلك[1] أيام الأعياد التى أطلق للناس فيها الراحة والزينة ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أيام أكل وشرب وبعال »[2] .

وهذه الأيام مختلفة فى أصحاب المِلَل . وكل قوم يحبون الأيام التى هى أعيادهم التى أُطلِق لهم فيها الزينة والمتعة والراحة .

وأما من تساوت به الأحوالِ من الأمم التى ليست تحت شرع ، ولا لهم نظام فى سيرتهم وأحوالهم ، كالزَّنج وأواخر الترك وأشباههم ، فليس يلحقهم هذا المعنى ، وليس يحبون يوما بعينه ، ولا شهرا ، ولا وقتا مخصوصا .

فأما تولد صورةِ يوم الجمعة على خلاف صورة يوم الخميس فإنه على ما أقول :

إن الزمان الأظهرَ الأعمَّ الأشهرَ هو ما تحدثه دورة واحدة من الفلك الأقصى ، أعنى الذى يدبر جميع الأفلاك ويحركها بحركة نفسه إلى غير جهة حركاتها ، وذلك من المشرق إلى المغرب ، من مفروضه إلى أن يعود إليها ، وهو فى أربع وعشرين ساعة .

وإنما صار هذا الزمان أظهرَ للناس لما يظهر فيه من صباح يَعْرِض ، ومساء بيوم وليلة ، وسببهُما ظهور الشمس فى بعض هذه المدة فوق الأرض ، وغيبتهُا فى بعضٍ تحت الأرض .

وتكرُّرُ هذه الأدوار هى الأيام والليالى ، وفى كل دَوْر منها للنّاس أفعالٌ وحركات ومواليد ومعاملات ليست فى الدّورة الأخرى .

ويتعلّق بأفعالهم هذه أحكام وأقضية فى مدد معلومة ، وآجال مفروضة ، فى مدة مضروبة ، يحتاجون فيها إلى نِسْبَتِها إلى دورة بعد دورة من الفلك الأقصى التى هى سبب لكون اليوم والليلة ؛ لِتَصِحَّ معاملاتهم ، وتصدقَ قضاياهم ، وتتعين آجالهم المضروبةُ فى أعمالهم ومعاملاتهم .

وههنا زمان آخر تحدثه دورةأخرى تختص بها الشمس فى سيرها .

---

(١) فى الأصل « وذلك » .

(٢) فى اللسان : « البعال : حديث العروسين ، والتباعل والبعال : ملاعبة المرء أهله ، وقيل البعال : النكاح ، ومنه الحديث فى أيام التشريق إنها أيام أكل وشرب وبعال ، والمباعلة : المباشرة » .

وذلك أن تبتدىء الشمس من نقطة مفروضة ، وتعودَ إليها بعينها بحركة نفسها دون تحريك المحرك الأول .

وهذه الدورة هى من المغرب إلى المشرق بخلاف تلك .

وتتم الدورة الواحدة من هذه الحركة التى تخص الشمس ، فى ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم على التقريب .

وهذا هو زمان أيضا ، ولكنه منسوب إلى حركة الشمس نفسِها ، ويسمى : « سنة » .

وههنا زمان آخر قد تعارفه الناس أيضا ، واشتهر بينهم ، وظهوره وإن لم يكن كظهور الشمس فهو تال له ، وهو ما يكون ويحدث بدورة واحدة من حركة القمرالتى تخصه دون تحريك المحرك الأول .

وتتم الدورة الواحدة بهذه الحركة التى تخص القمر ، وهو أيضا من المغرب إلى المشرق ، فى ثمانية وعشرين يوما ، ويسمى « شهرا » .

فهذه الأزمنة الثلاثة لما كانت ظاهرةً مكشوفة تراها العيون ؛ لأجل تعلقها بالشمس والقمر اللذين هما أنورُ الكواكب وأبينهما وأكبرهما[1] فى الظاهر - تعارفها الناس ، وتعاملوا عليها ، وحدثت صورة لكل دورة بحسب ما يُقَسِّطه الناس فيها من أعمالهم ، وبحسب ما يفشو فيها ويحدث من الأعمار والمواليد ، وبحسب نسبة حركاتهم إليها بمبدأ ومنتهى .

وإذا نظر الإنسان إلى هذه الأدوار فى أنفسها خالية من حركات الناس وأفعالهم ولم ينسب إليها حركةً أخرى ، وفعلا آخر - لم يكن بينها فرق بتّة إلا بالتكرر الذى لابد فيه من العدد بالأول والثانى والثالث ، وإلى حيث انتهى الإحصاء .

فإن نظر فيها بحسب الأحوال ، ونسب إليها أفعالا وآثارا ، ونظمها بالحساب - حدثت صورة مختلفة بحسب اختلاف الأمور الواقعة فيها ، المنسوبة إليها .

* * *

فأما الأكمه الذى ذكرتَهُ فى المسألة ، فإن الفاقد حاسة من حواسه لا يتصور شيئا من محسوساته ؛ لأن التّصوّر فى النفس من كل محسوس إنما يقع بعد الإحساس به .

وذلك أن هذه القوى من قوى النفس التى تأخذ العلوم من الحواس ، إنما ترقيها إلى قوة التخيل عن الحس ، فحينئذ تثبت صورة المحسوس فى القوة المتخيِّلة ، وإن زالت صورة الحس وغابت .

---

(١) فى الأصل « بالشمس والمقر الذى لهما أنور الكواكب وابينهما وأكبرهما » .

فأما إذا فقد الحس فكيف يترقى المحسوس إلى قوة التخيل ؟ فبحق صار الأكمه لا يتخيل شيئاً من الألوان ولا يتصوره .

وكذلك إنّ فقد فاقد حسَّ الشم والسمع من مبدأ ولادته ، لم يتخيل شيئاً من محسوساتهما لما قدمناه .

وحدثنى بعض أهل التحصيل من المتفلسفين أنه سأل رجلا أكمهَ : كيف يتصور البياض ؟ فقال « حلو » .

فكأنه لما لم يجد صورة البياض فى تخيله ردها إلى حاسة أخرى هو واجد لمحسوسها ، فسماها بها ، وظنها إيّاها . أو يُغْتابَ به ؛ لأنه يعرفُ قبح الشر ، ويحبُّ لنفسه التى هى حبيبتهُ أن تكون بريئةً من كل عيب ، بعيدةً من كل ذنب وذم ، فإذا رُمِيت بشر لحقه غَمٌ أولا ، ثم محبةُ الانتقام ممن غَمَّه .

والغضب حقيقَتُه حركةُ النفس للانتقام ، وهذه الحركة تُثير دمَ القلب حتى يغلى ؛ ولذلك يُحَدُّ الغضب بأنه غليانُ دم القلب شهوةَ الانتقام .

* * *

فأما غضب الإنسان من شر ينسب إلَيْه وليس هو فيه فبالواجب ؛ لأنه قُصِدَ بالظلم ليُغَمَّ .

وفائدة الغضب ، وسببُ وجودِه فى الإنسان هو أن يَنْتَصِرَ به من الظالم ، أو يمنعَه ويضعَه عن نفسه ؛ فإذا علم الإنسان أن قاصداً يقصده بالظلم أحبَّ الانتقامَ منه ، وتحركت نفسه لذلك ، فحدث الغضب .

فقد استبان من الصدق والكذب جميعا فى هذه المسألة ، سببُ هَيْجِ الغضب ، ومائِيَّتُه أيضاً .

لماذا الحضور عند الذكرى ؟

ما علة حضور المذكور عند مَقْطَع ذكرِه وهو لا يُتوقع فيه ؟

هذا كثير معهود ، وإن لم يكن من باب المعتاد المألوفِ . ولو كان من ذلك لسقط التعجب ، وزال الإكْبَارُ ، ووقع الاشتراك .

ومن هذا الضربِ رُؤيةُ الإنسان بالالتفات مَنْ لم يكن يَظُنُّ أنه يَرَاهُ .

وكذلك تشبيهُك بعضَ من يلحقه طرفُكَ بمعهود لك ، حتى إذا حدَّقْتَ نحوَه لم يكن ذاك ، ثم إنك لا تلبث حتى تصادف المشبَّهَ به .

وهل هذا كلُّه بالاتفاق ؟

وإن كان بالاتفاق فما الاتفاق ؟ وهل الاتفاق هو الوفاق ؟

وما الوفاق ؟ حتى يكون البيان عنه بيانا عن الأول ، أو مُطْلِعا عليه ، أو مُقَرَّباً إليه .

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله :

إن النفسَ علاّمةٌ بالذات ، درّاكةٌ للأمور بلا زمان ؛ وذاك أنها فوق الطبيعة ، والزمانُ إنما هو تابع للحركة الطبيعية ، وكأنه[1] إشارة إلى امتدادها ؛ ولذلك اشتق اسم المدَّة منه[2] ؛ لأن المدةَ فُعلةٌ ، والامتدادَ افتعال ، وأصلهما واحد من المدّ .

ولما كانت النفسُ فوق الطبيعة ، وكانت أفعالُها فوق الحركة ، أعنى فى غير زمان ؛ فإذَن ملاحظتُها الأمورَ ليست بسبب الماضى ولا الحاضر ، ولا المستقبل ، بل الأمر عندها فى السواء ، فمتى لم تعقها عَوَائقُ الهَيُولَى والهيوليات ، وحُجُبُ الحِسّ والمحسوسات ـ أدركَتِ الأمورَ ، وتجلَّت لها بلا زمان ، وربما ظهر هذا الأمرُ منهافى بعض المِزاجات أكثرَ حتى يرتفعَ إلى حد التَّكَهُّن والإنذارِ بالأمور المستقبَلةِ . وهذا الإنذار رُبَّما كان فى زمان بعيد ، فكلما كان أبعدَ ، والمدةُ أطولَ ، كان أبدعَ عند الناس وأغربَ ، ثم لا يزالُ يقرِّب الزمان ، ويقصِّر فيه ، حتى يتلوَ وقتَ الإنذارِ بلا كبيرِ فاصِله .

وهذا الحال تَعْرِضُ لمن يَذْكُرُ الإنسانَ فيحضرُ المذكورُ عند مَقْطَعِ ذِكْرِه ، ولم يكن ذكُره سبباً لحضُورِه ، بل كان الأمرُ بالضّد ؛ فإنَّ قُرْب حضورِه أشعرَ النَّفْسَ حتى أنْذَرت به .

وكذلك الحال فى الرؤية بالالتفات ؛ فإنّ قُرْبَ المُلْتَفَتِ إليه هو الذى حرَّك النفس حتى استَعْمَلت آلةَ الالتفات .

واستقصاءُ هذا غيرُ لائق بشرطنا فى ترك الإطَالة ، ولولا ذلك لذكرنا أموراً بديعة من هذا الجنس ، وفى هذا القدر كفايةٌ وبلاغٌ فيما سألتَ عنه .

* * *

فأما مسألتك عن الاتفاق ، وهل هو الوفاق ؟ وما الوفاق ؟ فقد وعدنا بالكلام فيه فى مسألة تجىء بعد هذه .

ولعمرى إن الاتفاق هو الوفاق ؛ لأنه افتعال منه ، والأصل واحد ، والاشتقاق دال عليه .

وسنخبر عنه إخباراً كافياً عند ذكر البخت والجد ، إن شاء الله .

---

(١) فى الأصل « وكانها » .

(٢) فى اللسان : « المدة : طائفة من الزمان تقع على القليل والكثير ، وماد فيها - أى اطالها ، وهى فاعل من المد » .

لماذا لا يرجع عمر الانسان ؟

لِمَ لَمْ يرجع الإنسان ، بعدما شاخ وخَرِفَ ، كهلا ، ثم شابا غريرا ، ثم غلاما صبيا ، ثم طفلاً كما نشأ ؟

وعلام يدل هذا النظم ؟ وإلى أى شَىء يشير هذا الحكم ؟

الجواب

ليست الشيخوخة والهرم نهايةَ نُشوءِ الإنسان ، ولا غايةَ الحركة الطبيعية ، أعنى النامية ، فتروم ـ أيّدك الله ـ أن يعود الشيخ فى مسالكها إلى المبدأ الذى تحرك منه ، بل ينبغى أن تعلمَ أن غايةَ النشوء والحركةِ إنما هى عند منتهى الشباب ثم حينئذ يقف ، وذلك زمانَ التكهّل ، ثم ينحط ، وذلك زمانَ الشيخوخة ؛ وذلك أن الحرارةَ الغريزيةَ التى فى الأجسام المركبةِ من الطبائع الأربع مادامت فى زيادة قوتها فهى تنشىء الجسم الذى هو فيه بأن تجتذب إليه الرطوبات المتلائمةَ بدلَ ما يتحلل منها فتكون غذاءً له ، ثم تبقى بقيه جذبها[1] فضل القوة ـ فاضلة عن قدر الغذاء الذى عوض من المتحلل ، فزادتها فى مساحة الجسم ، ومددت بها أقطاره ، فإذا تناهت القوة وقفت فلم تزد فى الأقطار شيئاً ، بل غايتها حينئذ أن تحفظ على ذلك الجسم أقطاره ومقداره ، بأن تغذيه أعنى أن تجتذب من الرطوبات مقدار ما يسرى فى الجسم عوضا عما تحلل بلا زيادة تنصرف إلى التزييد والتمديد .

ثم إن الحرارة تضعف قليلا ، وتأخذ فى النقصان بعد أن تقف وقفة فى زمان التَّكَهُّل ، فيبتدىء البدن فى النقص ، ويصير الإنسان إلى الانحطاط عن تلك الحركة الأولى ، فلا يزال الغذاء ينقص عن مقدار الحاجة ، فلا يفى ما يعتاض من الرطوبة بما تحلل منها ، فهو كذلك إلى أن يهرم ، ويبلغ إلى الانحلال الذى هو مقابل التركيب الذى بدأ منه ، وهو الموت الصحيح الطبيعى .

وهذه سبيل كل حركة قهرية فى أنها تبتدىء بتزيد ، ثم تنتهى إلى غاية ، ثم تقف وقفة ، ثم تنحط .

ولما كان مزاج الإنسان وكل مركب من الطبائع المتضادة إنما كان بجامع جمعها ، وقاهر قهرها حتى ألَّفها مع تضادها ونفور بعضها من بعض ـ صارت حركتها قهرية ، ومن شأن الحركة القهرية ما ذكرت من أمرها إذا لم يُتبِعْهَا القاهر أبداً ، بقهر بعد قهر . فوجب فى حركة النشوء ما وجب فى كل حركة من جنسها ، ولم يعد الشيخ

---

(١) فى الأصل « جذبتها » .

كهلا ، ثم شاباً ، ثم طفلا ؛ لأن الحركة لم تقع على هذا النظام ، ولا الشيخوخة هى غاية الحركة ، بل هى غاية الضعف ، ونظير الطفولة .

ووسط زمان الإنسان الذى بين الطفولة والشيخوخة هو غايته ، ثم العود فى الانحطاط والحركة يكون على سبيل ما بدأ .

لماذا يعجب الانسان ؟

لم إذا أبصر الإنسان صورةً حسنة ، أو سَمِع نغمة رَخِيمة قال : والله ما رأيت مثل هذا قطّ ، ولا سمعتُ مثل هذا قط ، وقد عَلِمَ أنه سَمِعَ أطْيَبَ من ذاك ، وأبْصَرَ أحْسَنَ من ذاك ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله :

أما بحسب الفقه أو مُقتضى اللّغة فهو غيرُ حانث ولا مخطىء ؛ لأن شيئاً لا يماثل شيئاً بالإطلاق ، ولا يقال فى شىء : هذا مثل هذا إلا بتقييد ، فيكون مثلَه فى جوهره ، أو كميّته ، أو كيفيته ، أوغير ذلك من سائر المقولات ، وقد يماثلُه فى اثنتين منها[1] وأكثر ، فأما فى جميعها فمحال .

فهذا وجههُ صحة قول الإنسان : والله ما رأيتُ مثلَه .

فأما من جهةٍ أخرى ـ وهيٍ جهةٌ طبيعيةٌ ـ فإنك تعلم أن الحسّ سيالٌ بسيلان محسوسة ، فإذا استثبت صورةً ، ثم زالت عنه ، وحضرت أخرى شغلته وثبتت بدلَ الأخرى ، فلا يحصرُ الحس إلا ما قد أثّر فيه دون ما قد زال ، وإنما حصلت الأولى فى الذِّكر ، وفى قوة أخرى ، وربما لم يجتمعا ، أو لم يحضر الذكرُ ، فيكون قول الإنسان على حسب الحاضر ، وحضور الذكر أوغيبته .

لماذا يستحسن الانسان الصورة الحسنة ؟

ما سبب استحسان الصّورة الحسنة ؟

وما هذا الوَلُوعُ الظاهرُ ، والنظر ، والعشقُ الواقعُ من القلب ، والصّبابةُ المتّيمةُ للنّفس ، والفكرُ الطاردُ للنوم ، والخيالُ الماثلُ للإنسان ؟

أهذه كلُّها من آثار الطبيعة ؟ أم هى من عوارض النفس ؟ أم هى من دواعى العقل ؟ أم من سهام الروح ؟ أم هى خاليةٌ من العلَل جاريةٌ على الهَذَر !

وهل يجوزُ أن يوجد مثل هذه الأمور الغالبة ، والأحوال المؤثرة على وجه العبث ، وطريق البَطَل[2] ؟

---

(1) فى الأصل : « فى اثنين منهما » .
(2) فى اللسان : « بطل فى حديثه بطالة وأبطل : هزل . والاسم البطل » .

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله :

أما سبب الاستحسانِ لصورةِ الإنسانِ فكمالٌ فى الأعضاءِ ، وتناسبٌ بين الأجزاء مقبولٌ عند النفس .

وهذا الجوابُ بحسب غرضك من المسألة التى هى مُتوجِّهةٌ نحو الصورة الإنسانية المعشوقة دون غيرها .

وأقول : إن الطبيعة مُقْتَفِيَةُ أفعالَ النَّفْس وآثارَها ، فهى تعطى الهَيُولى والأشياءَ الهَيُولانيَةَ صُوراً بحسب قبولها ، وعلى قدر استعدادها ، وتحكى فى ذلك فعلَ النَّفْس فيها ـ أعنى فى الطبيعة ـ ولكنَّها هى بسيطةٌ ، فتَقْبَلُ من النفس صوراً شريفة تامة ، فإذا أرادت أن تنقش الهيولى بتلك الصّور أعجزت الأُمورَ الهيولانيةَ عن قبولها تامة وافية ؛ لقلّة استعدادها ، وعدمها القوة الممسكة الضابطة ما تُعطاه من الصور التامة .

وهذا العجز فى الهيولى ربما كان كثيراً ، وربما كان يسيراً ، وبحسب قوّتها على قبول الصّور يكونُ حُسْنُ موقع ما يحصلُ فيها من النفس ؛ فإن المادة الموافقة للصّورة تقبل النَّقْش تاماً صحيحاً مشاكِلاً لما قَبِلَتْهَا الطبيعة من النفس . والمادةُ التى ليست بموافقةٍ تكون على الضّد . والمثالُ فى ذلك أن الطبيعة إنما تعمل من المادةِ عندَ تَجْبيل[1] النّاسِ فى الرّحِم الفَطَسَ[2] فى الأنفِ ، والزرقةَ فى العينين ، والصُّهُوبَةَ فى الشَّعْر[3] ، وبحسب قبولِ الهيولَى الموضوعة لها ، لا أنها تقصد الصورَ الناقصةَ ، بل تقصد ـ أبدا ـ الأفضلَ ، ولكنَّ المادةالرطبة تأبَى إلا قبولَ ما يلائمها ، وذلك أن الدَّعجَ فى العين[4] ، والشَّمَمَ فى الأنفِ[5] صورٌ تحتاجُ إلى اعتدال المادة بين الرّطوبة السّيالة ، واليبوسة الصلبة ، ولا يمكنُ إظهارُها فى المادة الرّطبة ، كما لا يمكنُ صياغة خاتم من شمع ذائب .

وربما كانت المادةُ حاجزةً من طريق الكمّيةِ دون الكيفيَةِ فلا تَتم الخِلْقَةُ على أفْضَلِ الهيئات . وكذلك الحالُ فى شَعْر الرأس ، وأهداب العين والحاجب ، فإنها لا تَنْتَقِشُ على ما ينبغي إذا كانت ناقصةَ المادةِ ، أو غيرَ معتدلةٍ في الكيفيات فتعملُ الطبيعة منها ما يمكنُ وَيَتَأَتّى ، فتجيء الصورةُ غيرَ مقبولةٍ عندَ النَّفْس ؛ لأنها لا تطابقُ ما عندَها

---

(١) فى اللسان : « جبل الله الخلق يجبلهم : خلقهم » .

(٢) فى اللسان : « الفطس : انخفاض قصبة الأنف وانفراشها » .

(٣) فى اللسان : « الصهوبة : أن يعلو الشعر حمرة وأصوله سود ، فإذا رهن خيل إليك أنه أسود » .

(٤) الدعج : شدة سواد العين .

(٥) فى اللسان ، « الشمم فى الأنف : ارتفاع القصبة وحسنها ، واستواء أعلاها ، وانتصاب الأرنبة » .

من الكمال . فأما وأنت تتأمَّلُ ذلك من طين الخَتْمِ فإنه إذا كان ناقصَ الكمية غيْر مقدار الخاتمِ ، أو يابساً ، أو رطباً أو خشِناً ـ نقصت صورةُ الخاتمِ ، ولم يقبل النّقش على التَّمام والكمال .

فأما المثالُ فى المادة الموافقة فهو بالضِّد من هذاالمثال ؛ فلذلك تَقْبَل ما تعطيها الطبيعةُ على التمام ، وتَنْتَقِشُ نقشاً صحيحاً مناسباً مشاكِلاً لما فى النفس ، فإذا رأتْهَا النفسُ سُرَّتْ ؛ لأنها موافقةٌ لما عندها مطابقةٌ لما أعطتها الطبيعة .

فكما أن الصناعةَ تَقْتفى الطبيعة ، فإذا صنَع الصانعُ تِمثالاً فى مادة موافقة فقبلت منه الصورةُ الطبيعية تامة صحيحة : فرح الصانعُ ، وَسُرَّ وأُعْجِبَ ، وافْتَخَرَ ؛ لصدقِ أثره ، وخروج ما فى قُوَّته إلى الفعل موافقاً لما فى نَفْسِه ، ولما عند الطبيعة ـ فكذلك حالُ الطبيعةِ مع النفس ، لأن نسبة الصناعة إلى الطبيعة فى اقتفائها إياها كنسبة الطبيعة إلى النفس فى اقتفائها إياها .

ثم إن من شأن النفس إذا رأت صورة حسنة متناسبةَ الأعضاء فى الهيئات والمقادير والألوان وسائر الأحوال ، مقبولةً عندها ، موافِقةً لما أعطتْها الطبيعةُ ـ اشتَاقتْ إلى الاتحاد بها ، فَنزَعَتْهَا من المادة ، واسْتَثْبَتَتْهَا فى ذاتها ، وصارت إيّاها ، كما تفعلُ فى المعقولات .

وهذا الفعلُ لها بالذّات ، له تتحرّكُ ، وإليه تشتاقُ ، وبه تكمُلُ ، إلا أنها تشرف بالمعقولات ، ولا تَشْرُفُ بالمحسوسات .

فإذا فعلت النفس ذلك ، واشتَاقتْ إلى الطبيعيات والأجسام الطبيعية ـ رامت الطبيعةُ فى الأجساد من الاتحاد ما رامتْهُ النفسُ فى الصور المجردة ، فلا يكون لها سبيلٌ إليه ؛ لأن الجسد لا يَتَّصِل بالجسد على سبيل الاتحاد ، بل على طريق المُمَاسَّة ، فتحصلُ حينئذ على الشوق إلى المُمَاسَّة التى هى اتحادُ جسمانىٌّ بحسب استطاعتها .

وهذا من النفس غلطٌ كبير ، وخطأ عظيم ، لأنها تَنْتَكِسُ من الحال الأشْرَفِ إلى الحال الأدْوَن ، وتتصورُ بصورةٍ طبيعيةٍ منها أخذت ، وبها ابتديت ، وتفوتها الصورُ الشريفةُ العقلية التى ترتقى بها إلى الرتبة العليا ، والسعادة العظمى .

وهذا الذى ذكرتُه هو الأمرُ الذّاتىُّ الكلىُّ الجارى على وَتِيرَة طبيعية تَحْصُرُها الصِّناعةُ ، وتَضْبِطُهَا القوانين .

فأما الاستحسان العَرَضِىّ والجزئىّ ـ أعنى ما يستَحْسِنُهُ شخصٌ ما بحسب مِزَاجٍ ما ـ فهو أيضا لأجلِ نسبة ما ، ولكنه يصيرُ شخصياً ، والأمور الشخصية لا نهاية لها فلذلك لا تَنْحصرُ تحتَ صناعةٍ ، ولا لها قانون .

والذى ينبغى أن يُعْلَمَ منها أن كلَّ مِزَاج متباعد من الاعتدال تكونُ له[1] مناسباتٌ نحو أمورٍ خاصةٍ به[2] ، ويخالُفه المزاجُ الذى هو منهُ فى الطرفِ الآخر من الاعتدال حتى يستقبح هذا ما يستحسِنُ هذا ، وبالضِدِّ ، وكذلك ما تقيدهُ العاداتُ والاستشعارات ، وهو موجودٌ فى استلذاذ المأكول والمشروب ؛ فإن الأمزجة البعيدة من الاعتدال تُناسبُ طُعوماً غريبة ، وتستَلِذُّ مِنْهَا طرائف وعجائب . والاستقراء يفيدُكَ كلَّ عجيبة وطريفة من هذاالنحو فى الروائح والسَّماع وجميع الحواس .

لماذا يقتل الانسان نفسه ؟

تُرَى ما السبب فى قَتْل الإنسان نفسَه عند إخفاق يَتوَالى عليه ، وفقر يحوج إليه ، وحالٍ تتمنَّع على حَوْلِهِ وطَوْقِه ، وبابٍ يَنْسَدُّ دون مَطلَبه ومَأربه ، وعشقٍ يَضَيق ذرعا به ، ويَبْعَلُ فى معالجته[3] ؟

وما الذى يرجو بما يأتى ؟ وإلى أى شيء ينحو فيما يقصد ويَنوى ؟

وما الذى يتنصِبُ أمامَه ، ويستهلكُ حصافتَه ، ويُذهله عن رُوحٍ مألوفة ، ونفس معشوقة ، وحياة عزيزة ؟

وما الذى يخلص إلى وَهْمِهِ من العدم حتى يسلبه من قبضة الواجدان ويُسْلِمْه إلى صرْف الحدثان ؟

الجواب

قال أبو عليٍ مسكويه ـ رحمه الله :

الإنسان مركب من ثلاث قوى نفسانية ، وهو كالواقف بينها تجذبه[4] مرة ، وهذه مرة . وبحسَبِ قوةِ إحداها على الأخرى ، يميل بفعله ، فرُبما غلب عليه القوة الغضبية ، فإذا انصبغ بها ، ومال بفعله إليها ظهرت قوته كلَّها كما غضبٌ ، وخفيت القوى الأخرى حتى كأنها لم توجَد له ، وكذلك إذا هام به القوّة الشهويّة خفِيَتْ آثار القوى الأخر .

وأحْصَفُ ما يكون الإنسانُ ، وأحْسَنُه حالاً إذا غلبتْ عليه القوَّة النامية فإن هذه القوة هى المُميزةُ العاقلةُ التى تُرَتِّبُ القوى الأخرى حتى تظهر بحسب ما تحدّه وترسمه .

والإنسانُ حينئذ نازل بالمنزلة الكريمة بحيث هيَّأهُ الله تعالى ، وكما أراد . فإذا كان الأمر كذلك فَغَيْرُ مُنْكَر أن تهيج بالإنسان بعضُ القُوى منه عند التواء أمر

---

(١) فى الأصل : « لها » .

(٢) فى الأصل : « بها » .

(٣) فى اللسان : « البَعَل » : الضجر والتبرم بالشيء ، وبعل بامره بعلافهو بعل : برم فلم يدر كيف يصنع فيه » .

(٤) فى الأصل : « يجذبها » .

عليه ، أو انسدادِ باب دون مَطلب لهُ ، فيظهر منه لا توجِبُه رَوِيَّةٌ ، ولا يَقتضيه تَمييزٌ ؛ لَخِفَاء أثرِ القُوّةِ الناطقة ، واستمداد القوّة الأخرى .

وأنت تجد ذلك عِيانا عند الأحوال المختلفة بك ؛ فإنك تجد نفسك فى أى على أحوال مؤثرة لها ، قاصدة إليها ، غير مصغية إلى نصيح ، ولا قابلة أمر حتى إذا أَفَقْتَ من تلكَ السكرة التى غلبت عليكَ فى تلك الحال - من الأفعال التى ظهرت منك ، وأَنْكَرْتَ نفسَك فيها ، وكأنَّ غيرك كان الذى آثرَها ، وقصد إليها ، فلا تزالُ كذلك حتى تَهيجَ بك تلك القوّةُ الأولى مرّةً أخرى ، فلا يمنعُك ما جرّبْتَهُ من نَفْسِكَ ، ووعَظْتَها به - أن تقع فى مثله . وسببُ ذلك التركيبُ من القُوَى المختلفةِ النفسانيةِ .

وليس يمكِنُ الإنسان أن يخلصَ بقوّةٍ واحدةٍ ، ويُصْدِر أفعالَ الباقيةِ بِحَسَبِ التى هى أفضلُ وأشرفُ إلا بعد معالجة شديدة ، وتقويم كثير ، وإدْمَان طويل ؛ فإنّ العادة إذا استمرت ، والعزيمة إذا أُنْفِذَت فى زمان متصل طويل - حَصَلَ منها خُلُق ، فكان الحكمُ له ، وصارٍ هو الغالبُ ؛ ولذلك نأمر الأحداثَ بالسيرة الجميلة ، ونُؤَاخِذُهُمْ بالآداب التى تسنها الشّرائع ، وتأمر بها الحكمة .

واستقصاءُ هذا الكلامِ ، وذكر علله لا تقتضيه المسألةُ ، ولا يفى به المكان .

فإن شك فيما قُلنا شاكٌ ، وظن أن الإنسانَ المركَّبَ من القوى الثلاثة يجب أن يكون لازما لأمر واحد متركب من تلك القوى كما نجدُ الحالَ فى سائر المعجونات والمركَّبات من الطبيعة ، فَلْيَعْلَمْ أن مِثالَه ليس بصحيحٍ ؛ لأن قوى الإنسان نفسانية ، لها من ذاتها حركات تزيد[1] وتنقص ،وأحوال - أيضاً - تهيجها. وليست كذلك قوى الطبيعيات ، فَلتنْعم النظر فى ذلك تجده كما أومأنا إليه وذكرناه .

من القاتل ؟

سألتُ بعضَ مشايخنا بمدينة السّلام عنٍ رجل اجتاز بطرف الجسر ، وقد اكتنفه الجَلَاوِزَة[2] يسوقونه إلى السّجنِ ، فأبصر موسى وميضَةً فى طرفِ دكان مزين ، فاختطفها كالبرق ، وأمَرَّها على حُلْقُومِهِ ، فإذا هو يَخُورُ فى دمائه ، قد فارقَ الرّوحَ وودّعَ الحياةَ . فقلْتُ : من قَتَل هذا الإنسان ؟

فإذا قلنا : قتل نفسه ، فالقاتلُ هو المقتولُ ، أم غير المقتول ؛ فإن كان أحدُهما غير الآخر ، فكيف تواصلا مع هذا الانفصال ؟

وإن كان هذا ذاكَ ، فكيف تفاصلا مع هذا الاتصال ؟

وإنما شيّعت المسألة الأولى بهذا السؤال لأنه ناحٍ نحوَها ، وقافٍ أَثَرَهَا .

---

(١) فى الأصل : « ... نفسانية من ذاتها حركات وتزيد » .

(٢) الجلاوزة : جمع جلواز ، وهو الشرطى .

الجـواب

قال أبوعلى مسكويه ـ رحمه الله ـ :

كأن هذه المسألَةَ مَبْنِيَّةٌ على أن الإنسانَ شيءٌ لا كَثْرَةَ فيه والشّبهةُ فيها من هذا الوجه تَقْوى ، فإذا بان أن للإنسان قوى كثيرة وهو مُرَكَّبٌ منها ، وأنه يميل فى وقت ما نحو قوة ، وفى وقت آخر نحو غيرِها ، وأن أفعاله ـ أيضاً ـ بحسب ميله[1] إلى إحدى القوى ، وغلبتها عليه ، كما بيناه فى المسألة التى قبل هذه ـ زال هذا الشك .

***

فأما قوله : كيف تواصلا مع هذا الانفصال ؟ فأقول :

إن السبب فى ذلك أن البارى تعالى لما علم أن هذا المركَّبَ من نفس وجسد يحتاجُ إلى أشياءَ تُقِيمهُ من غذاءٍ وغيره ، وأنه لا قوامَ لحياته إلا بمادّة ، وكان لا يصلِ إلى تلك المادة إلا بحركة وسعى ، وكانت العائقاتُ والمانعاتُ عنها كثيرةً ـ أعطاه قوةً يصل بها إلى حاجاته ، ويدفعُ بها أضْدَادَهَا عن نفسه ؛ ليتمّ له البقاء .

ومن شأن هذه القوة أن تهيجَ وتثُورَ فى أوقات بأكثرَ مما ينْبغى ، وفى أوقات تَقْصُر عّما ينبغى .

فهذه جملة من القول فى الفِرَاسة .

وينبغى أن تَحذرَ الحكم بدليل واحد ، وتتوخى جميع الدلائل من الأصول الثلاثة ؛ لتكون بمنزلة شهود عدول لا يَتَداخَلُكَ الشّك فى صدقهم ، فيكون حكمك صادقا ، وفراستك صحيحة ، وذلك بحسب دُرْبَتِك بالصناعة بعد معرفتك بالأصول .

وما أكثر الانتفاع بهذا العلم وأحْضره ؛ فإنى أرى فى الجَوَلَانِ الذى يَتَّفِق لى فى الأرض ، وكثرة الأسفار أنْ أرى ضروبا من الناس ، وأخالط أَخْيَافَ الأمم[2] ، وأشاهد عجائب الأخلاق فأستعمل الفراسةَ ، فيعظم نفعها ، وتتعجل فائدتها .

والفراسة ربما تخطىء فى الفيلسوف التام الحكمة ووجه ذلك[3] أنه ربما كان ذا مزاج فاسد ، وخلق ـ بالطبع ـ مُشَاكِل له ، فيصلحه ، ويهذّبه بطول المُعَانَاة ، وتَعَاهُدِ نَفْسه بدوام السِّيرة الحميدة ، ولزوم السّجايا الرّضِيَّةِ ، كما يحكى عن أفْليمون[4] ، وهو أول من سبق إلى هذا العلم ، فإنه حمل إلى أبقراطيس وهو متنكر فدخل إليه وهو

---

(١) فى الأصل : « مثله » .

(٢) فى اللسان : « الأخياف : الضروب المختلفة فى الأخلاق والأشكال ومن الناس : الذين أمهم واحدة وآباؤهم شتى . يقال : الناس أخياف : أى مختلفون لا يستوون » .

(٣) فى الأصل : « التام الحكمة ووحده وذلك » .

(٤) راجع ترجمته فى أخبار الحكماء ص ٤٤

لا يعرفه ، فلما تأمله حَكم عليه : زَانٍ ، فَهَمَّ أصحابه بالوُثوب عليه ، فنهاهم أبقراطيس وقال : قد صَدَقَ الرّجلُ بحسب صناعته ، ولكنى بالقهر أمنعُ نفسى من إظهار سجيَّتها[1] .

لماذا يحرص الانسان على ما منع منه ؟

ماسِرُّ قولهم : الإنسان حريص على ما مُنِع ؟
ولم صار هذا هكذا ؟
وكيف يسرع المَلَلَ[2] مما بُذِلَ[3] ، ويُضَاعِفُ الوَلُوعَ بطلب ما بُخِلَ به ؟
هَلاَّ كان الحرصُ فى مقابلة ما وجد ، والزّهد فى مقابلة ما مُنِع ؟
ولهذا ما صار الرخيص مَرْغُوباً عنه ، والغالى مرغوباً فيه ، ولهذا إذا ركب الأمير لا يُحْرص على رؤيته ما يُحْرصُ على رؤية الخليفة إذا بَرَز .

الجواب

قال أبو مسكويه ـ رحمه الله ـ :

إنّ النّفْس غنية بذاتها ، مكتفية بنفسها ، غير محتاجة إلى شىء خارج عنها .

وإنما عرض لها الحاجة والفقر إلى ما هو خارج منها لمقارنتها الهيولى ، وذلك أن أمْرَ الهيولى بالضد من أمر النَّفْس فى الفقر والحاجة ، والإنسان لما كان مركباً منها عرض له التَّشَوُّفُ[4] إلى تحصيلِ المعارف والقُنْيَات .

أما المعارف والعلوم فهو يُحَصِّلُها فى شبيه بالخِزانة له ، يرجع إليه متى شاء ، ويستخرج منه ما أراد ، أعنى القوة الذاكرة التى تُسْتَوْدَعُ الأمورَ التى تُسْتَفَادُ من خارج ، أعنى من العلماءِ والكتب ، أو التى تُسْتَثَارُ بالفِكْرِ والرَّوِيّة من داخل .

وأما القُنْيَاتُ والمحسوسات فإنه يَرومُ منها ما يروم من تلك التى تقدم ذكرها فلذلك يغلط فيها ، ويخطىء فى الاستكثار منها إلى أن يتنبَّه بالحكمة على ما ينبغى أن يُقْتَنَى من العلوم والمحسوسات فيقصد نحو القصد من الأمرين جميعا ، ويقف عنده .

***

وإنما حرص على ما مُنِعَ لأنّه إنما يطلب ما ليس عنده ، ولا هو موجود له فى خِزَانَته فيتحرك لاقتنائه وتحصيله بحسب ميله إلى أحد الأمرين ، أعنى المعقول أو

---

(١) راجع أخبار الحكماء ص ٦٤ ـ ٦٥ .
(٢) فى الأصل : « الملك » .
(٣) فى اللسان : « البذل : ضد المنع . بذله يبذله ويبذله بذلا . أعطاه وجاد به » .
(٤) فى اللسان « وتشوفت إلى الشىء : أى تطلعت . ورأيت نساء يتشوفن من السطوح : أى ينظرن ويتطاولن » .

المحسوس ، فإذا حصَّلَه سكن من هذه الجهة ، وعلم أنه قد ادخره ، ومتى رجع إليه وجده ، إن كان مما يبْقى بالذاتِ ، وتَشوَّفَ إلى جهة أخرى ، ولايزال كذلك إلى أن يعلم أن الجزئيات لا نهاية لها ، وما مالا نهاية له فلا طمع فى تحصيله ، ولا فائدة فى النِّزَاعِ[1] إليه ، ولا وجه لطلبه ، سواءٌ كان فى المعلوم أو فى المحسوس .

وإنما ينبغى أن يقصد مِنَ المَعْلُومَاتِ إلى الأنواع والذوات الدائمة السرمدية الموجودة أبدا بحالة واحدة ، ويكون ذلك برد الأشخاص التى بلا نهاية إلى الوحدة التى يمكن أن تتأحد بها النفس ، ومِنَ المَحْسُوسَاتِ المُقْتَنَاةِ إلى ضَرُورَاتِ البَدَنِ ومُقِيماتِه دون الاستكثار منها ؛ فإن استيعاب جميعها غير ممكن لأنها أمور لا نهاية لها .

فإذن كل ما فَضَلَ عن الحاجة ، وقَدْرِ الكِفَاية فهو مادة الأحزان والهموم والأمراض ، وضُرُوب المكاره .

والغلط فى هذا الباب كثير ، وسبب ذلك طمع الإنسان فى الغنى من معدن الفقر ؛ لأن الفقر هو الحاجة ، والغنى هو الاستقلال ، أعنى ألا يحتاج بَتَّةً ؛ ولذلك قيل إن الله ـ تعالى ـ غنى ؛ لأنه غير محتاج بتة .

فأما من كثرت قُنْيَاتُه فإنه ستكثر حاجاته بحسب كثرة قنياته وعلى قدر مُنَازَعَتِهِ إلى الاستكثار تَكْثُرُ وجوه فقره ، وقد تبيَّن ذلك فى شرائع الأنبياء ، وأخلاق الحكماء .

فأما الشىء الرَّخيصُ الموجودُ كثيرا فإنما رُغِبَ عنه لأنه معلوم أنه إذا التُمِسَ وُجد ، وأما الغالى فإنما يُقْدرُ عليه فى الأحيان ويُصِيبُه الواحدُ بعد الواحدِ ، فكلُّ إنسان يتمنى أن يكون ذلك الواحد ؛ لِيَحْصُل له ما لم يحصل لغيره ، وذلك من الإنسان على السبيل الذى شرحناه من أمره .

لماذا ينظر الانسان فى العواقب ؟

ما سبب نظر الإنسان فى العواقب ؟

وما مثارُه منها ؟ وما آثاره فيها ؟

وما الذى يَحْلَى بِهِ[2] إذا استقصى ؟ وما الذى يَتَخَوَّفُه إذا جَنَحَ إلى الهُوَيْنَى ؟

---

(1) فى اللسان : « ونازعتنى نفسى إلى هواها نزعا : غالبتنى . ويقال للإنسان ، إذا هوى شيئاً ونازعته نفسه إليه : هو ينزع إليه نزعا » .

(2) فى اللسان « وحلى بقلبى وعينى يحلى . وحلى يحلو حلاوة وحلوانا : إذا اعجبك وهو من المقلوب والمعنى يحلى بالعين » .

أو ما مراد الأوَّلين فى قولهم : المُحْتَفِلُ[1] مُلَقى[2] ، والمُسْتَرْسِلُ مُوقًى[3] .

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله ـ :

أما نظر الإنسان فى العواقب فيكون لأمرين .

أحدهما لِتَطَلُّعه إلى الأمور الكائنة ، وشوقِه إلى الوقوف على الأمر الكائن قبل حدوثه ، لما تقدم فيه من الكلام فى المسألة الأولى .

والآخر لأخذ الأُهْبَة له إن كان مما ينفع فيه ذلك ؛ ولهذا المعنى اشتاق الإنسان إلى الفأل والزَّجْر إذا عدم جميع وجوه الاستدلال من أشكال الفَلَك ، وحركات النجوم ، وربما عدل إلى المُتكِهِّن ، وصدَّق بكثير من الظنون الباطلة .

***

وأما قول المتقدمين : « المحتفل مُلَقًّى ، والمسترسل مُوَقًّى » فهو على ظاهر كالمُنَاقِضِ للحكم الأول ؛ وذلك أن الإشارة فى هذا المثل هو إلى أنَّ المُحْتَفِلَ إنما يَتَوَقَّى ما لابد أن يصيبه ، فهو يجتهد أن يخرج من حكم القضاء أعنى موجبات الأقدار بتوسط حركات الفلك ، فيصير اجتهادُه فى الخروج منه سببا لحصوله فيه ، ووقوعه عليه . وإلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله :

وإذا حَذِرْتَ من الأمور مُقَدَّراً   وهَرَبْتَ منه فَنَحْوَهُ تَتَوَجَّهُ

فأمَّا المُسْتَرْسِلُ إلى ذلك ، الرَّاضى به فإنه مُوَقًّى مما هو غيرُ مَقْضِىّ ، ولا هو بمصيب له وإن لم يَتَوَقَّه ، كما قال الشاعر فيمن كان بغير هذه الصِّفة :

حَذِرٌ أُموراً لا تَكُونُ وَخَائِفٌ   ما ليس مُنْجِيهِ من الأقْدَارِ

ويتَّصل بهذا الباب شرح ما يجب أن يُتَوَقَّى ، وما يجب ألا يُتَوَقَّى ، أعنى بذلك ما يغنى فيه الفِكْرُ والرَّوِيَّة ، وما لايغنى فيه . وإذا مر ما يقتضيه من الكلام استقصيته إن شاء الله .

ماذا يلحق الانسان من قرينه ؟

ما يصيبُ الإنسان من قَرِينِه فى خيره وشرِّه ؟
وكيف صار يُؤَثِّرُ الشِّرِّيرُ فى الخَيِّر أسرع مما يُؤَثِّرُ الخَيِّر فى الشِّرير ؟
وما فائدة النَّفس فى المقارنة ؟

---

(1) فى اللسان : « الحفل : المبالاة . يقال : ما احفل بفلان ، اى ما أبالى به . وحفلت كذا وكذا : اى باليت به » .

(2) فى اللسان رجل ملقى : أى لايزال يلقاه مكروه .

(3) فى اللسان « وقاه الله وقاية بالكسر : اى حفظه . والتوقية الكلاءة والحفظ قال : * إن الموقى مثل ما وقيت * .

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله ـ :

ينال القرين من قرينه الاقتداء والتّشبّه ، وكما أن كل متجاورين من الأشياء الطبيعية لابد أن يؤثر أحدهما فى الآخر فكذلك حال النفس ؛ وذاك أن الطبيعة مُتَشَبِّهة بالنَّفْس ؛ لأنها شبيهة بظل النفس ، ومن شأن الشىءِ الأقوى فى الطبيعة أن يُحيل الأضعفَ إلى نفسه ويُشبِّهه بذاته ، كما تجد ذلك فى الحار والبارد ، والرّطب واليابس ؛ ولأجل تأثير المجاور فى مجاوره حدثت الأمراض فى البدن ، وبسببه عُولِجَ بالأدوية .

ولما كانت النَّفْس التى فينا هيولانية[1] صار الشر لها طباعا ، والخير تكلُّفاً وتعلُّما ، فاحتجنا ـ معاشر البشر ـ أن نتعب بالخير حتى تَسْتَفيده ونَقْتَنيه ، ثم ليس يكفينا تحصيلُ صورته حتى نألفه ، ونتعوده ، ونُكَرِّر زمانا طويلا الحالةَ التى حصلَت لنا منه على أنفسنا ؛ لتصير مَلَكَةً وسجيَّة بعد أن كانت حالا .

فأما الشر فلسنا نحتاج إلى تعب به ، وتحصيله ، بل يكفى فيه أن نُخَلِّى النَّفْسَ وسَوْمَهَا[2] ، ونتركها على طبيعتها ، فإنها تخلو من الخير ، والخُلُوّ من الخير هو الشرّ ؛ لأنه قد تبيَّن فى المباحث الفلسفية أنه ليس الشر بشىءٍ له عين قائمة ، بل هو عدمُ الخير ؛ ولذلك قيل : الهيولى معدن الشر وينبوعه لأجلِ خُلُوِّها من جميع الصُّور ، فالشرّ الأول البسيط هو عدم ، ثم يتركب ، وسبب تركّبه الأعدامُ التى هى مقترنة بالهيولى .

وشرح هذا الكلام طويل ، إلا أن الذى يحصل لك من جواب المسألة فيه أنَّ النَّفْسَ تتشبَّه بالنفس المقارنة لها ، وتقتدى بها ، والشرّ أسرع إليها من الخير ؛ لما ذكرناه وهو أنَّ النَّفْسَ التى فينا هى هيولانية ، وأعنى بهذا القول أنها قابلة للصّور من العقل ، فالمعقولات إنما تصير معقولات لنا إذا ثبتت صورها فى النفس ، ولذلك قال أفلاطون : إن النفسَ مكانٌ للصور . واستحسن ارسطاليس هذا التّشبيهَ من أفلاطون ؛ لأنه استعارةٌ حسنةٌ ، وإيماءٌ فصيحٌ إلى المعنى الذى أراده .

فيجب ـ على هذا الأصل ـ أن نتوقَّى مُجالَسَةَ الأشرار ، ومخالَطَتَهُمْ ، ومقارنَتَهُمْ ، ونقبَلَ قولَ الشاعر :

---

(١) فى الأصل « لاهوتية » .

(٢) فى اللسان « وخليته وسومه : اى وما يريد » .

عن المرء لا تسأل وأبصِرْ قرينَهُ   فإنَّ القرينَ بالمقارن مقتدِ[1]

وينبغى أن نأخذَ الأحداثَ والصبيانَ به أشدَّ الأخذِ فقد مرَّ فى مسألةٍ ما يحقِّقُ هذا المعنى ، ويؤكِّدُه ، وينبِّه عليه .

لماذا يتظاهر الانسان ؟

ما وجه تسخيف من أطال ذيلَة وسحَبَه ، وكبَّر عمامته ، وحشا زِيقَه[2] قُطْناً وعرَّض جَيْبَه تعريضا ، ومشى مُتَبَهْنِساً[3] ، وتكلَّم مُتَشَادِقاً ؟

ولم شَنُعَ هذا ونظيره ؟ وما الذى سَمَّجَ هذا وأمثالَه ؟

ولِمَ لَمْ يُتْرَكْ كلُّ إنسانٍ على رأيه واختيارِه ، وشهوتِه وإيثارِه ؟

وهل أَطْبَقَ العقلاء المُمَيِّزُون ، والفضلاءُ المُبَرِّزُون على كراهة هذه الأمورِ إلَّا لِسِرٍ خاف ، وخَبِيئَةٍ موجودة ؟

فما ذلك السر ؟ وما تلك الخَبِيئَة ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله ـ :

يُنكر مما ذكرتَه كلُّه التكلفُ ، وذاك أن من خالف عاداتِ الناسِ فى زيهم ، ومذاهِبهم ، وتفرَّد من بينهم بما يُبايِنُهُمْ ، ثم احتمل مؤونَة ما يتجشمه ، فليس ذلك منه إلا لغرض مخالفٍ لأغراضهم ، وقصدٍ لغيرَ ما يقصدونه : فإن كان غايتُه من هذه الأشياءِ أنْ يشهر نفسَه ، ويُنَبِّهَ على موضِعِه فليس يَعْدو أن يُوهِمَ بها أمراً لا حقيقةَ له ، ويطلُبَ حالا لا يستحقُّها ؛ لأنه لو كان يستحقها لظهرت منه ، وعُرِفَتْ له من غير تكلُّف ولا تجشُّم لهذه المؤن الغليظة ، فإذن هو كاذب فعلا ، ومزوِّرٌ باطلا وما تعاطى ذلك إلَّا لِيَغُرَّ سليما ، ويخدعَ مسترسِلا . وهذا مذهب المحتالِ الذى يُتَحَرَّزُ منه ، ويتباعَدُ عنه . هذا إلى ما يجمعه من بديهة المخالفة ، والمخالفةُ سببُ الاستيحاش ، وعلةُ النفور ، وأصلُ المعاداة .

وإنما حرَص الناس وأهلُ الفضل ، وحرص لهم الأنبياء عليهم السلام بما وضعوه لهم من السنن والشرائع ؛ لتحْدُثَ بينهم الموافقةُ والمناسبةُ التى هى سبب المحبَّات ، وأصل المودَّات ؛ ليتشاركوا فى الخيرات ، ولتَحْصُلَ لهم صورة التأحُّد الذى هو سبب كل فضيلة ، ولأجله تمَّ الاجتماع فى المدنيَّة الذى هو سبب حسن الحال فى العيش والاستمتاع بالحياة والخيرات المطلوبة فى الدنيا .

---

(١) يروى « وسل عن قرينه » والبيت لعدى بن زيد كما فى عيون الأخبار ٧٩/٣ وحماسة البحترى ٣٠٧ ومجموعة المعانى ص ١٤ ونهاية الأرب ٦٢/٣ وجمهرة أشعار العرب ص ١٠٣ وورد منسوبا لطرفة كما فى ديوانه ص ١٥٣ .

(٢) فى اللسان « زيق القميص : ما احاط بالعنق » .

(٣) فى اللسان « يتبهس : إذا كان يتبختر فى مشيه » .

لماذا الخوف بلا مخيف ؟

ما سبب استشعارِ الخوفِ بلا مُخِيف ؟

وما وجهِ تجلُّدِ الخائف والمصابِ كراهةَ أنْ يوقَفَ منه على فُسُولَةِ طبعه ، أو قلَّةِ مكانتِه ، أو سوءِ جَزَعِهِ ، هذا مع تخاذُلِ أعضائه ، وبَدَائِهِ على ما به ، واستِحَالةِ أعراضِهِ ، وَوجِيب قلبِه ، وظهورِ علاماتِ ما إذا أراد طيَّهُ ظهر على أسِرَّةِ وجهه ، وألحاظ عينيه ، وألفاظِ لسانِه ، واضطراب شمائله ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه ـ رحمه الله ـ :

سبب ذلك توقُّعُ مكروه حادث ، فإن كان السبب صحيحاً قويا ، والدليلُ واضحاً جليًّا كان الخوف فى موضعه .

وإن لم يكنْ كذلك ، وكان من سوءِ ظنٍ ، وفسادِ فكرٍ فهو مرضٌ أو مزاجٌ فاسد من الأصل .

ثم بحسب ذلك المكروه يَحْسُنُ الصبرُ ، ويُحْمَدُ احتمال الأذى العارضِ منه وتَظْهَرُ من الإنسان أماراتِ الشجاعة أو الجبنِ .

وأثبتُ الناسِ جنانا وجَأْشًا ، وأحسنُهُمْ بصيرةً ورَوِيَّةً لابد أنْ يضطربَ عند نزول المكروه الحادث به ، الطارىء عليه ، لاسيما إنْ كان هائلا ؛ فإن أرسططاليس يقول : « من لم يجزعْ من هَيْجِ البحر وهو راكبه ، ومن الأشياء الهائلةِ التى فوق طاقةِ الإنسانِ فهو مجنون » .

وكثيرٌ من المكاره يجرى هذا المجرى ويُقاربُه ، والجزَعُ لا حقٌّ بالمرء على حسَبِهِ ومقدارِهِ : فإن كان المكروهُ والمتوقَّعُ مما يُطيقُ الإنسان دَفْعَهُ أو تخفيفَهُ فذهبَ عليه أمرُهُ ، واستولى عليه الجزع ، ولم يتماسكْ له فهو جبان جزوعُ مذمومٌ من هذه الجهة .

ودواؤه التدرُّبُ باحتمال الشدائد وملاقاتِها ، والتصبُّرُ عليها ، وتَوْطِينُ النفسِ لها قبل حدوثها ؛ لئلا تَرِدَ عليه وهو غافلٌ عنها ، غيرُ مستعِدٍ لها .

وإذا كانت الشجاعة فضيلة ، وكانت ضدُّها نقيصة ورذيلة ؛ فَمَن الذى لا يحبُّ أن يَسْتُرَ نقيصتَهُ ، ويُظْهِرَ فضيلتَهُ ، مع ما تقدم من قولنا فيما سبق . إن كلَّ إنسانٍ يعشق ذاتَه ، ويحب نفسَه ؟

لماذا يغضب الانسان ؟

ما سبب غضبِ الإنسان وضجرِه إذا كان مثلا يفتح قفلا فيتعسَّرُ عليه حتى يُجَنَّ ، ويَعَضُّ على القُفل ، ويَكْفُرَ ، وهذا عارضٌ فاشٍ فى الناس ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله ـ :

هذا العارض وشبهُهُ من أقبح ما يعرض للإنسان ، وهو غيرُ معذورٍ ، إنْ لمْ يُصْلِحْهُ بالخلُقِ الحسنِ المحمودِ ؛ وذلك أنَّ الغضبَ إنما يثور به دمُ القلب لمحبَّةِ الانتقام ، وهذا الانتقامُ إذا لم يكنْ كما ينبغي ، وعلى من ينبغي ، وعلى مقدار ما ينبغي فهو مذموم ، فكيف به إذا كان على الصور التى حكيتها .

فأما سؤالُكَ عن سبب الغضب فقد ذكرتَه وأجبتُ عنه ، وإذا ثَارَ فى غير موضعِه فواجبٌ على الإنسانِ الناطقِ المميِّزِ أن يُسكِّنه ، ولا يستعجله ، ولا يجرى فيه على منهاج البهيمة ، وسنَّةِ السُبع ؛ فإنَّ من أعانَهُ بالفكرة ، وألهبَه بسلطان الروِّية حتى يَحْتَدِمَ ويتوقَّدَ فإنه سَيَعْسُرُ بعد ذلك تلافيه وتسكينهُ ، والإنسانُ مذمومٌ به إذا تركه وسَوْمَ الطبيعة ، ولم يُظْهِرْ فيه أثر التمييز ، ومكانَ العقلِ .

وجالينوس[1] قد ذكر فى كتاب الأخلاق حديثَ القُفْلِ بعينه ، وتعجب من جهل من يفعل ذلك ، أو يرفُسُ الحمار ويَلْكُمُ البغلَ ، فإن هذا الفعلَ يدل على أن الإنسانيَّةَ يسيرةٌ فى صاحبه جدا ، والبهيميَّةُ غالبةٌ عليه ، أعنى سوءَ التمييز وقلةَ استعمالِ الفكر .

وليس هذا وحدَهُ يعرض لحشْوِ الناس وعامّتِهم ، بل الشَهوةُ والشَّبَقُ وسائرُ عوارضِ النَّفْسِ البهيمية والغضبيَّةِ إذا هاج بهم ، وابتدأ فى حركته الطبيعيَّةِ لم يستعملوا فيه ما وهبه الله ـ تعالى ـ لهم ، وفضَلَهُمْ به ، وجَعَلَهُم له أَناسِىّ ، أعنى أثرَ العقل بحُسْنِ الرَّويَّة ، وصحَّة التمييز ، والله المستعان ، ولا قوَّة إلا به .

لماذا .. العداوة سهلة والصداقة صعبة ؟

لم كان الإنسان إذا أردا أن يتخذ عِدَّةَ أعداء فى ساعة واحدة قَدَرَ علي ذلك ، وإذا قصد اتخاذ صديق ومُصَافَاةَ خِدْنٍ واحد لم يستطع إلا بزمان واجتهاد وطاعة وعَزْم ؟

وكذلك كل صلاح مأمول ، ونظام مطلوب فى جميع الأمور ، ألا ترى أن الفَتْقَ أسهل من الخياطة ، والهدم أيسر من البناء ، والقتلَ أخف من التربية والإحياء ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله ـ :

جواب مسلتك هذه منها . وما أشبهها بحكاية سمعتها عن الأصمعى ، وذاك أنه بلغنى أن قارئاً قرأ عليه :

---

(١) راجع فهرست ابن النديم ص٤٠٢ ـ ٤٠٣ ، واخبار الحكماء ص ٨٥ .

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
فقال : يا أبا سعيد : ما الألمعى ؟
فقال : الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا .
فأنا قائل فى هذه المسألة أيضا :
إنما صار الإنسان قادراً على اتخاذ الأعداء بسرعة ، وغير قادر على اتخاذ الأصدقاء إلا فى زمان طويل ، وبغرامة كثيرة لأن هذا فَتْق ، وذاك رَتْق ، وهذا هدم ، وذاك بناء . وسُقْ باقى كلامك فإنه جوابك .

لماذا يحب الانسان الرئاسة ؟

ما السبب فى محبة الإنسان الرئاسة[1] ؟
ومن أين ورث هذا الخلق ؟
وأى شىء رمزت الطبيعة به ؟
ولم أفرط بعضهم فى طلبها ، حتى تَلَقَّى الأسِنَّةَ بنَحْرِه ، وواجه المُرْهَفَات بِصَدْرِه ، وحتى هجر من أجلها الوِساد ، وودّع بسببها الرّقاد ، وطَوَى المَهَامِهَ والبلاد ؟
وهل هذا الجنس من جنس من امتعض فى ترتيب العنوان إذا كوتب أو كاتب ؟
وما ذاك من جميع ما تقدم ؟ فقد تَشاحَّ النَّاسُ فى هذه المواضع وتباينوا وبَلَغُوا المبَالِغ .

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله ـ :
قد تبين أن فى الناس ثلاث قوى ، وهى : الناطقة ، والبهيميّة ؛ والغضبيّة .
فهو بالناطقة منها يتحرَّك نحو الشهوات التى يتناول بها اللّذات البدنية كلها . ويظهر أثرها من الكبد .
وبالغضبية منها يتحرَّك إلى طلب الرئاسات ، ويشتاق إلى أنواع الكرامات ، وتعرض له الحَمِيَّةُ والأَنَفَةَ ، ويَلْتَمِس العزَّ والمراتب الجليلة العالية ، ويظهر أثرها من القلب .
وإنما تقوى فيه واحدة من هذه القوى بحسب مزاج قوة هذه الأعضاء التى تسمى الرئيسية فى البدن .
فربما خرج عن الاعتدال فيها إلى جانب الزيادة والإفراط ، أو إلى ناحية النقصان والتفريط ، فيجب عليه حينئذ أن يعدِّلها ويَرُدَّها إلى الوسط ـ أعنى الاعتدال الموضوع

---

(١) فى الأصل : « ما سبب الإنسان فى محبة الرياسة » .

له ـ ولا يسترسل لها بترك التقويم والتأديب ؛ فإن هذه القوي تَهيجُ لما ذكرناه .

فإن تُرِكَتْ وَسَوْمَهَا ، وتَرَكَ صاحبُها إصلاحَها وعلاجَها بالأعْقَال واتباع الطبيعة تَفَاقَمَ أمرُها ، وغلبت حتى تَجْمَح إلى حيث لا يُطْمَع فى علاجها ويُؤْيس من بُرْئِها .

وإنما يُمْلكُ أمرُها وتأديبُها فى مبدأ الأمر بالنَّفْس التى هى رئيسة عليها كلها ـ أعنى المميِّزة العاقلة ، التى تِسمى القوة الإلهية ـ فإن هذه القوة ينبغى أن تستولى ، وتكون لها الرئاسة على الباقية .

فمحبة الإنسان للرئاسة أمر طبيعى له ، ولكن يجب أن تكون مُقوِّمَة ؛ لتكون فى موضعها ، وكما ينبغى .

فإن زادت أو نقصت فى إنسان لأجل مزاج أو عادة سيئة وجب عليه أن يُعَدِّلَها بالتأديب ؛ ليتحرك كما ينبغى ، وعلى ما ينبغى ، وفى الوقت الذى ينبغى .

وقد مضى من ذكر هذه القوى وآثارها فى موضعه ما يجب أن يقتصر بها هنا على هذا المقدار . ونقول :

إنه كما يعرض لبعض الناس أن يلقى الأسنّة بنحره ، ويركب أهوال البر والبحر لنيل الشهوات بحسب حركة قوة النفس البهيمية فيه ، وتَرْكِهِ قَمْعَها ـ فكذلك يعرض لبعضهم فى نهوض قوة النفس الغضبية فيهم إلى نيل الرئاسات والكرامات ـ أَنْ يَرْكَبَ هذه الأَهْوَالَ فيها .

ومدارُ الأمر على العقل الذى هو الرئيس عليها ، وأن يجتهد الإنسان فى تقوية هذه[1] النفس ؛ لتكون هى الغالبة ، وتَتَعَبَّدَ القوتان الباقيتان لها حتى تُصْدِرَ عن أمره وتتحرَّكَ لما ترسُمه ، وتقف عندما يحده ؛ فإن هذه القوة هى التى تسمى الإلهية ، ولها قوة على رئاسة تلك الأخر ، وهداية إلى علاجها وإصلاحها ، واستقلال بالرئاسة التامة عليها ، ولكنها ـ كما قال أفلاطون ـ فى لين الذهب وتلك فى قوة الحديد وللإنسان الاجتهاد والميل إلى تذليل هذه لتلك ، فإنها سَتَذِلّ وتنقاد . والله المعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

لماذا السلوى .. ولماذا الجزع ؟

ما علة الإنسان فى سلوته إذا كانت محنتهُ عامةً له ولغيره ؟
وما عِلَّة جزعه واستكثاره وتحسُّره إذا خصَّته المَسَاءَةُ ، ولم تَعْده المصيبة ؟
وما سر النفس فى ذلك ؟

---

(١) فى الأصل « هذا » .

وهل هو محمود من الإنسان أم مكروه ؟

وإذا نَزَا به هذا الخاطر فَبِمَ يُعَالجه ، وإلى أى شىء يرده ؟

ولِمَ يتمنى بسبب محنته أن يَشْرَكُه النّاس ؟ ولم يستريح إلى ذلك ؟ صحابنا يروون مثلا بالفارسية ترجمته : من احترق بَيْدَرُه[٢] أراد أن يحترق بيدَرُ غيرِه .

الجواب

قال أبو علي مسكويه ـ رحمه الله ـ :

الجزع والأسف والحزن من عَوَارِضِ النّفس ، وهى تجرى مجرى سائر العَوَارِضِ الأُخر كالغضب والشّهوة والغيرة والرّحمة والقسوة وسائر الأخلاق التى يُحْمَدُ الإنسان فيها إذا عرضت له كما ينبغى ، وبسائر الشروط التى أحصيناها مراراً كثيرة ، ويُذَمُّ بها إذا عرضت بخلاف تلك الشّرائِط .

وإنما تُهَذَّبُ النّفس بالأخلاق لتكون هذه العوارض [التى] تعرض له فى مواضعها على ما ينبغى فى الوقت الذى ينبغى ، فالحزن الذى يعرض كما ينبغى هو ما كان فى مصيبة[١] لحقت الإنسان لذنب اجْتَرَحَهُ ، أو لعمل فرَّط فيه ، أو كان له فيه سبب اختيارى ، أو لسوءِ اتفاق خَصَّه دون غيره وهو يجهل سببه ، فإنّ هذا الحزن وإن كان دون الأول فالإنسان مَعْذُورٌ به .

فأما ما كان ضروريا ، أو واجبا فليس يحزن له عاقل ؛ لأن غروب الشمس مثلا لما كان ضروريا لم يحزن له أحد ، وإن كان عائقا عن منافع كثيرة ، وضارا بكل أحد ، ومَنَعَ النَّظَر والتّصرّف فى منافع الدنيا ، وكذلك هجوم الشّتاء والبرد ، ووُرُودُ الصّيف بالحرّ لا يحزن له عاقل ؛ بل يستعد له ، ويأخذ أُهْبَته .

وأما الموت الطبيعى فليس يحزن له أحد ؛ لأنه ضرورى ، وإنما يجزع الإنسان منه إذا ورد فى غير الوقت الذى كان ينتظره ، أو بغير الحالة المُحْتَسَبَةِ ؛ ولذلك يجزع الوالد على موت ولده ؛ لأن الذى احتسبه أن يموت هو قبله .

فأما الولد فيقل جزعه على والده ؛ لأن الأمر كما كان فى حسابه إلا أنه تقدم مثلا بزمان يسير ، أو كما ينبغى .

فأما ما يعرض للمسافر ، ولِرَاكِبِ البحر أن يُخَصَّ دون مَنْ يَصْحَبُه بمحنة فى ماله أو جسمه ، فإنما حزنُه لسوء الاتفاق ورَدَاءَة البخت فإن هذا النوع مجهول السبب ؛ ولذلك يُعْذَرُ فيه أَدْنَى عذر .

---

(١) فى اللسان « البيدر : الموضع الذى يداس فيه الطعام » .

(٢) فى الأصل « فمصيبة » .

وأما من يتمنى لغيره من السوء مثل ما يحصل له فهو شر فى طبعه .

لماذا السفر ؟

لِمَ حَنّ بعض الناس إلى السّفر من لدُن طفوليته إلى كهولته ، ومنذ صغره إلى كبره ، حتى إنه يَعُق الوالدين ، ويشُقّ الخافقين صابراً على وَعْثَاءِ السّفر ، وذل الغربة ، ومَهَانَةِ الخمول ، وهو يسمع قول الشاعر :

إن الغريب بحيث ما حطّت ركائبه ذليلُ
ويَدُ الغريب قصيرةٌ ولسانُه أبداً كَليلُ
والنّاس ينصر بعضهم بعضا وناصرُه قليل

وآخر ينشأ فى حضن أمه ، وعلى عاتقِ ظِئْرِهِ ، ولا ينزِعُ به حنين إلى بلد ، ولا يغلبه شوق إلى أحد ، كأنه حجر جبله ، أو حصاة جدوله ؟

لعلك تقول : مواضع الكواكب ، ودرجة الطّالع ، وشكل الفلك اقتضت له هذه الأحوال ، وقَصَرَته على هذه الأمور ، فحينئذ تكون المسألة عليك فى آثار هذه النجوم ، وتوزيعها هذه الأسبابَ على ما هى عليه من ظاهر التّسْخِير ـ أشدّ ، وتكلف الجواب عنها آكد وأنكد .

الجواب

قال أبو علي مسكويه ـ رحمه الله ـ :

إن قوة النِّزَاع إلى المحسوسات تنقسم بانقسام الحواس . وكما أن بعض المزاج تقوى فيه حاسة البصر ، وبعضه تقوى فيه حاسة السمع ، فكذلك الحال فى القوة النِّزَاعِيّة التى فى تلك الحاسة ؛ لأنها هى التى تشتاق إلى تكمّل الحاسة ، وتصييرها بالفعل بعد أن كانت بالقوة . ومعنى هذا الكلام أن الحواس كلها هى حواس بالقوة إلى أن تدرك محسوساتها ، فإذا أدركتها صارت حواس بالفعل .

وإذا كان الأمر على ما وصفنا فليس بعجب أن يكون هذا المعنى فى بعض الحواس قويا ، ويضعف فى بعض ، فيكون بعض الناس يشتاق إلى السّماع ، وبعضهم إلى النظر ، وبعضهم إلى المذُوقات من المأكول والمشروب ، وبعضهم إلى المَشْمُومَات وألوان الرّوائح ، وبعضهم إلى الملبوسات من الثياب وغيرها . وربما اجتمع لواحد بعد الواحد أن يشتاق إلى اثنين منها ، أو ثلاثة ، أو إليها كلها .

ولكل واحد من هذه المحسوسات أنواع كثيرة لا تحصى ، ولأنواعها أشخاص بلا نهاية . وهى على كثرتها وعددها الجَمّ ، وخروجها إلى حد ما لا نهاية له ليست كَمالَات للإنسان من حيث هو إنسان ، وإنما كماله الذى يُتَمِّمُ إنسانيته هو فيما يدركه بعقله . أعنى العلوم . وأشرفها ما أدى إلى أشرف المعلومات . وإنما صار البصر

والسمع أشرف الحواس لأنهما أخص بالمعارف ، وأقرب إلى الفهم والتمييز ، وبهما تُدْرَك أوائل المعارف ، ومنها يرتقى إلى العلوم الخاصة بالنطق .

وإذا كانت الحالة على هذه الصورة فى الشوق إلى ما يُتَمِّمُ وجود الحواس ، ويُخرجها إلى الفعل ، وكان من الظاهر المتعارف أن بعض الناس يشتاق إلى نوع منها فيحتمل فيه كل مشقة وأذى حتى يبلغ أَرَبَهُ فيه لم يكن بديعاً ولا عجباً أن يشتاق آخر إلى نوع آخر فيحتمل مثل ذلك فيه . إلا أنا وجدنا اللغة فى بعض هذه قد غُنِيت فوضعت له اسما ، وفى بعضها لم تُعْن فأهملته : وذلك أنا قد وجدنا لمن يشتاق إلى [المأكول] والمشروب إذا أفرطت قوته النِّزَاعِيَّة إليهما حتى يعرض له ما ذكرتُ من الحرص عليهما ، والتوصُّل إليهما ما يحتمل معه ضُرُوب الكُلَفِ والمَشَاق اسما ، وهو الشَّرَهُ والنَّهَمُ . ولم نجد لمن يعرض له ذلك فى المشموم والمسموع اسما . وأظن ذلك لأجل كثرة ما يوجد من ذلك الضرب ، ولأن عيبه أفحش ، وما يَجْلِبهُ من الآثام والقبائح أكثر .

فقد ظهر السبب فى تشوّق بعض الناس إلى الغربة وجَوَلَانِ الأرض . وهو أن قوته النِّزَاعِيَّة التى تختص بالبصر تُحِبُّ الاستكثار من المُبْصَرَات وتحديدها ، ويَظُن أن أشخاصَ المُبْصَرات تُستَغْرَق ، فهو يحتمل كثيراً من المشاق فى الوصول إلى أَرَبِه من إدراك هذا النوع .

وقد نجد من يحتمل أكثر من ذلك إذا تَحرَّكَ بقوته النزاعية إلى سائر المحسوسات الأخر ، والاستكثار منها . فتأمل الجميع ، وأعد نظرك ، وتصفح جزئياتها تجد الأمر فيها واحداً .

لماذا الرغبة فى العلم؟

ما سبب رغبة الإنسان فى العلم ؟

ثم ما فائدة العلم ؟ ثم ما غَائِلَةُ الجهل ؟ ثم ما عَائِدَةُ الجهل الذى قد شَمِلَ الخَلْق ؟

وما سر العلم الذى قد طُبِعَ عليه الخَلْق ؟

فإن استِشْفَافَ هذه الفصول ، واستكشافَ هذه الأصول يُثِيرَان علما وحكما جَمّا ، وإن كان فيها - فى البحث عنها ، وبعض أوائلها وأواخرها - مشقة على النَّفس ، وثِقَل على الكاهل . ولولا معونة الخالق مَن كَانَ يَقْطَعُ هذه التَّنائِفَ المُلْس ؟ ومن كان يسلك هذه المهامه الخُرْس ؟ ولكن الله - تعالى - وَلِيُّ المخلصين ، وناصر المطيعين ، ومُغِيثُ المُستصرِخِين .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :

مرَّ لنا فى عرض كلامنا على هذه المسائل ما يُنَبِّه على جواب هذه المسألة . ولكنه لابد من إعادة شيء منه يزيد فى كشف الشُّبهة ، وإزالة الشَّك . وهو أن العلم كمالُ

الإنسان من حيث هو إنسان ؛ لأنه إنما صار إنسانا بصورته التى مَيَّزَتْهُ عن غيره . أعنى النَّبات والجماد والبهائم .

وهذه الصورة التى مَيَّزَتْهُ ليست فى تَخَاطِيطِه وشكله ولونه . والدليل على ذلك أنك تقول : فلان أكثر إنسانية من فلان ، فلا تعنى به أنه أتم صورة بدن ، ولا أكمل فى الخلق التخطيطى ، ولا فى اللون ، ولا فى شىء آخر غير قوته الناطقة التى يُمَيِّزُ بها بين الخير والشر فى الأمور ، وبين الحَسن والقبيح فى الأفعال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات ؛ ولذلك قيل فى حد الإنسان : إنه حى ناطق مائت . فَمُيِّزَ بالنطق ، أعنى بالتمييز بينه وبين غيره ، دون تخطيطه وشكله ، وسائر أغراضه ولواحقه .

وإذا كان هذا المعنى من الإنسان هو ما صار به إنساناً ، فكلما كَثُرَت إنسانيته كان أفضلَ فى نوعه . كما أن كل موجود فى العالم إذا كان فِعله الصادرُ عنه بحسب صورته التى تخصُّه ، فإنه إذا كان فعله أجود كان أفضل وأشرف . مَثَلُ ذلك الفرس والبازي من الحيوان ، والقلم والفأس من الآلات ، فإن كل واحدٍ من هذه إذا صَدَرَ عنه فعلُه الخاص بصورته كاملاً كان أشرف فى نوعه ممن قصر عنه ، وكذلك الحال فى النَّبات والجماد ، فإن لكل واحد من أشخاص الموجودات خاصّ صورة يَصْدُرُ عنه فِعلُه ، وبحسبه يشرف أو يخس إذا كان تاما أو ناقصاً . فأىُّ فائدة أعظم مما يُكَمِّل وجودك ، ويتمم نوعك ، ويعطيك ذاتك حتى يميِّزَكَ عن الجماد والنبات والحيوانات التى ليست بناطقة ، ويقرِّبك من الملائكة والإله ـ عز وجل ، وتقدس وتعالى ـ وأى غائلة أدهى وأمَرّ ، وأكْلَمُ وأَطَمُّ مما يُنَكِّسُك فى الخَلْق ، ويردّك إلى أَرْذَلِ وجودك ، ويَحطُكَ عن شرف مقامك إلى خساسة مقامات ما هو دونك ؟

أظنك تذهب إلى أن العلم يجب أن يفيدك ـ لا محالة ـ جاهاً ، أو سلطاناً أو مالاً تتمكن به من شهوات ولذات . فلعمرى إن العلم قد يفعل ذلك ، ولكن بالعَرَضِ لا بالذات ؛ لأن غاية العلم ، والذى يسوق إليه ، ويكمل به الإنسان ليس هو غايات الحواس ، ولا كمال البدن . وإن كان قد يتم به ذلك فى كثير من الأحوال . ومتى استعملته فى هذا النوع فإنه يُكَمِّل صورتك البهيميَّة والنباتية ، وكأنه استعمل فى أرذل الأشياء ، وهو مُعَدّ لأن يُسْتَعْمَلِ فى أشرفها .

لماذا يأمل الانسان ؟

لِمَ كُلَّمَا شاب البدن شَبَّ الأمل ؟ قال أبو عثمان النَّهْدِى[1] : قد أتت علىَّ مائة وثمانون سنة ،

(١) هو عبدالرحمن بن مل القضاعى . ادرك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يره ، وشهد فتح القادسية واليرموك وغيرهما ، وتوفى بالبصرة فى أول ولاية الحجاج العراق ، كما قال ابن قتيبة فى المعارف ص ١٨٨ وقيل مات سنة خمس وتسعين وقيل سنة مِائة أو بعدها ، راجع تاريخ بغداد ٢٠٢/١٠ ـ ٢٠٥ .

وأنكرت كل شىء إلا الأمل ، فإنه أحدُّ ما كان[1] .

ما سبب هذه الحال ؟ وعلى ماذا يدل الرمز فيها ؟

وما الأمل أولا ؟ وما الأمنية ثانياً ؟ وما الرجاء ثالثاً ؟

وهل تشتمل هذه على مصالح العالم ؟

فإن كانت مُشْتَمِلَة فلم تواصى النَّاس بقصر الأمل ، وقَطْع الأمانى ، وبِصَرْف الرجاء إلا فى الله - تبارك وتعالى - وإلى الله ؟ فإنه ساتر العورة ، ورَاحِمُ العَبْرَة ، وقابل التَّوبة وغافر الخطيئة ، وكل أمل فى غيره باطل ، وكل رجاء فى سواه زائل ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :

هذه المسألة قد أُخِذَ فيها فِعْلٌ من أفعال النفس فَقُرِنَ بفعل من أفعال الطبيعة التى بحسب البدن إلى الطبيعة والمزاج البدنى ، ثم وقعت المُقَايَسةُ بينهما ، وهما يتباينان لا يتشابهان ، فلذلك عرض التعجب منها . وذلك أن الأمل والرجاء والمُنَى من خصائص القوَّة النَّاطقة . فأما الشَّيْب والنُّقْصَانَاتُ التى تعرض للبدن ، وعجزُ القوى التابعة للمزاج فهى أمور طبيعية فى آلات تَكِلُّ بالاستعمال ، . وتضعُفُ على مَرِّ الزمان .

وأما أفعال النفس فإنها كلما تكررت وأُديمتْ فإنها تقوى ويشتد أثرها فهى بالضد من حال البدن . مثال ذلك أن النظر العقلى كلما استُعْمِلَ قوِىَ واحتد ، وأدركَ فى الزمان القصير ما يُدْرِكه فى الزمان الطويل ، ولَحِقَ الأمر الذى كان خفياً عنه بسرعة .

والنظر الحسى كلما استعمل كَلَّ وضعف ، ونقص أثره إلى أن يَضْمَحِلَّ .

***

فأما الفرق بين الأمل والرجاء وبين الأمنية فظاهر ؛ وذاك أن الأمل والرجاء يَعْلَقَانِ بالأمور الاختيارية ، وبالأشياء التى لها هذا المعنى .

فأما الأمنية ، فقد تتعلق بما لا اختيار له ولا رويَّة ؛ فإنه ليس يمنع مانع من تَمَنِّى المحال والأشياء التى لا تمييز فيها ولا لها .

والأمل أخصُّ بالمختار . والرجاء كأنه مشترك ، وقد يرجو الإنسان المطر والخِصْبَ ، وليس يأمل إلا من له قدرة وروِّية .

وأما المُنَى فهو - كما علمت - شائع فى الكل ، ذاهب كل مذهب ، فقد يتمنى الإنسان أن يطير ، أو يصير كوكباً أو يصعد إلى الفلك فيشاهد أحواله . وليس يرجو هذا ولا يأمله . ثم قد يرجو المطر ، وليس يأمل إلا منزل القطر ، ومنشىء الغيث . فهذه فروق واضحة .

---

(1) المعارف ص ١٨٨ وتاريخ بغداد ١٠/٢٠٤ .

لماذا غيرة المرأة أشد ؟

لم صارت غَيْـرةُ المرأة عل الرجل أشدَّ من غيرة الرّجل على المرأة ؟

هذا فى الأكثر والأقل ، وكَيْفَما كان ففيه خَبِىء وهو المُشَدِّدُ على أحدهما ، والمُخَفِّفُ عن الآخر .

وقد أدت الغَيْرَةُ جماعة إلى تلف النفوس ، وإلى زوال النعم ، وإلى الجلاء عن الأوطان .

***

ثم قلت فى المسألة التالية لهذه :

ما الغيرة أولا ؟ وما حقيقتها ؟ وكيف أصلها وفصلها ؟

وقَوتها على الإحالة وضعفَها طَلَعْتَ[1] على ما سألتَ عنه ، وتَبيَّنَ لك ما ضربت به المثل .

لماذا أحب الانسان الأمثال ؟

ما السبب فى طلب الإنسان فيما يسمعه ويقوله ويفعله ويرْتئِيه ، ويُرَوِّى فيه الأمْثَال ؟

وما فائدة المَثَل ؟ وما غناؤه من[2] مَأْتاه ، وعلى ماذا قراره ؟

فإن فى المَثَلِ والمُماثَلةِ والتمثيل كلاماً رائقاً ، وغايةً شريفةً .

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله ـ :

إن الأمثال إنما تُضْربُ فيما لا تدرِكهُ الحواس مما تدركه .

والسبب فى ذلك أُنْسُنَا بالحواس ، وإلْفُنَا لها منذ أول كَونها ، ولأنها مبادىء علومنا ، ومنها نرْتَقى إلى غيرها . فإذا أُخْبِرَ الإنسانُ بما لم يُدْرِكه ، أو حُدِّثَ بما لم يُشَاهده ، وكان غريباً عنده طَلبَ له مِثَالا من الحس ، فإذا أُعْطِىَ ذلك أَنِسَ به ، وسكنَ إليه لإلْفه له .

وقد يعرِضُ فى المحسوسات أيضاً هذا العارض . أعنى أن إنساناً لو حُدِّث عن النعامة والزرافة والفيل والتمْساح لَطَلَبَ أن يُصَوَّرَ له ليقع بصرهُ عليه ، ويَحْصُلَ تحت حِسِّه البَصَرِىّ ، ولا يقنعُ فيما طريقه حِسُّ البصرِ بحس السَّمع حتى يردَّهُ إليه بعينه .

وهكذا الأمر فى المَوْهومات فإن إنساناً لو كُلِّفَ أن يتوهَّم حيواناً لم يشاهد مثله لسأل عن مثله ، وكَلّفَ مُخْبِرَه أن يُصَوِّرَه له ، مثل عَنْقَاء مغْرِب ، فإن هذا الحيوان ، وإن لم يكن له وجود ، فلابد لمُتَوَهِّمَه أن يَتَوهَّمَه بصورةٍ مُركَّبة من حيوانات قد شاهدها .

---

(١) فى اللسان : « النهمه ، الحاجة ، وقيل بلوغ الهمة والشهوة فى الشىء ، وفى الحديث : إذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليعجل إلى أهله » .

(٢) فى الأصل « وما غناؤه وهو من » .

فأما المعقولات فلما كانت صورُها ألطفَ من أن تقع تحت الحس ، وأبعدَ من أن تُمَثَّلَ بمثال الحسى إلا على جهة التقريب صارت أحْرَى أن تكون غريبةً غير مألوفة [و] النّفس تسكن إلى مِثْلٍ وإن لم يكن مِثْلا ؛ لِتأنَسَ به من وَحْشة الغُربة فإذا أَلِفَتْها ، وقَوِيت على تأمُّلها بعين عقلها من غير مثال سَهُلَ حينئذ عليها تأمُّل أمثالِها . والله الموفق لجميع الخيرات .

لماذا يقوى الوهم على الانسان ؟

كيف قَوِيَ الوَهْمُ على أن يَنْقُشَ فى نفس الإنسان أوْحَشَ صورةٍ ، وأمقتَ شكْلٍ ، وأقبحَ تخطيط ، ولم يَقْوَ على أن يُصَوِّرَ أحسنَ صورةٍ ، وألطفَ شكلٍ وأمْلَحَ تخطيط ؟

ألا تَرَى أن الإنسان كُلَّما اعترض فى وهمه أوحش شىء عرته شُمَأْزِيزَةٌ وعَلَتْهُ قُشَعْرِيرَةٌ ، ولِحقَهُ صُدُوفٌ ، ورهِقَهُ نُفُور ؟

فلو قوِيَ الوهمُ على تصوير أحْسَنِ الحسنِ تَعَلَّلَ به الإنسانُ عند فراغ باله وخلْوتِه . فما هذا ؟ وكيف هذا ؟

ولا عجبٍ فلهذا الإنسانِ من هذه النّفسِ والعقلِ والطبيعةِ أُمورٌ تَسْتَنْفِدُ العَجَب ، وتُحيِّرُ القلب . جَلَّ من أَوْدَعَ هذا الوِعاء هذه الطرائف ، وعَرَّضَه لهذه الغايات ، وزيَّن ظاهِرَهُ ، وحسَّنَ باطنَه ، وصَرَّفَهُ بَيْنَ أمْنٍ وخوف ، وعدْلٍ وحيْف ، وحَجَبَهُ فى أكثر ذلك عن لِمَ وكَيْفَ .

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله ـ :

إن الحُسْنَ هو صورةٌ تابعةٌ لاعتدال المِزَاج ، وصِحّةِ مُنَاسباتٍ من الأعضاء بعضِها إلى بعض فى الشّكل واللّون وسائِرِ الهيئات . وهذه حال لا يَتَّفِقُ اجتماعُ جميع أجزائِها على الصِّحة ، ولذلك لاَ تَقْوَى الطبيعةُ نفسُها علي اتخاذها فى الهيُولى على الكمال ؛ لأن الأسبابَ لا تساعد عليها ، أعنى أنه لاَيتَّفِقُ فى الهيولى والأشكالِ والصورةِ والمِزَاجِ أَنْ تقبلَ الصُّورةَ الأخيرةَ على غاية الصحة .

فإذا كانت الطبيعةُ تعجِزُ عن إيجاد هذا الاعتدال وهذه المناسبة الصحيحة التى يتبعها الحسن التام ، فكم بالحَرَى يكون الوهمُ أعْجزَ عنه ؟ وإنما الوهم تابع للحس ، والحس تابع للمزاج ، والمزاج تَابعُ أَثَرٍ من آثارِ الطبيعة . ومثال ذلك أن الأوتار الكثيرة إنمايُطْلَبُ بها وبكثرة الدَّسَاتينِ عليها أَنْ تَخْرُجَ من بينها نغمة مقبولة ، وتلك النعمة إنما يُتَوَصَّلُ إليها بجميعِ الآلة وأجزائِها من الأوتار والدَّسَاتِينِ بالقَرَعات المختلفة . فالنغمة وإن كانت واحدةً فإنها تتم بمساعدة جميع تلك الأجزاء . فإذا خَانَ واحد منها خرجت النغمة كريهةً : إما بعيدةً من القبول وإما قريبةً على قدرِ عجز الأسباب وقصور بعضها .

فكذلك الهيولى[1] فى حاجتها إلى مزاج ما بين اسْطُقُصَّاتٍ[2] وصور[3] أخرى كثيرة تصير بجميعها مستعدةً لقبول صور الحسن الذى هو اعتدال ما ، ومناسبة ما صحيحة بين أمزجة وأعضاء فى الهيئة والشكل واللون وغيرها من الأحوال التى مجموعها كلها هو الحسن .

والحسن وإن كان أمراً واحداً ، وصورةً واحدة فهو مثل النغمة الواحدةِ المقبولِة التى تحتاج إلى هيئات كثيرة ، وصورٍ مختلفة جَمَّةٍ ؛ ليحصل من بينها هذا الاعتدالُ المقبول .

والوهْمُ فى خروجه عن الاعتدال سَهْلُ الحركةِ . فأَما فى حفظه إيَّاه ، وتَوَصُّلِهِ إليه فإنه يحتاج إلى تعب شديد ، وأَخْذِ مقدمات كثيرةٍ ، واستخراجِ اعتدال بينها . وهكذا الحال فى كل اعتدال ؛ فإن حِفْظَه والثَّبَاتَ عليه صعب . فأما الخروج عنه فهو بأدنى حركة .

فإن اتفق أن يكون لذلك الاعتدال تَمَاماتٌ من خارج ، ومُعَاوَنَاتٌ من أمور مختلفةٍ كانت الصعوبةُ فى تحصيله أَشَدَّ .

وهذه المسألة أحد الآثارِ التى ترد على الإنسان مَرَّة بتدريج ، ومرة بغير تدريج ، فتصيرُ حالُ الإنسان بما لم يَحْتَسِبْه ، ولم يتدرجْ إليه بالمُزَاوَلَة/ حالَ ما يصيبه ضربةً واحدةً مما ضَرَبْنَا مثالَه ، فيكثُر إحساسُه به وظهورُ أثره عليه .

لماذا يتداعى البنيان المهجور ويعمر المسكون ؟

لم صار البنيانُ الكريمُ[4] ، والقصرُ المَشِيدُ إذا لم يسكنْه الناس تداعى عن قرب ، وما هكذا هو إذا سُكِنَ واخْتُلِفَ إليه ؟

لعلك تظن أنَّ ذلك لأن السكان[5] يرمُّون منه ما استرم ، ويتلافَوْن ما تداعى وتهدم ، ويتعهدونه

---

(1) فى مفاتيح العلوم ص ٨٦ « هيولى كل جسم . هو الحامل لصورته . كالخشب للسرير والباب ، وكالفضة للخاتم والخلخال ، وكالذهب للسوار والدينار . فأما الهيولى إذا أطلقت فإنه يعنى بها طينة العالم ، أعنى جسم الفلك الأعلى وما يحويه من الأفلاك والكواكب ، ثم العناصر الأربعة وما يتركب منها .

(2) الأسطقس . هو الشيء البسيط الذى منه يتركب المركب . كالحجارة والقراميد والجذوع التى يتركب منها القصر . وكالحروف التى يتركب منها الكلام . وكالواحد الذى منه يتركب العدد ، وقد سمى الأسطقس : الركن ، والاسطقسات الأربعة هى النار ، والهواء ، والماء ، والأرض وتسمى العناصر .

(3) الصورة . هى هيئة الشيء وشكله ، التى تتصور الهيولى بها ، وبها يتم الجسم ، كالسريرية والبابية فى السرير والباب .. والصورة تسمى الشكل والهيئة والصفة ، كما مفاتيح العلوم ص ٨٦ .

(4) فى الأصل « الكريمة » .

(5) فى الأصل « الإنسان » .

بالتَّطرِيَةِ والكنس ، فاعلم أن هذا ليس لذاك ؛ لأنك تعلم أنهم يَؤثِّرون فى المسكن بالمشى والاستنادِ وأخذِ القُلاَعَةِ[1] وسائرِ الحركات المختلفةِ ما إنْ لم يُضْعِفْه على رمهِّم ولمِّهم كان بإزائه ومقابله . فقد بقيت العلَّةُ على هذا ، وستسمعها فى عرْض الجواب عن جميع مسائلِ هذا الكتاب .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :

إنَّ معظمَ آفات البنيانِ يكون من تَشْعِيثِ الأمطارِ ، وانسدادِ مجارى المياهِ بما تحصِّله الرياح فى وجه المآزيبِ[2] ومسالكِ المياهِ التى تردُّ المياهَ إلى أصولِ الحيطان من خارج البناءِ وداخِلهِ ، وبما يَتَثَلَّمُ من وجوه البنيانِ الكريمةِ بالآفات التى تُعرِّضُها لحركات الهواءِ والأمطارِ والبردِ والثُّلوجِ . وربما كان سبب ذلك قصَبةٌ أو هشيمٌ من تِبْنِ الطين الذى تطيِّره[3] الأرواح إلى مسلك الماءِ فتعطفُ الماءَ إلى غير جهته ، فيكونُ به خرابُ البنيان كله .

فأمَّا ظهورُ الهوامِّ فى أصول الحيطان ، والعناكبِ فى سقوفه . وأخذُها من الجميع ما يتبيَّنُ أثره على الأيام فشىءٌ ظاهر ؛ وذلك أنَّ هذا الضرْبَ من الخرابِ قبيحُ الأثرِ جدا يَنْبُو الطرفُ عنه ، ويسْمُجُ به البناءُ الشريفُ . وربما أغْفَل السكَّانُ بيتا من عُرْض[4] البناء إمَّا بقصْدٍ وإما بغير قصد فإذا فُتِحَ عنه يُوجَدُ فيه[5] من آثار الدَّبيبِ من الفأر والحيَّاتِ وضُروبِ الحشراتِ التي تَتَّخِذُ لنفسها أكِنَّةً بالنَّقْب والبناء ، كالأَرَضَة والنَّملِ وما تجمعه من أقواتها ، ومن نَسْجِ العنكبوت وتراكمِ الغُبْرَةِ على النُّقوشِ ما يَمْنَعُ من دخوله . هذا إنْ سلِم من الوكْفِ[6] وتَطَرُّقِ المياه وهدْمِها لَما تسيلِ عليه من حائط وسقف ، ورَضِهِ بما يُثْقِلُه من طينِ السطُوحِ ، وتقصف[7] جميع الخُشب والسَّنادات والعَمَد . وإذا كان فيها السُّكَّانُ مَنَعُوا هذه الأسبابَ العظيمةَ فى الخراب ، وكانَ ما يُشَعِّثُونه بعد هذه الأشياءِ يسيرا بالإضافة إليها ، فكان البناءُ إلى العُمران أقربَ ، ومن الخراب أبعد .

---

(1) فى اللسان « القلاع والقلاعة والقلاعة بالتشديد والتخفيف : قشر الأرض .. والطين الذى ينشق إذا نضب عنه الماء . فكل قطعة منه قلاعة » .

(2) المآزيب : جمع مئزاب ، وهو مصب ماء المطر ، كما فى اللسان .

(3) فى الأصل « تطره » والأرواح : جمع ريح .

(4) فى اللسان « عرض الشىء : وسطه وناحيته ، وقيل نفسه » .

(5) فى الأصل « من فيه » .

(6) فى اللسان « وكف البيت وكفا ووكيفا ووكوفا ووكفانا : هطل وقطر ، وكذلك السطح ومصدره الوكيف والوكف » .

(7) فى الأصل « وتقصفه منها جميع » .

شـــطرنج !

قال المأمون : « إنى لأعجب من أمرى : أُدبِّر آفاقَ الأرضِ وأعجزُ عن رُقْعَة » - يعنى الشطرنجَ - وهذا معنًى شائعٌ فى الناس ، فما السبب فيه ؟ فإنّه إنما عجِبَ من خفاء السبب .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :

إنَّ الصناعاتِ لا يُكْتَفَى فيها بالعلم المتقدِّم ، والمعرفةِ السابقةِ بها حتى يُضَافَ إلى ذلك العملُ الدائمُ ، والارْتياضُ الكثيرُ ، وإلاّ لَمْ يكن الإنسانُ ماهراً . والصانعُ هو الماهرُ بصناعته . ومثال ذلك الكتابةُ فإن العالِمَ بأصولِها وإنْ كان سابِقَ العلمِ ، غزيرَ المعرفةِ إذا أخَذَ العلمَ ولم تكنْ له دُرْبةٌ انقطعَ فيها ، ولم ينفعْه جميعُ ما تقدم من عِلْمِه بها . وكذلك حالُ الخياطةِ والبناءِ . وبالجملة كلُّ صناعةٍ مِهْنِيَّةٍ كقيادةِ الجيش ، ولقاءِ الأقرانِ فى الحروب ليس تكفى فيها الشجاعةُ ، ولا العلمُ بكيْفِيَّتِها حتى يحصلَ فيها الارْتِيَاضُ والتَّدَرُّبُ فحينئذ تصيرُ صناعةً .

ولمَّا كانَ الشطرنجُ أحدَ الأشياءِ الجاريةِ هذا المجرى من الصناعات لم يُكْتَفَ فيه بالتدْبير ، ولا حُسْنِ التخيُّلِ ، ولا جودةِ الرأىِ حتى تَنْضَافَ إلى ذلك مباشرةُ الأمرِ ، والدُّرْبَةُ فيه ؛ فإنَّ لكلِّ ضربةٍ يتغير بها شكلُ الشطرنج ضربةً من الرسيل[1] مقابِلَةً لها إما على غايةِ الصوابِ ، وإما بخلافه . ويُحتاجُ إلى ضبط جميع ذلك ، وتخيُّلِ تلك الأشكالِ كلِّها ضربةً بعد ضربةٍ على وجوه تصاريفها ، وليس يمكن ذلك إلا مع دُرْبةٍ ورياضةٍ . .

لماذا استيحاش الانسان من تغيير اسمه ؟

ما السبب فى استيحاشِ الإنسان من نَقْل كُنْيَتِه أو اسمِه ؟ فقد رأيتُ رجلا غيَّر كُنْيَتَه لضرورة لِحقَتْه ، وحالٍ دَعَتْه ، فكانَ يَتنكَّرُ ويقْلَق ، وكان يُكْنَى أبا حفص فاكْتَنَى أبا جعفر ، وكان سببُه فى ذلك أنه قَصَد رجلا يتشيَّعُ فكَرِهَ أنْ يَعْرِفه بأبى حفص .

وكيف صار بعضِ الناس يَمْقُت الشئَ لاسمِه دون عيْنِه ، أو لِلَقَبِه دون جوهرِه ؟

وما النُّفُورُ الذى يُسْرِعُ إلى النفس من النَّبْزِ واللَّقب ؟

وما السُّكونُ الذى يَرِدُ على النفس من النَّعْت ؟ وما هما إلا متقاربان فى الظاهر ، مُتَدَانِيانِ فى الوَهْم .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :

إنَّ المعانَى تلزمها الأسماءُ ، ويعتادُها أهلُ اللُّغاتِ على مَرِّ الأيام حتى تصيرَ كأنها

(١) (الرسيل) الملاعب الذى يرسل القطع ، أو يوجهها .

هي ، وحتى يَشُكَّ قوم فيزعمون أنَّ الاسمَ هو المسمَّى ، وحتى زعم قوم أفاضلُ أنَّ الأسامِيَ بالطباع تصير إلى مُطَابَقَة المعانى كأنهم يقولون إنَّ الحروفَ التى تُؤَلَّف لمعنى القيام أو الجلوس ، أو الكوكب أو الأرض لا يصلح لغيرها من الحروف أن تُسَمَّى به ، لأنَّ تلك بالطبع صارت له .

واضطر لأجل هذه الدعوى أنْ يشتغلَ كبارُ الفلاسفة فى بمُنَاقضتِهم ، ووضْعِ الكتب فى ذلك ، فليس بعجب أنْ يألفَ إنسانٌ اسمَ نفسِه حتى إذا غُيِّر ظَنَّ أنه إنما يُغيَّر هو ، وإذا دُعِيَ بغيرْ اسمِه فإنما دُعِيَ غيرُه ، بل يرى كأنما بُدِّل به نفسه .

ولقد سمعت بعض المُحَصِّلِين يستشير طبياً ، ويخاف فيما يشكُوه أنه قد أصابه الماليخوليا فقلت له : وما الذى أنكرْتَ من نفسك ؟

قال : يُخيَّلُ لى أن يمينى قد تَحول شمالا ، وشمالى يميناً ، لستُ أشكُّ فى ذلك .

فلما امتد بى النظرُ فى مُساءَلَتِه وجدْتُه كانَ قد تَخَتَّم فى يمينه مدة للتَّقَرُّب إلى بعض الرؤساء من أصدقائه ، ثم لما فارقه لسفره اتَّفَقَتْ له إعادةٌ إلى التختُّم فى اليسار فعرَض له من الإلْف والعادةِ هذا العارض .

فاعتبرْ بذلك يسهُلْ جوابُ مسألِتك ، وتعلم ما فى العادة من المُشَاكَلَة لما فى الطبع .

فأمّا كراهةُ الناس الشيءَ لأسمِه ، أو للقبِه ونَبْزِه ، فالجواب عنه قريبٌ من الجواب عن هذه المسألِة ، وذلك أنَّ الأسماءَ والألقاب أيضاً تكره لكراهة ما تدلُّ عليه للعادة الأولى ، فلو أنك نقلت اسم الفحم إلى الكافور فيما بينك وبين آخَرَ لكان متى ذكر الفحم تصور السوادَ ، ولم يَمْنَعْه ما انْتَقل فيما بينه وبينك إلى مسمًّى آخرَ أبيضَ طيِّبِ الرائحة ، وذلك لأجل العادة ، اللهم إلا أن يكونَ تركيب الحروف تركيبا قبيحا ، والحروفُ أنفسُها مستهجنة فإنَّ الجواب عن ذلك قد مر فى صورِ هذه المسائل مستقصى .

لماذا هذا .. مع الهم؟

قال أبو حيان :

لم صار صاحب الهمِّ ، ومن غَلَب عليه الفكرُ فى مُلِمٍّ يولَعُ بمسِّ لحيته وربما نكت الأرض بإصبعه ، وعَبِثَ بالحصى ؟

وقد يختلف الحال فى ذلك حتى إنك لتجد واحداً يحبُّ عند صَدْمَةِ الهمِّ ، ولَوْعَةِ الحزن جَمعاً وناساً ومجلساً مُزْدَحِماً ، يُريغُ بذلك تفريجاً ، ويجد عنده خفا . وآخرَ يفزع إلى الخلوة ، ثم لا يقع إلا بمكان موحش ، ونشز ضيِّقٍ وطريقٍ غامض . وآخرَ يُؤْثِر الخلوة ولكنْ يَحِنُّ إلى بستان خَالٍ وروض مُزْهر ، ونهر جار .

ثم تختلف الحال بين هؤلاء حتى إنك لتجد واحداً عند غاشِيَةِ ذلك الفكر أصْفَى طبْعاً ، وأذْكى قلباً ، وأحضَر ذهنا ، وحتى يقولَ القافيةَ النادرةَ ، ويصنِّفَ الرسالةَ الفاخرةَ ، وحتى يحفظَ علْماً جما ، ويستقبلَ أيامَه نُصْحاً ، وآخر يُذْهَل ويَعْلَهُ ، ويزولُ عنه الرأىُ ويتحيَّرُ حتى لو هُدِىَ ما اهتدى ، ولو أمِرَ لما فَقِه ولو نُهِىَ لما وَبِهَ .

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله ـ :

إن النفس لا تعطِّل الجوارح إلا عند النوم لأسباب ليس هذا موضع ذكرها .

والعقل يَسْتَهْجِنُ البطالة ، ولابدَّ من تحريك الأعضاء فى اليقظة إما بقصدٍ وإرادةٍ ، وبصناعة ولأغراضٍ مقصودة ، وإما بعبَثٍ ولهوٍ ، وعند غَفْلةٍ وسهْو ؛ ولأجل ذلك نَهتِ الشريعةُ عن الغَفْلَةِ ، ونهى الأدب عن الكسل ، وأَمِرَ الناس وسُوَّاسُ المدنِ بترك العطلة واشتغالِ الناس بضروب الأعمال .

ولقباحَةِ العطلة ، ونفورِ العقل عنها اشتغل الفُرَّاغ بلعب الشطرنج والنَّرْد على سخافتهما ، وأخذِهما من العمر ، وذهابهما بالزَّمان فى غير طائل ؛ فإنَّ الجلوسَ بلا شغلٍ ولا حركة بغير ضرورة أمرٌ يأباه الناس كافة لما ذكرناه .

فصاحب الفكر والهمِّ لا تَتَعَطَّلُ جوارحُه ، وإنما ينبغى أنْ يتعوَّدَ الإنسانُ بالتأديب حركاتٍ جميلةً مثلَ القضيب الذى وُضِعَ للملوك ، وقد كُرِهَ ذلك أيضا ونُسِبَ إلى النَّزَق ، وجِعَل فى جنس الوَلَعِ بالخاتم .

فأما مسُّ اللحيةِ وقلْعُ الزِّئبر[1] من الثَّوب فمعدود من المرضِ ؛ لأنه حركةٌ غيرُ منتظِمة ، ولا جاريةٍ على سُنَّة الأدب ؛ بل هو عبثٌ يدلُّ على أنَّ صاحبَه قد احْتَمَلَ حتى عَزَب عقلُه ، وذهب تمييزُه دفعة . ولا ينبغى ذلك لمن له تمييز ، وبه مُسْكَة أنْ يفعلَه ؛ بل يُنَبَّه عليه من نفسه ويتركه إن كان عادته .

فأما اختلاف الحال فى الناس فيمن يُحِبُّ الاجتماع مع الناس أو يحبُّ الخَلْوَةَ وغير ذلك مما حكيتَه ، وذكرتَ أقسامَه فإن ذلك تابِع للمزاج ؛ وذاك أن صاحب السَّوْداءِ والفكر السَّوْدَاوِىِّ يحبُّ الخَلْوَةَ والتفرُّدَ ، ويأْنَسُ بذلك . وأما صاحب الفكر الدَّمَوِىِّ فإنه يُحب الاجتماع والناس ، وربما آثر النزْهةَ والفرجةَ .

وأمَّا ما حكيتَ عمن يصنع الشعر ، ويصنِّفُ الرسالةَ ويَشْغَلُ نفسَه بالعلوم فجميعُ ذلك إنما يكونُ بحسب عادةِ مَنْ يطرُقه الفكر : فإنْ كانَ قبل ذلك ممن يرتاض ببعض هذه الأشياء ، أو يُكْثِرُ الفكر فيها فإنه بَعْدَ وُرُودِ العارض يلجأ إلى ما كان عليه ، ويعود

---

(١) الزئبر بكسر الزاء والباء مهموز ـ ما يعلو الثوب الجديد مثل ما يعلو الخز والقطيفة .

إلى عادته بنفسٍ ثائرة مضطرة إلى الفكر فينفُذُ فيما كان فيه . ولابدَّ أنْ يصيرَ ذلك الفكر من جنسِ ما دَهَمَهُ ، أعنى أنه يقول القافيةَ ويصنِّف فى شِعْرٍ آخرَ فيرده إلى الأهمِّ الذى يُقَلْقِلُه ويَحْفِزُه فيجىء كلامه وشعره أَحَدَّ وأَصْفَى مما كان .

وأما الذى يُذْهَل ويَعْلَهُ ويَتَحَيَّر فهو الذى لم يكنْ قبلَ وُرُودِ ذلك الشُّغْلِ عليه ممن لا يرتاض بشعر ولا ترسُّل ، ولا عادتُه أن يلجأ إلى فكره ويستعملَهَ .

لماذا انتصاب قامة الانسان ؟

على ماذا يدل انتصابُ قامةِ الإنسان من بين هذا الحيوان ؟ فقد قال أبو زيد البَلْخِى الفلسفى[(١)] كلاماً سأحكيه .

الجواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله ـ :

هذا الرجلُ الفاضلُ الذى ذكرتَهُ إذا كان يوجَدُ له كلامٌ فى هذا المعنى ، فالأولى بنا أن نَسْتَعْفِيَكَ الكلامَ فيه . وإذا كنتَ غيرَ مُعْفِينا ، فالأولى أن نكتفى بالإيماء إلى المعنى دون الإطالة ، فنقول :

إنَّ الحرارةَ إذا كانت مادَّتُها لطيفةً مُوَاتيةً فى الرّطوبة والاسْتِجَابَةِ إلى الامتداد فهى تمدُّ الجسمَ الذى تعلَّقت به إلى جهتها ـ أعنى العُلُوَّ ـ مدًّا مستقيما . وإنما يعرِضُ الانكبابُ والميلُ إلى جهة الأرض لشيئين : إما لضعف الحرارة ، وإمّا لقلّة استجابةِ المادةِ التى تعلَّقتْ بها .

وأنت تَتَبَيَّنْ ذلك وتَتَأَمَّلُه فى الأشجار التى بعضها ينشعب بشعب مُرْجَحنَّةٍ نحو الأرض .

وبعضها ممتدَّةٌ على جهة الاستقامة إلى فوق .

وبعضُها مركَّبَةُ الحركةِ بحسب مُقاومةِ المادّةِ ؛ لأن حركَةَ الشىء المركَّبِ وما كان من الشجرِ والنباتِ مُمْتَدًّا على وجه الأرضِ غيْرَ مُنْتصبٍ فهو لكثرة الأجزاء الأرضيَّةِ فيه ، ولِضَعفِ الحرارةِ عن مَدِّهِ نحو العُلُوِّ .

وما كان من الشجر منتصِبا وقد تَشَعَّبتْ منه شعبُ نحو الأرضِ ، ويمينا وشِمالا فلأنَّ حركَةَ النارِ والأرضِ قد تركَّبَتا فحَدثَ منهما هذا الشكلُ المركَّبُ بَيْنَ الانتصابِ

---

(١) اسمه احمد بن سهل ذكره ابو حيان التوحيدى فى كتاب تقريظ الجاحظ كما نقل ياقوت فى معجمه ٢٩/٣ فقال « لم يتقدم له شبيه فى الاعصر الأول ، ولا يظن انه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر ، ومن تصفح كلامه فى كتاب « اقسام العلوم » وفى كتاب « أخلاق الأمم » وفى كتاب « نظم القرآن » وفى كتاب « اختيار السير » وفى رسائله إلى إخوانه ، وجوابه عما يسأل عنه ويبده به وإن القول فيه لكثير » وكانت وفاة ابى زيد فى سنة ٣٢٢ هـ . راجع ترجمته فى فهرست ابن النديم ص ١٩٨ ـ ١٩٩ وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ص ٤٣ ـ ٤٣ ومعجم الأدباء ٦٤/٣ ـ ٨٦ .

والارجِحْنَانِ .

وماكان من الشجر ممتدًّا كالقضيب إلى فوق كالسَّرْوِ وما أشبهه فَلِأَنَّ أجزاءه الأرضيَّةَ والرطوبةَ المائيةَ فيه لطيفةٌ ، والحرارةَ قويةٌ فلم يَمْتَنِعْ من الحركةِ المستقيمةِ التى تحركها النار .

وإذا تأملتَ حقَّ التأمُّلِ هذه الأمثلةَ لم يَعْسُرْ عليك نَقْلُها إلى الحيوان إن شاء الله .

لم يضيق الانسان بالراحة ؟

* لم يَضيقُ الإنسانُ فى الراحةِ إذا توالَتْ عليه ، وفى النعمة إذا حالفته ؟.

وبهذا الضِّيقِ إلى المَرَح والنَّزَوَان ، وإلى البَطَر والطُّغْيان ، وإلى التَّحكُّك بالشرِّ والتَّمرُّسِ به حتى يقعَ فى كلِّ مهوًى بعيد ، وفى كل أمْرٍ شديد . ثم يعضّ على أنامله غَيْظًا على نفسه بسوء اختياره ، وأسفا على تركه محمود الرأى ، ومجانبته نصيحة النَاصْحين مع ما يجدُ من الألم فى صدره من شَمَاتَةِ الشَّامتين . فما السرُّ المُنْزِى والمعنى المُوثِب ؟ ولذلك قالت العربِ فى نوادر كلامها : نَزَتْ به البِطْنَةُ . أىْ أطْغَاهُ الشِّبَعُ ، وأبطرتْه الكِفايَةُ ، وأتْرفَتْهُ النعمةُ حتى بَطِر وأشِرَ ، واضطرب وانتشر . ومن أجل ذلك قال بعض السَّلَفِ الصالحِ : العافيةُ ملكٌ خفى لا يصبرُ عليها إلاّ ولىٌّ مُلْهَمٌ ، أو نبى مرسَلٌ .

هذا ، والناس مع اختلافهم يحبوّن العافية ، ويميلون إلى الراحة ، ويَعُوذُون من الشرِّ ، ومِمّا يُورَثُ منه ، ويُسْتَعْقَبُ عنه .

الجواب

قال أبو على مسكوية ـ رحمه الله :

السَّببُ فى ذلك أنّ الراحةَ إنَّما تكونُ عَن تَعَب تَقَدُّمها لا محالة . وجميعُ اللَّذَّاتِ يظهر فيها أنَّها راحاتٌ من آلام . وإذا كانت الراحةُ إنما تكونُ عن تَعَب فهى إنّما تُسْتَلَذُّ وتُسْتَطَابُ ساعة يَتخَلَّصُ من الشيء المُتْعِبِ . فإذا اتصَّلت الراحةُ ، وذهب أَلَمُ التَعبِ لَمْ تكن الراحةُ موجودةً ، بل بَطَلَتْ وبَطَل معناها . ومع بُطْلانِها بُطلانُ اللَّذَّةِ . ومع بُطْلانُ اللَّذَّةِ غَلط الإنسان فى الشوق إلى اللذة التى يجهل حقيقتها . أعنى أنه يَشْتاق إلى معنى اللّذة ويَجْهَلُ أنها راحةٌ من أَلَم . فصار الإنسانُ كأنه يشتاق إلى تعب ليستريحَ بعقَبهِ .

وهذا المعنى إذا لاحَ للعالِم به وتَبَيَّنه لم يَشْتَقْ إلى اللّذة بتَّةً ، وصار قُصَارَاه إذا آلمه الجوع أن يُداويَه بالدواء الذي يُسَمَّى الشِّبَع لا أنه يقصد اللذةَ نفسَها بل يرى اللذة شيئاً تابعاً لغرضه لا أنها مقصودةُ الأول ، ولذلك يَزْهَدُ العالِمُ فى الأشياء البدنيّةِ ، وهى ما يتّصل بِالحواسِّ وتسمَّى لذيذة . فأمّا الجاهل فلأنّه يعترِض له ما ذكرنا بالضرورة صار يقع فيه دائماً ، فيحصل فى هُمومٍ وآلامٍ وأمراضٍ لا نهايةً لها . وعاقبةُ جميعِ ذلك النَّدَمُ والأسفُ .

لماذا يثقل الخطر على الانسان

لم صار الحَظْرُ يثقلُ على الإنسان ؟

وكذا الأمْرُ إذا وَرَدَ أَخذَ بالمخْنَق ، وسدَّ الكَظَم . وقد علمتَ أنَّ نظامَ العالَم يقتضِي الأمرَ والنَّهْىَ ، ولا يتِمّانِ إلا بآمرٍ وناهٍ ، ومأمورٍ ومنْهِىّ . وهذه أركانٌ ودعائمُ . ولكن ههُنا مَكْتُومَةٌ بالإشْرَافِ عليها يَكْمُلُ الإنسانُ فَيَعْرِفُ المُلْتَبِسَ من المُتَخَلِّصِ .

الجـــواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله :

إنّ الأمرَ الذى أومأْتَ إليه والحظْرَ إنما يقعان فى جنسِ الشَّهواتِ التى تَجْمَحُ بالإنسان إلى القبائح ، وبلزوم الأعمالِ التى فيها مشقّة وتؤدِّى إلى المصالح .

ولَمّا كان الإنسانُ ميلُهُ بالطبع إلى تَعَجُّلِ الشهوات غيرَ ناظرٍ فى أَعْقَابِ يومه ، وإلى الهُوَيْنَى والرّاحِة فى عاجلِ اليومِ دونَ ما يُكْسِبُ الراحةَ طُولَ الدّهر ـ ثَقُلَ عليه حَظْرُ شهواتِه ، والأمرُ الذى يَرِدُ عليه بالأعمال التى فيها مشقة .

وهذه حال لازمةٌ للإنسان منذْ الطُّفُولةِ ، فإنَ أَثْقَلَ الأشياءِ عليه مَنْعُ والِدَيْه مَأْرَبَه ، وأخذُهُما إيّاه بكُلَفِ الأعمال النّافِعة ، ثم إذا كَمُلَ صارَ أثقلُ الناس عليه طبيبَه ومعالجَه ، ونَصيحَه فى المشورة ، وسلطانَه الذى يأخذه بمنافِعِه ومصالحِه .

وهذه حالُ الناس المْنقَادين لشَهَواتهم ، المتَّبِعين لأهوائهم .

وقد يقعِ فيه الجَيِّدُ الطّبعِ ، الصحيحُ الرّوِيَّةِ ، القوىّ العزيمةِ فلا يأتى من الأمور إلا أجملَها ، قامِعاً لِهوَاه ، مُتحمِّلاً ثقلَ مئونةِ ذلك ، لما ينتظره من حُسن العاقبةِ وإحْمادِها .

ومثل هذا قليل ، بل أقلُّ من القليل ، وليس إلى أمثاله يوجّه الخطابُ بالأمر فى النهى ، ولا إيَّاه الخُوِّف بالوعْد والوعيد ، وأنْذِر العذابَ الأليمَ .

لماذا يرتبك الخطيب على المنبر ؟

ما السبب فى أن الخطيب على المنبر ، وبين السّماطين وفى يوم المحفل - يَعْتَريه من الحَصَر والتّتعْتُعِ والخجلِ فى شىء قد حَفِظَهُ وأتْقنه ، ووَثِقَ بحسنه ونَقَائِه ؟
أَتُرَاه ما الذى يَسْتَشْعِر حتى يَضِلَّ ذهنُه ، ، ويَعْصِيَه لِسانُه ، ويتحيرَّ بالُه ، ويُملكَ عليه أمرهُ .

الجــواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله :

إنَّ انصرافَ النفسِ بالفِكْر إلى جهة من الجهات يعَوُقهُ عن التصرُّف فى غيرها من الجهات ، ولذلك لا يقدِرُ أحد أنْ يجمعَ بين الفكر فى مسألة هندسَّيةٍ وأخرى نحوّيةٍ أو شِعْرِيّة . بل لا يتمكَّنُ أحد من تدبير أمرٍ دُنيوىٍ .

السؤال ؟!

لم صارتْ أبوبُ البحْثِ عن كل شىء موجودٍ أربعةً ؟ وهى : هل ، والثانى ما ، والثالث أىّ ، والرابع لِمَ .

الجــواب

قال أبو على مسكويه ـ رحمه الله :

لأنّ هذه الأشياءَ الأربعةَ هى مبادىء جميع الموجودات وعِلَلُها الأُوَلُ . والشُّكُوكُ إنما تعرِضُ فى هذه ، فإذا أُحيطَ بها لَمْ يبقَ وجهٌ لدخول شكّ .

وذلك أنّ المْبدأَ الأوّلَ فى وجودِ الشىءِ هو ثَبَاتُ ذاتِه ، أعنى هُوِيّته التى يُبْحثُ عنها بهل ، فإذا شَكَّ إنسانٌ فى هُوِيَّةِ الشىء ، أىْ فى وجود ذاتِه لم يُبْحَثْ عن شىء آخر من أمره .

فإذا زال عنه الشَّكُّ فى وجوده ، وأثْبَتَ له ذاتا وهوّية جاز بعد ذلك أنْ يَبْحَثَ عن المبدأ الثانى من وجوده وهو صورتُه ، أعنى نوعَه الذى قَوَّمَه ، وصار به هو ما هو ، وهذا هو البحث بما ، لأنّ ما هى بَحْثٌ عن النوع ، والصورةِ المقِّومِة .

فإذا حَصَّلَ الإنسان فى الشىء المحجوبِ عنه هذين ، وهما : الوجودُ الأوّلُ والهوّيةُ التى بحث عنها بهل ، والوجودُ الثانى وهو النوعيَّةُ أعنى الصورةَ المقِّومَةَ التى بحث عنها بما ـ جاز أنْ يَبْحَثَ عن الشىء الذى يميِّزُه من غيره ، أعنى الفصْلَ ، وهذا هو المبدأُ الثالثُ، لأنّ الذى يميزِّه من غيره هو الذى يُبْحَثُ عنه بأىّ ، أعنى الفصلَ الذاتىَّ له .

فإذا حَصَّلَ من الشيء المبحوثِ عنه هذه المبادىء الثلاثةَ لمْ يبقَ فى أمرِه ما يَعْتَرِضُه شكٌ ، وصحَّ العلْمُ به إلا حالَ كمالِه ، والشيءَ الذى من أجله وُجِدَ ، وهذه العلَّةُ الأخيرةُ التى تسمَّى الكماليّة وهى أشرفُ العللِ . وأرسطاليسُ هو أوَّلُ من نبَّه عليها واستخرجها ، وذاك أنّ العللَ الثلاثَ هى كلُّها خَوادِمُ وأسبابٌ لهذه العلّةِ الأخيرةِ ، وكأنها كلَّها إنما وُجِدَتْ لها ولأجلها . وهذه التى يُبْحَثُ عنها بِلَمِ .

فإذا عُرِفَ لِمَ وُجِدَ ، وما غرضُه الأخيرُ ، أعنى الذى وُجِدَ من أجْله ـ انقطعَ البحثُ ، وحَصَلَ العلْمُ التامُّ بالشيء ، وزالت الشكوكُ كلها فى أمره ، ولَمْ يبقَ وجه تشوُّقه النفس بالرّوِية فيه ، والشّوقِ إلى معرفته ، لأن الإحاطةَ بجميع عِلِلهِ ومبادئِه واقعةٌ حاصلةٌ ، وليس للشَّكِّ وجهٌ يتطرَّقُ إليه ، فلذلك صارت البحوثُ أربعةً لا أقلَّ ولا أكثر .

***



المقابسات

حبا للفلسفة ، وبعد أن تقدمت رؤيته في الحياة ، وبعد طرح الأسئلة في الهوامل والشوامل ، يضع أبو حيان المقابسات . والكتاب صورة دقيقة ليس لرؤية التوحيدي فقط ، ولكن للحالة الفكرية في عصره .

اعتمدنا على طبعتين ، الأولى لحسن السندوبي سنة ١٩٢٩ ، وطبعة محمد توفيق حسين الثانية الصادرة عن دار الآداب في بيروت سنة ١٩٨٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقى إلا بالله . اللهم إليك نرغب فيما أنت أهله ، ومظنته ، ومعروف به . ونلتمس منك ما أنت واجده ، وقادر عليه ، ومأمول فيه . فهب لنا بجودك ومجدك روح القلب بنور العقل ، وسكون البال ببصيرة النفس ، ورخاء العيش بدرور الرزق ، وصلاح الحال بفائض الخير ، وصواب الفضل بثبات العقل ، وبلوغ الغاية بصحة العزم ، ونيل المراد بدوام الصبر ، وبعد الصيت بحسن السيرة ، وتتابع الثناء بمرضى الطريقة ، وفاشى النعمة براتب العز ، وسلامة العاقبة بحيازة الفوز . واكفنا من اللسان فلتته ، ومن الهوى فتنته ، ومن الشر خطرته ، ومن الرأى غلطته ، ومن الظن خبطته ، ومن الطبع سورته ، ومن الثقة غدرته ، ومن الأمين روعته ، ومن العدو سطوته . وجنبنا معاندة الحق ، ومجانبة الصدق ، وشراسة الخَلْق ، ومذمة الخُلُق ، والعجب بالعلم ، والبهت بالجهل ، والاستعانة باللجاج ، والاخلاد إلى العاجلة ، والخفوق مع كل ريح ، واتباع كل ناعق . حتى نوحدك بسرائر سليمة من الشرك ، ونقدسك بألسنة نقية من الهُجْر ، ونتوجه إليك بقلوب صافية من الدغل ، ونعبدك عبادة بريئة من الرياء خالصة باليقين ، ونستجيب لك فى كل سهل وعسير ، ونستريح اليك فى كل قليل وكثير ، وحتى نرى أن ما حرمنا من المال والثروة تخفيف عنا ، وما رزقنا من العلم والحكمة تشريف لنا ، وحتى نعتقد أنك لم تسد إلى إحد من خلقك الا ما هو لائق بالاهيتك ، والا ماهو أخذ بأوفر الأنصباء من غامر جودك وسابغ نعمتك وحاضر صنعتك ، لانك الله العزيز الحكيم ، الجواد الكريم ، الرؤوف الرحيم .

أطال الله حياتك ، وأعز قدرتك ، وأكرم مثواك ، وقرن النجح بسعيك ، وضاعف منائحه قبلك وأدامها [لك] ، وذب عنها ما يكدرها عليك . لم يذهب علىَّ حظى فى البدار إلى رسمك ، والسَّرَع الى طاعتك ، فيما أشرت اليه ، وحضضت عليه ، من تصنيف أشياء من الفلسفة رويتها لك ، ونشرتها عليك ، وحطت بها رغبتك فيها ونشاطك لاقتنائها ، واضافة أشياء أخر ، تجرى معها وتدخل فى طرازها وتقوى عمدها وتدل على شرف جوهرها وانافة محلها ، عن مشائخ العصر الذى أدركته والزمان الذى لحقتهم فيه . ووالله ما تلومت على جمعها فى كتاب ، واهدائها إليك فى أقرب وقت على أيسر وجه ، الا لغمرات هذه الدنيا ، واختلاف أحوال أهلها ، وتقلب ظلالها وأفيائها ووجى نجومها وأنوائها ، وقلة يقظة آبائها وأبنائها ، وانحطاط

رتبة بعد رتبة بأهلها ، (وفساد) حال بعد حال على المتعلقين بحبالها ، الحاليين لضرعها ، النادمين فى عواقبها . فقد أصبحنا فى هذه الدار وكأنما هى قاع أملس أوبرّ أخرس . لم يبق من يرضى هديه ، أو يقتبس علمه ، أو يخطب عرفه ، أو يعتفى جوده ، أو يقدح زنده ، أو يستفاد لفظه ، أو يتوخى معانه ، أو يعرف حده ، أو يعرض أدب من الآداب عليه ، أو يباش بوجه من الوجوه اليه . وما ذاك الا لنغل القلوب ، ودخل الأعراق ، وخلوقة الدين ، وغلبة القحة ، وارتفاع المراقبة ، وسقوط الهيبة ، ورفض السياسة ، والتبجح بالفحشاء والمنكر . ولعمرى مازالت الدنيا على سجيتها المعروفة وعادتها المألوفة ، ولكن اشتدت مؤونتها ، وتضاعفت رزيتها اليوم ، بفقد السائس الصارم ، وبعدم العابد العالم ، وبانقراض أهل الحياء والتكرم ، وبتصالح الناس على التعادى والتظالم . ولله جل وجهه وتقدس اسمه فى هذا الخلق غيب لا يعرف قابه ، ولا يفتح بابه ، ولا يقع القياس عليه ، ولا يهتدى الاحساس إليه ، ومن أجله سقط الاعتراض ، ووجب التسليم والانقياد . وأدع هذا فإنه سلم طويل ، وفضاء عريض .

بل ما أخرت حاجتك إلى هذه الغاية ، مع تقاضيك بالتعريض والتصريح ، وإلحاحك بالغداة والعشى ، وتلطفك بالشفيع بعد الشفيع ، الا لظنى بأنها تزيف على نقدك ، وتتبهرج بتقليبك ، ويبدو عوارها لعينك ، ويتجه عليها وعلى من أجلها ما شئت من طعنك ولائمتك . وفى السكوت ، أبقاك الله ، أمان من هذا كله . وليس القلم كاللسان ، ولا الخط كالبيان ، ولا مايذهب مع الانفاس كما يبقى وسمه بين الناس . فهذا وأشباهه كان يقصّ جناح العزم ، ويغضّ طرف النشاط ، ويغطىّ وجه الهمة ، ويكذب رائد الطمع ، ويلجلج لسان الرأى ، الى أن قال بعض من أثق بخلته ، وأستنير بمشورته ، وأستقبل مقاصدى برأيه ، ينبغى أن تتأتى لعمل ما أَهَّلَكَ فلان له وشرفك به ، وتخفّ إلى مراده ، وتعلم أن ائتمارك لأمره رشد وأثرة وجمال وزينة . وليس فى فرش فضائل هؤلاء المشايخ ، وتحبير كلامهم ، عليك مؤونة غليظة ، ولا مشقة فادحة ، ولا كلفة شديدة . ولأنك ان لم تبلغ منها ذروة الخاصة لا تقع منها إلى حضيض العامة ، بل ان لم تزد ما تحكيه عنهم رونق لفظ ، وبهاء رصف ، وتقريب بعيد ، وإيضاح مشكل ، لم تبخسه حظه من الحقيقة التى إليها انتهت المطالبة وعليها وقعت الارادة . فخفض عليك ، وخفف عنك ، فما بالأمر كل

هذه الصعوبة ، ولابك كل هذا العجز ، وقال أيضا : قد علم الصغير والكبير أن كلا يتنفس برئته ، وينشى بأنفه ، وينباع بساعده ، ويسبق الى غايته ، ويعمل على شاكلته ، ويجزىٰ على قدر عمله ونيته واجتهاده . فوهب اليّ هذا الكلام قوة ولكن مدخولة ، وأفاءَ عليّ نشاطاً ولكن ضعيفاً . فأقبلت على ما عرفتك من حالى ، فى ضيق صدرى ، وفقد أنسى ، وانسداد مذهبى ، أتألف ما شرد منها ، وأنظم ما انتثر منها ، وأرقع بجهدى وطاقتى شملها ، وأحلّى بوسعى عطلها . ومن بذل لك مجهوده فقد حرم عليك ذمه ، ومن سعى الى مرادك شوطه فقد استحق منك ثوابه . هذا فى أوائل التعارف ، وفواتح التناصف . وارجو أن لا اخيس بين إرادتى الخير لك وبين اشتمالك بالكرم عليّ ، إن شاء الله تعالى .

المقابسة الأولى

نـداء قريب

سمعت أبا سليمان المنطقى يقول : بالاعتبار تظهر الاسرار ، وبتقديم الاختبار يصح الاختيار ، ومن ساء نظره لنفسه قل نصحه لغيره . وكما تنظف الآنية من وسخ ما جاورها ولابسها ، ووضر ما خالطها ودنسها ، لتشرب فيها ، أو لتنظر اليها ، وتستصحبها ، وتحفظها ، ولتكون غنياً بها ، ولا تريدها الا طاهرة نقية صافية مجلوة ، ومتى لم تجدها كذلك عفتها وكرهتها ونفرت عنها وطرحتها ، لأن طبيعتك لا تساعدك عليها ، ونفرتك لا تزول منها ، وإباؤك لا يفارقك من أجلها ، وقشعريرتك لا تذهب من بشاعة منظرها ، كذلك فاعلم أنك لا تصل الى سعادة نفسك ، وكمال حقيقتك ، وتصفية ذاتك ، الا بتنقيتها من درن بدنك ، وصقالها من كدر جبلتك ، وصرفها عن ظلمة هواك ، وفطامها عن رضاع شهوتك ، وحسمها عن الضراوة على سوء عادتك ، وردها عن سلوك الطريق الى هلكتك وتلفك ونبوذك واضمحلالك . فاسعد أيها الانسان بما تسمع وتبصر وتحس وتعقل ، فقد أردت لحال نفيسة ، ودعيت الى غاية شريفة ، وهيئت لدرجة رفيعة ، وحلّيت بحلية رائعة ، ونوجيت بكلمة جامعة ، ونوديت من ناحية قريبة .

مثال الملك[1]

ثم قيل : وهذا يوضح بمثال . وليكن ذلك المثال ملكاً فى زمانك وبلادك ، واسع الملك ، عظيم الشأن ، بعيد الصيت ، شائع الهيبة ، معروفاً بالحكمة ، مشهوراً بالحزامة ، متصل اليقظة ، قد صحّ عنه أنه يضع الخير فى موضعه ، ويوقع الشر فى موقعه ، عنده جزاء كل سيئة وثواب كل حسنة ، قد رتب لبريده أصلح الأولياء له ، وكذلك نصب لجباية أمواله أقوم الناس به ، وكذلك عمارة الأرض أنهض الناس بها وانصحهم فيها ، وشرف آخر بكتابته بحضرته ، وآخر بخلافته ووزارته فى حضره وسفره . اذا نظرت الى ملكه وجدته موزونا بسداد الرأى ومحمود التدبير ، وأولياؤه حواليه ، وحاشيته بين يديه ، وكل يخف الى ما هو منوط به ، ويستقصى طاقته فيه ويبذل وسعه دونه . والملك يأمر وينهى ، ويصدر ويورد ، ويحل ويعقد ، وينظم ويبدد ، ويعد ويوعد ، ويبرق ويرعد ، ويعدم ويوجد ، ويخلع ويهب ، ويعاقب ويثيب ، ويفقر ويغنى ، ويحسن ويسىء . فقد علم صغير أوليائه وكبيرهم ، ووضيع رعاياه وشريفهم ، ونبيه الناس وخاملهم ، أن الرأى الذى تعلق بأمر كذا صدر من الملك الى كاتبه لأنه من جنس الكتابة وعلائقها ومايدخل فى شرائطها ووثائقها ، والرأى الآخر صدر إلى صاحب بريده لأنه من جنس أحكام البريد وفنونه وما يجرى فى حلبته ، والأمر الآخر ألقى إلى صاحب المعونة لأنه من جنس ما هو مرتب له ومنصوب من أجله ، والحديث الآخر صدر الى القاضى لأنه من باب الدين والحكم والفصل ، وكل هذا مسلم إليه ومعصوب به لا يفتات عليه فى شىء ، ولا يستبد بشىء دونه . فالأحوال على هذا كلها جارية على إذلالها وقواعدها فى مجاريها لا يزل منها شىء إلى غير شكله ، ولا يرتقى إلى ما ليس من طبقته وهكذا ما عدا جميع ما حددناه باسمه وحلّيناه برسمه . فلو وقف رجل له من الحزم نصيب ، ومن اليقظة قسط ، على هذا الملك العظيم ، وعلى هذا الملك الجسيم ، وسدد فكره ، وحدد وهمه ، وصرف ذهنه ، وتصفح حالاً [حالاً] وحسب شيئا شيئا ، وقدر أمراً أمراً ، وتأمل باباً باباً ، وتخلل بيتاً بيتاً ، ورفع سجفاً سجفاً ، ونقض وجهاً وجهاً ، لأمكنه أن يعلم بما يثمر له هذا النظر ، ويثيره هذا القياس ، ويصيده هذا الحدس ، ويقع عليه

---

[1] من المقابسة الثانية .

هذا الامكان ، ما يستعمله هذا الملك غدا ، ويبتديه بعد غد ، وما يتقدم به الى شهر ، وما كاد يكون منه الى سنة وسنين ، لأنه يفلى الأحوال فلياً ، ويجلوها جلواً ، فيقايس بينها قياساً ، ويلتقط من الناس لفظاً لفظاً ، ولحظاً لحظاً ، ويقول فى بعضها رأيت الملك يقول كذا وكذا ، وهذا يدل بعد على كذا وكذا . وإنما جرَّأه هذه الجرأة على هذا الحكم والبت لأنه قد ملك لحظ الملك ولفظه ، وحركته وسكنه ، وتعريضه وتصريحه ، وجده وهزله ، وشكله وسحنته ، وتجعده واسترساله ، ووجومه ونشاطه ، وانقباضه وانبساطه ، وغضبه ومرضاته ، ونادره ومعتاده ، وسفره وحضره ، وبشره وقطوبه . ثم يهجس فى نفس هذا الملك يوماً هاجس ، ويخطر بباله خاطر ، فيقول : أريد أن أعمل عملاً ، وأوثر أثراً ، واحدث حالاً ، لا يقف عليها أوليائى ولا المطيفون بى ولا المختصون بقربى ولا المتعلقون بحبالى ولا أحد من أعدائى والمتتبعين لأمرى والمحصين لأنفاسى والمترقبين لعطاسى ، ولا أدرى كيف افتتحه واقترحه ، لأنى متى تقدمت فى ذلك بشىء الى كل من يلوذ بى ويطيف بناحيتى ، كان الأمر فى ذلك نظير جميع أمورى ، وهذا هو الفساد الذى يلزمنى تجنبه ويجب على التيقظ فيه . فيقدح له الفكر الثاقب ، والذكاء اللاهب ، أنه ينبغى أن يتأهب للصيد ذات يوم . فيتقدم بذلك ويذيعه ويطالب به . فيأخذ أصحابه فى أهبة ذلك واعداد الآلة . فاذا تكامل ذلك له اصحر للصيد ، وتشوف له ، وتقلب له فى البيداء ، وصمم على بعض ما يلوح له ، وامعن وراءه وركض خلفه جواده ، وبدد فى طلبه بدده ، ونهى من معه ان يتبعه . حتى اذا أوغل فى تلك الفجاج الخاوية والمدارج المتباينة ، وتباعد عن متن الجادة وواضح المحجة ، صادف انساناً فوقف عليه وحاوره وفاوضه فوجده حصيفاً محصلاً يتقد فهماً وينقد إفهاماً . فقال له أفيك خير؟ فقال نعم ! وهل الخير إلا فىّ ، وعندى ، والا معى ؟ ألقِ الىّ ما بدا لك ، وخلنى وذلك . فقال : ان الواقف عليك ، المكلم لك ، ملك هذا الأقليم ، فلا ترع واهدأ ولا تقلق فيكفر له عند سماع هذا ، ويقول : لسعادة قيضتنى لك ، والجد اطلعك علىّ . فيقول له الملك : انى أريد أن اصطنعك لأرب فى نفسى ، وأبلغ بك ان بلغت ذاك لى ، وأريد منك ان تكون عيناً على نفسك ذكية ، وصاحباً لى نصوحاً ، فقم لى بذلك جهدك ووسعك ، واطو سرى هذا عن سانح فؤادك فضلاً عما سوى ذلك . فاذا بلغ منه غاية الوثيقة

والتوكد ألقى اليه عجرته وبجرته ، وبعثه على السعى والنصح وتحرى الرضى ، ووصاه بما أحب وأحكمه ، وأزاح علته فى جميع ما تعلق المراد به ولا يتم الا بحضوره . ثم ثنى عنان دابته إلى وجه عسكره وأوليائه ، ولحق بهم ، وتعلل بقية نهاره فى قضاء وطره من صيده . ثم عاد إلى سريره فى داره ومقره فى ملكه ، وليس عند أحد من رهطه وبطانته وغاشيته وحاشيته وخاصته وعامته علم بما قد أسره الى ذلك الكهل الصحراوى وبما حادثه فيه . والناس على سكناتهم وغفلاتهم حتى أصبحوا ذات يوم عن حادث عظيم ، وأمر جسيم ، وشأن هائل ، وعارض محير . فكل عند ذلك يقول : ما أعجب هذا ! من انتصب لهذا ؟ وكيف تم هذا ؟ هذا صاحب البريد وليس عنده منه أثر ، وهذا صاحب المعونة وهو عن الخبرة به بمعزل ، وهذا الوزير الأكبر وهو متحير ، وهذا القاضى وهو متفكر ، وهذا حاجبه وهو ذاهل . وكل عن الأمر الذى دهم مشدوه ، ومنه متعجب . وقد قضى الملك مأربته ، وأدرك حاجته ، وأصاب طلبته ، وبلغ غايته ، ونال أربه . كذلك ينظر هذا المنجم الى زحل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر ، والى البروج وطبائعها ، والرأس والذنب وتقاطعهما ، والهيلاج والكدخداه ، والى جميع ما دانى هذا وقارب وكان له فيه نتيجة وثمرة ، فيحسب ويمزج ويرسم ، وتنقلب عنه أشياء كثيرة من سائر الكواكب التى لها حركات بطيئة وآثار مطوية ، فينبعث مما أغفله وأهمله وأضرب عنه ولم يتسع له ما يملك عليه حسه وعقله وفكره ورويته ، حتى لا يدرى من أين أتى ، ومن أين دهى ، وكيف انفرج عليه الأمر ، وانسد دونه المطلب ، وفاته المطلوب ، وعزب عنه الرأى . هذا ولا خطأ فى الحساب ، ولا تقصير فى قصد الحق . وهذا كى يلاذ بالله عز وجل فى الأمور ، ويعلم أن الله مالك الدهور ، ومدبر الخلائق ، وصاحب الدواعى والعوائق ، والقائم على كل نفس ، والحاضر عند كل نفس ، وأنه اذا شاء نفع وان شاء ضر ، وإذا شاء عافى وإذا شاء أسقم وإذا شاء أغنى وإذا شاء أفقر ، وإذا شاء أحيا وإذا شاء أمات ، وانه كاشف الكربة والمؤنس فى الغربة ، وانه مجلّى الغمة وصارف الأزمة ، ليس فوق يده يد ، وهو الأحد الصمد على الأبد والسرمد .

المقابسة الخامسة
الزمان والمكان

قلت لأبى بكر القومسى ، وكان كبيراً فى علم الأوائل : بأى معنى يكون هذا الزمان أشرف من هذا الزمان ، وهذا المكان أفضل من هذا المكان ، وهذا الإنسان أشرف من هذا الإنسان ؟ فقال : هذا يسوغ بإضافة الزمان إلى سعادة سابغة ، وخير غامر ، وبركة فائضة ، وخصب عام ، وشريعة مقبولة ، وخيرات مفعولة ، ومكارم مؤثرة ، من جهة شكل الفلك بما يقتضيه بعض أدواره. وكذلك المكان إذا قابله أثر من هذه الأجرام الشريفة والأعلام المنيفة . فأما الزمان ، الذى هو رسم الفلك بحركته الخاصة ، فليس فيه جزء أشرف من جزء وكذلك المكان لأنه رديف الزمان . ولا سبيل فى مثل هذه المسائل إلى معرفة الحقائق الا بالاضافة التى هى شاملة للعالم ، غالبة عليه ، من محيطه إلى مركزه . فأما الإنسان فلا شرف له أيضا على إنسان آخر من جهة حده الذى هو الحياة والنطق والموت ، لأن الحد فى كل واحد واحد . فاذن لاشرف من هذا الوجه . فان اعتبر بعد هذا فعل هذا ، وفعل هذا ، من جهة الاختيار والايثار والاكتساب والاجتلاب ، فذاك يقف على الاشرف فالاشرف ، والأعلى فالأعلى ، بحسب ما يوجد منظوما فيه ، نافعا لغيره ، واقعا موقعه الأخص به .

المقابسة السادسة
اختلاف الألفاظ .. لماذا أحلى ؟

قلت لأبى بكر القومسى ـ وكان كبير الطبقة فى الفلسفة ، لزم يحيى بن عدى زمانا ، وكتب لنصر الدولة ، وكان حلو الكتابة ، مقبول الجملة : ما معنى قول بعض الحكماء : الألفاظ تقع فى السمع فكلما اختلفت كانت أحلى ؟ [والمعانى تقع فى النفس فكلما اتفقت كانت أحلى] . فقال : هذا كلام مليح ، وله قسط من الصواب والحق . ان الألفاظ يستمليها السمع ، والسمع حِسٌّ ، ومن شأن الحس التبدد فى نفسه والتبديد فى نفسه . والمعانى تستفيدها النفس ، ومن شأنها التوحد بها ، والتوحيد لها ، ولهذا تبقى الصورة عند النفس قنية وملكة ، وتبطل عند الحس بطولا ، وتمحى امحاء . والحس تابع للطبيعة ، والنفس متقبلة للعقل . فكأن الألفاظ

على هذا التدريج والتنسيق من أمة الحس ، والمعانى المعقولة له من أمة العقل . فالاختلاف فى الأول بالواجب ، والاتفاق فى الثانى بالواجب . وبالجملة الألفاظ وسائط بين الناطق والسامع ، فكلما اختلفت مراتبها على عادة أهلها كان وشيها أروع وأجهر . والمعانى جواهر النفس ، فكلما إئتلفت حقائقها على شهادة العقل كانت صورتها انصع وأبهر . واذا وفيت البحث حقه فان اللفظ يجزل تارة ويرق أخرى ، ويتوسط تارة ، بحسب ملابسته التى له من نور النفس ، وفيض العقل ، وشهادة الحق ، وبراعة النظم . وقد يتفق هذا التعديل لانسان بمزاجه الصحيح ، وطبيعته الجيدة ، واختياره المحمود ، وقد يفوته من هذا الوجه فيتلافاه بحسن الاقتداء بمن سبق بهذه المعانى اليه ، فيكون اقتداؤه حافظا عليه نسبة البيان على شكله المعجب وصورته المعشوقة . ومدار البيان على صحة التقسيم ، وتخير اللفظ ، وزينة النظم ، وتقريب المراد ، ومعرفة الوصل والفصل ، وتوخى المكان والزمان ، ومجانبة العسف والاستكراه ، وطلب العفو كيف كان .

المقابسة السابعة

لماذا لا ينكتم السر ؟

قيل لأبى سليمان ، وقد جرى كلام فى السر وطيه والبوح به ، ما السبب فى أن السر لا ينكتم البتة ؟ فقال : لأن السر اسم لأمر موجود قد ضرب دونه حجاب ، وأغلق عليه باب ، فعليه بالكتمان والطى والخفاء والستر مسحة من العدم ، وهو مع ذلك موجود العين ثابت الذات محصل الجوهر ، فباتصال الزمان وامتداد حركة الفلك يتوجه نحو غاية هى كماله ، فلابد له اذا من النمو والظهور ، لأن انتهاءه اليهما ووقوفه عليهما ، ولو بقى مكتوما خافيا أبدا لكان والمعدوم سواء ، وهذا غير سائغ ، أعنى أن يكون الموجود معدوما ، ولو قبل الوهم هذا لقبل أن يكون المعدوم موجودا . وهذه مسألة فى الهوامل ولها جواب فى الشوامل . لكن هذا القدر مستفاد من هذا الشيخ الفاضل . ومرّ أيضا فى كلامه أن الحجاب المضروب على هذا السر يرث ويخلق ، لأنه لا يبقى على هيئته الأولى يوم يقع سرا ، ويحدث مكتوما . ثم قال : هذه الخواطر والسوانح ، على لطفها ودقتها وشدة خفائها وغموض مشاربها ، تبدو وتظهر وتقوى وتكثر ، حتى يعرف منها الشىء بعد الشىء ، باللحظ والسحنة والتلفت

بها . والناس إذا عدموا شيئا عدموا اسمه ، لأن اسمه فرع عليه ، وعينه أصل له ، وإذا ارتفع الأصل ارتفع الفرع ، هذا مالا دفاع له ، ولا امتناع منه . وخواص الخواص معدومة الأسماء . ونحن نحس بمعان جمة ، وفوائد كثيرة ، لا نستطيع صرفها عن أنفسنا ، وقد التبست بها ، وقرت فى أثنائها . ومع ذلك إذا حاولنا أسماءها عجزنا . بلى قد نعتاض من الأسماء الفائتة اشارات بصفات وتشبيهات تقوم لنا من بعد مقام الأسماء الفائتة ، ولكن لها فينا أعمال رديئة وإيهامات عندنا فاسدة ، ولكن ليس لنا فى هذا بوجه من الوجوه حيلة . فمن جملة ذلك هذا الذى نحن فيه ، أعنى أنه قد صح بالبرهان أن فعل الله تقدس وعلا ليس باضطرار ، لأن هذا فعل عاجز ، ولا دافع لهذا القول . وليس باختيار أيضا لأن فى الاختيار معنى قويا من الانفعال . وهذا مسلم عند من ألف شيئا من الفلسفة ، وشدا بعض علم الأوائل . فلم يبق بعد هذا الا انه بنحو عال شريف يضيق عنه الاسم مشارا إليه ، والرسم مدلولا به عليه . ولو قال لك رجل لم خبرت عن الله بالتذكير دون التأنيث ؟ لم يكن عندك الا أن تقول هذا ما أقدر عليه وليس عندى لما هو حقه فى الخبر عنه اسم يخصه ، وأكثر ما أمكننى أنى لم أنعته بما أنعت به الأنثى . وهذا لأن التذكير والتأنيث معنيان يوجدان فينا وفيما أشبهنا من سائر الحيوان وهما منفيان عن الله تعالى من كل وجه وبكل وهم .

ثم قال : بعد هذا الذى أقدم من القول ، والذى أختاره فى هذا الجواب ، مع هذا التضييق الواقع ، أن قولنا يفعل لا يصح معناه فى البارى البتة . بل قولنا يفعل عبارة عن انفعال الأشياء له ، لأن الأشياء كلها مشتاقة إليه ، متوجهة نحوه ، مستأنسة به ، مقتبسة منه . وذلك أيضا لأن وجوده قد حرك الأشياء إلى ذاته ، وشوقها إلى قربه ، وبث الوسائط بينها وبينه . ثم ضرب مثلا يقال : ألا ترى إلى الطبل يضرب عند الرحيل من قبل الملك ، فترى كل احد قد تحرك حركة لائقة به موقوفة عليه نحو الملك ، من غير أن يكون قد تقدم إلى واحد واحد منهم بما هو إليه بل هو على سكونه وحاله السالفة . وانما لاح لهم لائح فتحركوا مشتاقين متشبهين .

ثم قال : وينبغى أن يعلم أنه لا فاعل الا وهو يعتريه نوع من أنواع الانفعال فى فعله ، كما أنه لا منفعل الا وهو يعتريه نوع من أنواع الفعل فى انفعاله ، الا أن

الانفعال فى الفاعل خفى جدا ، والفعل فى المنفعل خفى جدا ، فلهذا لا يطلق على الفاعل الا الاسم الأخص له ، الأعم لجملته . وهذا وان كان الاطلاق والاستعمال على حد ما حقق القول فيه ، وأن المعقول لا سبيل إلى إنكاره ، وما عرف بالحقيقة لا طريق إلى جحوده . فقد بان أنّ قولنا يفعل ولا يفعل ، وفاعل وغير فاعل ، كلمات مطلقة على حد المجاز والعادة .

المقابسة العشرون
بعد الموت

قال المجوسى ، وكان ذا حظ وافر من الحكمة ، لأبى الحسن محمد بن يوسف العامرى ، وكان من أعلام عصره : أيها الشيخ ! إنى أجد النظر فى حال النفس بعد الموت مبنيا على الظن والتوهم . وذاك ان الإنسان كما يستحيل منه أن يعلم حاله قبل كونه ، [كذلك يستحيل أن يعلم حاله بعد كونه] لأنه يصير مستقى علمه ومستنبط مراده عدما ، والعدم لا يقتبس منه علم شىء بوجه ، ولا يستفاد منه معرفة حال ، لا فيما يتعلق بالحق ، ولا فيما يتعلق بالباطل .

فقال فى الجواب : ليس النظر فى حال النفس بعد الموت مبنيا على الظن ، وإن كان شبيها به . وليس يجب أن يثبت القضاء فى هذا المعنى بالظن للمشابهة القائمة بينه وبين غيره ، لأن الفصل حاضر والفرق ظاهر . وذلك أن الإنسان لم يجهل حاله قط فيما سلف ، لأن الطريق إلى تبين ذلك وتحصيله مسلوك ، والشاهد على ثمره المطلوب قائم ، والتقريب يدل على ذلك فى هذا الوقت . وان كان البرهان فى الصناعة موجودا إذا أخذت على ترتيبها الخاص لها فى معرفة المنطق ، الذى هو آلة فى استقراء الطبيعات التى هى مراق ، وفى معرفة النفس التى هى طلبة كل ناظر فى علم ، وتحقق بنحلة .

كان الإنسان أجزاء مبثوثة فى هذا العالم ، فلما صمدت النفس لها ، حركت الطبيعة على تأليفها ، وتوزيع الحالات المختلفة فيها ، وأعطتها النفس بوساطة الطبيعة صورة خصتها بها ، ودبرت أخلاطها ، وهيأت مزاجها ، فظهر الإنسان فى الثانى بشكل غير الشكل الذى كان لأجزائه ، التى مردّها فى آخر البحث إلى الهيولى ، بالقول المجمل .

والكلام فى هذا ذو شعب وذوائب . ثم ان الإنسان ، فى معارفه التى يترقى فى درجاتها ، يجد لنفسه قنية ليست كسائر القنيات ، وهيأة ليست كجميع الهيئات ، أعنى الحكمة التى هى علم الحق والعمل بالحق . فيجول طالبا لبقائها ، ناظرا وباحثا عن حقيقة ذلك ، حائرا إلى أن يبلغ بفرط العناية ، وجودة الفحص ، وحسن مشاورة

قيل له : فهل تقول : إن النفس ذات إنسان ؟ قال : لا ، لانهاغنية عن الإضافة . ألا ترى أنه لا يقال : إن الثوب ذو إنسان ، وإن اليد ذات إنسان ، كما يقال أن الإنسان ذو ثوب ، والإنسان ذو يد ، لأنه لا حاجة بالثوب للانسان ، وإنما الحاجة بالإنسان إلى الثوب واليد .

ثم قال : واعلم أنه ينبغي أن تفهم من قولنا الإنسان ذو نفس أنه بالنفس إنسان ، لأن الإنسان عرف بالنفس أنه إنسان . ومما يزيدك بياناً أنك إذا قلت الإنسان ذو نفس ، فقد اضمرت فى الإنسان نفساً فى الأول ، ثم ميزته بعد بقولك ذو نفس ، وذا رجوع فيما أعطيت . ألا ترى أنك إذا قلت : الإنسان ذو ثوب ، لم تضمر الثوب فى الإنسان ، بل تميزه منه حتى تكون اشارتك إلى هذا غير إشارتك إلى هذا . فقد انكشف أن الإنسان لا يقال هو ذو نفس إلا على سعة وتجوّز . ومما يزيدك أيضاً استبانة أن معنى الملك يستحيل فى هذا الكلام . وقولك الإنسان ذو ثوب إيضاح للملك ، والمالك غير المملوك . وليس كذلك الإنسان مع النفس ، فإنه لا يملك النفس ، بل النفس تملكه . ألا ترى أنها تصرّفه ، وتكلّفه ، وتستعمله ، وتستكمله . فأين معنى الملك ، الذى يقتضيه اللفظ ، فى جميع نظائر هذا القول ؟ هذا يكون من أمرين مختلفين . أحد الأمرين كدر النفس بالجهل ، وظلمتها بالغباوة ، وانمحاء صورتها بصدأ الدهر ، وقلة اقتناء المعارف ، وشدة انجرادها من العبر . وهذه حال دهماء الناس . وأما الآخر فهو أن تعلو النفس فى مراتب المعارف ، وترتعى رياض العلم ، حتى تصير حالها فى الحلم قسيمة حالها فى اليقظة ، فلا يستفيد صاحب هذه النفس شيئاً بالمثال والتشبيه من ناحية الرؤيا ، لا ستواء حاله فى المنام واليقظة . وربما تحولت تلك القوة من المنام إلى الفراسة فى اليقظة ، وإلى الكهانة ، حتى إذا حدس قرطس ، وإذا طنّ طن ، وإذا وهم هجم ، وإذا اعتبر عبّر . وربما تحولت إلى ما يرفد العقل فقط ، باستخراج الدقائق ، وتأليف المقدمات ، واستنباط النتائج ، والوصول إلى سرارة الحق ، وبحبوحة الصواب . وربما صارت الحال مصادفة للحقائق ، بزوال الوسائط ، من غير إعمال أداة ، وإحضار آلة . قال : وهذه كلها درجات النفس . تارة من ناحيتها بالبحث والتنقير والنظر والتقليب ، وتارة بالوحى والإلهام والإلقاء والسنوح والموافقة والمصادفة ، وما جرى فى نظائر هذه المعانى ، والتبس بما يكون شكلاً لها . وهذه حال تقع أولاً فى مزاج مهيّأ ، وتركيب معدل ،

وطينة حرة ، ثم تظهر ثانياً بتهذيب النفس ، وتطهير الأخلاق ، وتصفية الأعمال ، وقمع الشهوات . وكل من كان قسطه من الحال الفلكية أوفر ، كان مضاؤه فى الحال البشرية أظهر . وهذا باب طويل الذيل ، ميّاس . وفيما وقع النص عليه ، ووصلت الإشارة إليه ، بلاغ لمن آثر رشده ، وقصد خظه ، وبذل سعيه ، وأم غايته . وفقنا الله لما نحب ، واستعملنا فيما يرضى ، إنه قريب مجيب .

المقابسة الثالثة والثلاثون

الحركة والسكون

سئل أبو محمد العروضى مرة عن الحركة والسكون أيهما أقدم ؟ فقال : أما عند الحس فالحركة أقدم ، وأما عند العقل فالسكون أقدم . وبعد : فالسكون عدم الحركة . وكل حسّ فقوامه بالحركة ، وكل عقل فصورته بالسكون ، ونظامه بالهدوء ، وخاصته بالطمأنينة ، وأثره بالقرار ، وقوته باليقين . وكأنه من فيض العلة الأولى وجوده ، لأن هذا النعت لكل ما دونه بالاستعارة ، وله بالواجب والحقيقة . والسكون عند العقل عدم الحس ، والحركة عند الحس تأثير العقل . وأطال إطالة شذّ بها عنّى أكثر قوله .

وسمعت أبا سليمان يقول ، ما هو جار مع هذا القول ورفد له ، قال : سكون العقل فى نوع الحركة ، وحركة الحس فى نوع السكون ، لأن حركة الحس إلى الاضمحلال والنكود ، وسكون العقل إلى الكمال والمحصول . وقال أيضا : إن الحركة التى يعتقد لها ضدّ ، أعنى السكون ، هى الحركة التى فى بلاد الحس . فأما الحركة التى للعقل بنوع السكون فلا ضد لها بوجه ، لأن العقل كل بمعنى واحد ، وواحد بمعنى كل ، وله هذا باشتمال العلة الأولى عليه ، واقتباسه منه . وقد وضح أن السكون عدم ما ، فكيف يكون هناك عدم ؟ كما وضح أن الحركة ها هنا عدم ما ، فكيف يكون ها هنا وجود ؟

قيل له فى هذا المكان : فالعالم ساكن أو متحرك ؟ قال : لو كان متحركاً الحركة المعروفة لقلق ، وارجحن ، ومال ، وتهافت . ولو كان ساكناً لبقى كذلك على حال . ولكنه متحرك حركة استدارة ، فلذلك ما يظن به السكون ، وساكن سكون

قابل للفيض ، ولذلك ما يظن به الحركة . فالتشوق حركة ما ولكن عقلية ، والدوام على التشوق سكون ما ولكن عقلى . فكل ما قد فاض من العلة الأولى ، وتقبّله المعلول الثانى ، هو موجود على مراتبه المتباينة ، ودرجاته المختلفة ، بين الطرفين الادنى والأقصى . ومع ذلك فقد وقف الجميع تجاه كل متصفح ، وقبالة كل باحث ، فليس يذهب من جميع ذلك شىء إلا سوء الاختيار ، وقلة الاقتداء بالأفاضل الأخيار . حفظك الله ، لو انتفعنا ببعض هذه الفقر الكريمة ، سعدنا ، ونلنا منيتنا ، فسل ربك ذلك بالتضرّع إليه ، والخضوع بين يديه ، مع العبادة الدائمة ، والبحث اللطيف ، والتؤدة المعتادة ، والإحسان إلى البرية ، فإنك تعطى بغيتك ، وتبلغ غايتك ، وتنال سعادتك .

المقابسة الرابعة والثلاثون

الموجـــود !

سمعت البديهى يقول ـ وكان صاحب يحيى بن عدى دهراً ، وهو حملنى بدعوته اللطيفة إلى مجلسة ـ : من البيّن أن الموجود على ضربين : موجود بالحس ، وموجود بالعقل . ولكل واحد من هذين الموجودين وجود ، بحسب ما هو به موجود، إما حسى ، وإما عقلى ، فعلى هذا ، النفس لها عدم فى أحد الموجودين وهو الحسى ، ولها وجود فى القسم الآخر وهو عقلى . وقد كان الدليل على هذه الحال حاضراً فى هذا العالم ، وذلك أنها كانت تتفكر ، وتبسط ، وتعقل ، وتستبطن ، وتنظم المقدمات ، وتدل على ينابيع المعلومات ، وتعلو إلى غاية الغايات . وليس للحس معها شركة ، ولا له عندها معونة ومادة . فكيف لا تكون النفس التى هذا عنوان كتابتها ، وصريح كنايتها ، وفاضل عنايتها ، بعد مفارقة القشور والحواجز والحيطان والحواجب والغواشى والملابس ، عن الحس أَغنى ، وبجوهرها أغلى ، وبخاصتها اسنى ، وهذه الأشياء عنها أبعد ، وعن شرفها أهبط ؟ وهل هذه الشهادة إلا عادلة ، وهذه البينة إلا مقبولة ، وهذا الحكم إلا مرضى ، وهذا المثال إلا بيّن ؟

ثم قال : ولطائف الحكمة لا يصل إليها الجبس الجافى ، والغليظ الجلف ، والفَدْم العَبام ، والهِلْباجَة العُلْفُوف . وإنما هى تعرض لمن صح ذهنه ، واتسع

فكره ، ودق بحثه ، ورق تصفحه ، واستقامت عادته ، واستنار عقله ، وحسن خلقه ، وعلت همته ، وخمد شره ، وغلب خيره ، وأصُل رأيه ، وجاد تمييزه ، وعذب بيانه ، وقرب ايقانه .

قيل له : هذا عزيز جداً ؟ فقال : كما أن المتشبه به فى هذا عزيز جداً ، وانباع فى هذا الفن وتمطى ، وجاز كل غاية وتخطّى . ومحصولى من ذلك ما سمعته الآن ، وترى . نفعنا الله به وحلاَّنا بأزينه ، واسعدنا بقوله .

المقابسة الخامسون والثلاثون

نعيم أهل الجنة

سمعت أبا إسحاق النصيبى المتكلم ، وكان من غلمان جعل ، يقول : ما اعجب أمر أهل الجنة ! قيل : وكيف ؟ قال : لانهم يبقون هناك لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح . أما تضيق صدورهم ؟ أما يملّون ؟ أما يكلّون ؟ أما يربؤون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة ، التى هى مشاكلة لأحوال البهيمة ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون ، وأخذ فى هذا وشبهه ، يبوج متعجباً ، مستعظماً . وكان يقول بتكافؤ الأدلة ، ويخفيه عن أكثر الناس ، ويفاتح فيه ابن الخليل ويناقله عليه . ولعمرى من طلب طمأنينة النفس ، ويقين القلب ، [ونعمة البال ، بطريقة أصحاب الجدل وأهل البلاء حل به البلاء ، وأحاط به الشقاء . والكلام كله جدل ، ودفاع ، وحيلة ، وإيهام ، وتشبيه ، وتمويه ، وترقيق ، وتزويق ، ومخاتلة ، وتورية ، وقشر بلا لب ، وأرض بلا ريع ، وطريق بلا منار ، وإسناد بلا متن ، وورق بلا ثمر . والمبتدىء فيه سفيه ، والمتوسط شاك ، والحاذق فيهم متَّهَم . وفى الجملة : آفته عظيمة ، وفائدته قليلة .

نعم ، فأعدت على أبى سليمان قوله بنصه ، وحكيت له شمائله فيه . فقال فى الجواب : إنما غلب عليه هذا التعجب من جهة الحس ، لا من جهة شىء آخر . وهكذا كل ما فرض بالحس ، أو لحظ بالحس ، لأنه قد صح أن شأن الحس أن يورث الملال والكلال ، ويحمل على الضجر والانقطاع ، وعلى السآمة والارتداع ، وهذا منه فى ذوى الإحساس ظاهر معروف ، وقائم موجود . وليس كذلك الأمر فى

المعاد ، إذا فرض من جهة العقل ، لأن العقل لا يعتريه الملل ، ولا تصيبه الكلفة ، ولا يمسه اللغوب ، ولا يناله الصمت ، ولا يتحيفه الضجر ، وهكذا حكمه فى الشاهد الحاضر ، والعيان القاهر ، لولا عقل النصيبى ونظرائه . ألم يعلم أنه كان فى هذه الدار ، على شوبها وفسادها وكدرها وتبورها ، كان العقل لا يكل معقوله أبداً ، ولا ينقضى منه ابداً البتة ، ولا يطلب الراحة عنه بوجه ، بل كان العقل إذا وجد معقوله ، وتوحد به ، صار هذا قد احيى ، لا يوجد بينهما بين بحال . فكيف إذا كان المنقلب إلى عالمه الصرف ، الذى لا حيلولة ولا تغير له ، وهو الوجود المحض ، ولأمر الصرف ، والشيء الذى كلما عرفته بالصفة بعد الصفة كان عنها أعلى ، وكلما أوضحته بالعبارة (بعد العبارة) كان عنها أخفى .

وأطال فى هذا الفصل ، وعلقت من جميعه قدر ما قررته فى هذا المكان . ولعلك تجد به ما أكون منصوزاً فيه عندك ، غير ملوم على إساءتك . وفى الجملة القول فى حصول النفس بعد خلع الحد الذى خص به الإنسان صعب . ولولا أمثلة توضح إيضاحاً يثق به الإنسان مرة بعد مرة لكان باب معرفة حالها قد ارتج ، والطريق قد سدّ . وقد بين هذا كله بالبرهان المنطقى فى مواضعه المعروفة إن كانت الثقة تقع كذلك . فأما هذا المقدار فإنه جرى فى عرض مقابسة هؤلاء المشائخ بينهم ، بالحديث والاسترسال . فليكن العذر فيه مقبولاً عندك بحسب الحال التى قلبت ظهرها لبطنها لك مرة بعد أخرى . فهذا الولوع منى بالاعتذار إحساس بالتقصير ، أما من جهتى فلسوء الرواية ، وأما من جهتك فلقلة الدراية . وأنا اسأل الله رب العالمين أن يفرغنى لبلوغ غاية هذا الأمر بقية عمرى ، فإنها فيما أخال قليلة . وماذا يرجو المرء بعد الالتفات إلى خمسين حجة ، قد أضاع أكثرها ، وقصر فى باقيها . فإذا أراد الله نجاة عبده تولاه بلطف من عنده .

المقابسة السابعة والثلاثون

الانسانية أفــق

قال ارسطاطاليس ، فيما ترجم من كلامه عيسى بن زرعة المنطقى البغدادى أبو على : الإنسانية أفق ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع ، ودائر على مركزه ، إلا أن يكون موقوفاً بطبيعته مخلوطاً بأخلاق بهيمية . ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله

على غاربه ، وشتت هواه فى مرعاه ، ولم يضبط نفسه عما تدعو إليه بطبعه ، وكان لِّين العريكة لاتباع الشهوات الردية ، فقد خرج عن أفقه ، وصار ارذل من البهيمة ، بسوء إيثاره .

هذا آخر ما ترجمه من هذا الفصل . وهو كما ترى وعظ بحكمة ، وإيقاظ برأفة ، وتعليم بنصيحة ، وإرشاد ببيان . لو روى هذا للحسن البصرى ، ومنصور بن عمار ، وضربائهما ، ما زاد على ذلك .

المقابسة الثامنة والخمسون

سمعت أبا سليمان يقول : نحن نساق بالطبيعة إلى الموت ، ونساق بالعقل إلى الحياة . لان الذى هو بالطبيعة قد أحاطت به الضرورة ، والذى بالعقل قد أطاف به الاختيار ، ولهذا الفرق الذى استبان ، وجب أن نستسلم لأحدهما ، ونتحزّم للآخر . ولا يصح الاستسلام إلا بطيب النفس فيما لا حيلة فى دفعه ، ولا يتمّ التحزّم إلا بايثار الجد فيما لا ينال به . والضرورى لا يسعى إليه ، لانه واصل إليك . والاختيار لا يكسل عنه ، لانه غير حاصل لديك . فانظر أين تضع توكلك فيما ليس إليك ، ومن أين تطلب ثمرة اجتهادك فيما هو متعلق بك . ثم قال : نحن نقضى ما علينا ، ونجتهد بما لدينا ، ويجرى الدهر بما شئنا أو أبينا .

وقال أيضا فى هذا الفصل ، على تقطع علائق الحديث ومجاذبة بعض الحاضرين : الانسان مسجون بالضرورة والاختيار . ومع ذاك فمعاده إلى غايته التى هو متوجه إليها من جهة اختياره ، ومتوجه نحوها من جهة اضطراره ، وهذه كالحيرة لا سبيل إلى محوها واستبانة كنهها . وبحق ما عرض لان الصورة عنونت الاختيار ، والهيولى رسمت الاضطرار ، والذى يكون بهما يصرّف على جديلتهما ووتيرتهما . وإنما كان الاختيار منسوباً إلى الصورة بحق الشرف . وإنما كان الاضطرار منسوباً إلى الهيولى بحق الخسة . والإنسان كالاناء لهما ، ولالتباسهما به عرض هذا الصراخ والعويل ، واحتيج فيه إلى القال والقيل . والله المستعان ، فى كل ما عز وهان . فليكن هذا مقنعاً ، إن لم يكن شافياً .

المقابسة الرابعة بعد المائة

المحرك والمسكن

حضرت أبا سليمان يوماً ، فقيل له : إذا كان للاشياء محرك أول ، فلم لا يكون لها مسكن أول ، لان الاشياء تسكن تارة وتتحرك تارة أخرى؟ فقال : الاشياء تتحرك ، كما قلت ، وتسكن . ومعنى تسكن أنها لا تتحرك ، فمحركها فى الحقيقة هو مسكنها ، لانها إليه تتحرك إذا تحركت ، وبه تسكن إذا سكنت ، ولو سكنت لغيره ، لتحركت بغيره ، ولو احتاجت فى التحريك إلى محرك وفى التسكين إلى مسكن غيره ، لكانت إما أن تألف السكون من جهة المسكن ، أو تألف الحركة من جهة المحرك ، فكانت تستمر على الحركة أو علىْ السكون ، أو كان المسكن لا يخليها تتحرك بالمحرك ، أو كان المحرك لا يدعها تسكن بالمسكن . والوحدة ، التى تكرر الايماء إليها ، وترددت العبارة على ألطف الوجوه عنها فى هذا الكتاب ، تأبى الوصف ، وتمتنع من هذه القسمة . وذلك أن المحرك هو المسكن ، والمسكن هو المحرك ، لا لانقسام الواحد الأول بين حالين مختلفين ، ولكن لانقسام الموجودات التى من شأنها الانفعال بالحركة مرة وبالسكون مرة . ولو كانت الاشياء تحتاج فى كل عرض إلى من ينسب إليه لبطل التوحيد رأساً ، أعنى أنها كانت إذا تضامت تحتاج إلى ضام لها ، وإذا تبددت تحتاج إلى مبدد لها ، وعلى هذا سائر السمات . وليس يطرد هذا البحث ، ولا يلزم هذا الاعتراض ، بل المحرك الأول بالتحريك الأول على ما يليق به ، وهو الذى جمع وفرق ، وحرّك وسكن ، وأعاد وأبدى ، وأفاد كل شىء ما كان محتملاً له غير باخس ولا ناقص ، وهذا كلام من سره التوحيد ، فليكن اكثارك له على قدره وقدر حظك منه .

ثم قال : وعلى أن الاشياء ، بنظر آخر ، تنقسم انقساماً آخر ، وذلك أن منها ما سكونه طبيعة له . ومنها ما حركته طبيعة له . ومنها ما هو مهيأ للسكون فى وقت ، وللتحريك فى وقت ، فلا يتحرك فى وقت السكون ، ولا يسكن فى وقت الحركة . فلو أن مجموع هذا الباب راجع إلى واحد متى تحرك شىء فإليه يتحرك ، ومتى سكن شىء ففيه يسكن ، ومتى لزم شىء نهجاً واحداً فله يلزم ، لكن الخلل يدخل ،

والنظام يزول ، والفساد يقع . فان ظن من لا إدراك له ، ولا معقول عنده ، مع هذا ، ان الخلل والفساد قد وقعا بما نشاهد من تغير الأمور ، وتصرف الدهور ، وتلف الانفس ، وزوال النعم ، وتنقص المرائر ، واعتراض الآفات والعلل . فليعلم ان هذا ليس من قبيل ما كنا فيه . وذلك ان كل من أوجب الحركة العلوية بالفعل ، أوجب الحركة السفلية بالانفعال . فبحسب ذلك تمزج هذه الاركان ، ويوجد منها اختلاف الشأن . ولو كان هذا العالم السفلى ثابتاً على صورة واحدة ، كالعالم العلوى الذى هو على صورة واحدة ، لكان لا خوف بين العالمين وكان لا يكون احد العالمين أولى بتحريك الآخر من العالم الآخر بتحريكه . فحينئذ كان يسقط العلوى والسفلى ، فلا يبين الفاعل من المنفعل ، ولا المؤثر من القابل ، ولا البسيط من المركب ، ولا البائد من الدائم ، ولا الصافى من المكدر ، ولا الطرى من الدائر . وهذا كلام مرذول ، ليس عليه بهجة ولا نور . فبالواجب تحرك ما تحرك إلى واحد ، وسكن ما سكن بذلك الواحد ، لان هذه الفروع جارية على أصولها ، وهذه الأواخر تابعة لتلك الأوائل ، أعنى أن كل هيولى مهيأة لصورتها الخاصة لها ، وكل صورة مهيأة لهيولاها الخاصة لها ، فلا تعادى ولا فساد ، ولا تظالم ولا عناد ، فى هذه العناصر والجواهر ، ما دامت سالكة نحو غاياتها ، ساحبة لقوامها إلى مآلها .

قال : ومن ظن فى هذين العالمين غير ما هما عليه فهو فى وادى الوهم ، وأسر الحسبان ، أو به غلبة من مرة ، أو فساد من خلط ، أو لعل تقليد من تقدمه قد اضله وأعماه وأصمه ، لان الحكمة بارزة ، والاساس محكم ، والقدرة ظاهرة ، والعجائب منتشرة ، والنظر مستخرج ، والعقل ممجد ، والنفس بحاثة ، والطبيعة منصرفة ، والأمور موروثة ، والاسرار مكتومة ، والشواهد ناطقة ، والادلة حاضرة ، والاعلام منصوبة . انظر إلى الشمس فى اشراقها ، والنار فى احراقها ، والنجوم فى ائتلافها ، والبحور فى أعماقها ، والأرض فى نباتها والجبال فى انتصابها ، والاودية فى انسكابها ، وإلى الغرائب فى اضعافها واثنائها ، تعلم أن الذى هو واحد فى الحقيقة هو مالك لها ، وأولى بها ، وأقدر عليها ، واعلن عنها . وما أحسن ما قال بعض بلغاء الحكماء ، فإنه قال : لامر ما ربطت الجواهر بالاعراض ، ولامر ما تحركت الكواكب والافلاك ، ولامر ما تباينت العقول والازمان ، ولامر ما تصرفت الليالى والأيام ، ولأمر

ما وضع هذا المهاد مركزاً لهذه الاوتاد ولأمر ما لا يحجز المعانى المحرك عن تقديره أحد . صدق هذا الحكيم الفاضل . الأمر كما ترى على سنن لا حب ، ودليل إما شاهد أو غائب ، إما من جهة الحس واما من جهة العقل . وقد بان بما تشقق القول فيه من هذه المقابسة ان المتحرك متى سلب الحركة ما حرَّكة بقى ساكناً ، فليس يحتاج المتحرك الذى سكن فى الثانى إلى مسكن غير من سلبه الحركة التى سكن بعدها ، وليس المحرك مجبراً على التحريك فيحرك ولا يسكن ، بل هو واهب لحركة المتحرك ونازعها من الساكن ، فالمحرك هو بعينه المسكن ، والمتحرك بعينه هو الساكن . ومن كان طاهر النفس ، صافى القريحة ، صائب النظر ، قصد الجواب ، ولحظ الحق ، بدون ما التأم ها هنا من البيان ، ولم يحوج نفسه إلى شك مؤد إلى وحشة ، فالحق أنس كل عقل ، والباطل وحشة كل نفس .

المقابسة الخامسة بعد المائة

سمعت أبا سليمان يقول : لو لم يكن فى النوم من الحكمة إلا أنه شاهد على المعاد لكفى ، دع ما فيه من راحة الاعضاء ، وسكون الجرم ، واستجلاب القوة إليها بعد العياء والكد . ولو كان النوم حالاً مصمتة ، لا شعور لصاحبها من أولها إلى آخرها ، لكانت الوحشة داخلة ، والشك قائماً ، والتهمة واقعة ، ولكنها حال يتزود الإنسان منها أموراً غريبة ، وأحوالاً عجيبة ، ويتلقف منها غيباً كثيراً ، ويستقبل منها عياناً ظاهراً ، فهل هذا الرمز إلا على ما سلف القول فيه من ثبات النفس على حال واحد لا تنام ، والنوم شبيه بالموت ، فاذن لا تموت ، لان الموت شبيه بالنوم . فالحالان جميعاً قد زلتا عنها ، وحطتا دونها .

وفاتحة هذه المقابسة مدخولة ، ولكن الشيخ كذا قال ، والاعتراض عليه مع علو رتبته فى الحكمة ، وجميل ظننا به فى الاجابة والإصابة ، ليس من حقه علينا ، ولا مما يحمد فى الحال التى تجمعنا . أعنى أنه كان الأولى أن يقول : لو لم يكن فى النوم من الحكمة إلا أنه راحة لأبداننا ، وجمام لأرواحنا ، وتخفيف عنا أثقال ما عملنا فى اليقظة بضروب التصرف وأصناف الحركة ، لكفى . دع ما فيه من الشاهد على المعاد الذى عنه نبحث مجتهدين ، وعليه نكون مضطرين ، ومن أجله ننفث ما فى صدورنا متروحين .

وما أحق ، أكرمك الله ، هذه الغاية بالسعى إليها ، والتشمير لها ، وبذل كل موجود ومذخور دونها ، والاستعانة بكل صاحب وقريب فيها ، واستخلاص الروية فى تحصيل حقيقتها ، ورفض الراحة والدعة عند فرصة تلوح من ناحيتها . وبالحق وجب هذا الاجتهاد والاحتشاد ، وهذا التحفظ والتيقظ ، وهذا التنادى والتحارس ، وهذا التبارى والتنافس ، وهذا الغدو والرواح ، وهذا التثبت والسياح ، لان الإنسان فى هذا العالم ، وان بلغ المنتهى فى أمانى نفسه من كل علم كالهندسة والحساب والنجوم والطب وسائر أجزاء الفلسفة وكذلك ان أشرف على غاية كل علم يتعلق بالأديان والآراء والمقالات والنحل ، فان آخر مطالبه أن يعلم معاده ، ويعرف منقلبه . وكذلك أيضاً إذا بلغ فى الدنيا كل حال عليّة ، وكل دولة سنية ، من المال والثروة واليسار والعزة والأمر والنهى والتأييد على أصناف البرية ، ونيل كل شهوة ولذة ، وبلوغ كل إرادة وأمنية ، فان آخر ما يقترحه أن يقف على ما يتحول إليه ، ويصير مرتهناً به ، ومفكوكاً منه . فقد صار النظر فى هذه الخاصة والخالصة من أشرف ما فى قوة الإنسان ، وأعلى ما فى همته ، وأعظم فوائده . ولغلبة هذا المطلوب على جميع الخلائق حاموا حومه ، وأرادوا مراده ، ووردوا شرائعه ، وسلكوا شوارعه ، وعلوا روابيه ، وخاضوا سوايبه وروايبه ، حتى اتفقوا على إثبات هذه الغاية لشدة حاجتهم إليها ، وتوقد حسرتهم عليها . هذا مع اختلافهم فى تحقيقها على ما ينبغى لها ، حتى هتف قوم بما ألقى على ألسنة الأنبياء . وهينم قوم بما رأوه من التناسخ فى الأدوار ، وتخافت قوم آخرون بأمور تبهرجها معوز ، والإطناب فى احصائها متعب .

فاستخلص ، أكرمك الله ، نيتك وعزيمتك فى البحث عن هذه الغاية ، مع الرفق الذى كل من لابسه ويصير صلة إلى ما طلب منه فان المكث تحت هذا السقف ، على هذا الظهر ، يسير ، والتنقل وشيك ، والحاجة إلى العناد ماسة ، والعائق ، مع هذا كله ، عظيم ، .

الإشـارات الإلهية

أخيرا ، يقترب طرفا الـدائرة ، تـوشـك الـرحلة على الاكتمـال ، ويطلق التوحيدى زفراته الحرى فى هذا النص الرائع الذى لا أجـد له مثيلا فى النثر العربى ، ومن أصعب الأمور اقتطاع جزء منه ، وفصل فقرة عن سياقها ، وأعتـرف اننى حرت طويلا ، ماذا أنا صانع بهذه الذروة ؟ وأخيرا استقر أمرى على أن أرسل اشارة تدل على الاشارات ، اشارة تتكون من ومضتين ، الأولى تتضمن المفتتـح ، والثانيـة رسالـة الغربـة كاملة . وآمل فى اصدار طبعة شعبية ميسرة من هذا النص الكامل .

بسم الله الرحمن الرحيم

ميمون الابتداء مبارك الانتهاء

رسالة (١)

اللَّهُمَّ أنَّا نَسْأَلُك ، ما نَسْأَلُ ، لا عن ثقةٍ ببياض وجُوهِنا عِنْدَك ، وحُسْن أفعالنا مَعَك ، وسَوالِفِ إحساننا قِبلَك ؛ ولكن عن ثقةٍ بكرمك الفائض ، وطمعاً فى رحمتك الواسعة . نعم ، وعن توحيدٍ لا يشوبه إشراك ، ومعرفةٍ لا يخالِطُها إنكار . وإن كانت أعمارُنا قاصرةً عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة ، فنسألك أن لا تردّ علينا هذه الثقة بك ، فَتُشمِتَ بنا من لم تكن له هذه الوسيلة إليك . يا حافظ الأسرار ، ويا مُسْبل الأستار ، ويا واهب الأعمار ، ويامنشىء الأخبار ، ويا مُولج الليل فى النهار ، ويا مُصافِى الأخيار ، ويا مُدارِى الأشرار ، ويا منقذ الأبرار من النار والعار ! عُدْ علينا بصفحك عن زَلَّاتنا ، وأنْعِشْنا عند تتابع صرَعاتنا ، وحط[1] حالنا معك فى اختلاف سكَراتنا وصَحواتنا . وكُنْ لنا ، وإن لم نكن لأنفسنا ، لأنك أوْلى منا . وإذا خِفْنا منك ، فامْزَجْ خوفَنا منك برجائنا فيك . وإذا غَلَب علينا يأسُنا منك ، فتلَقَّه بالأمل فيك . بَشِّرْنا ، عند توجهنا نحوك ، بالوصول إليك . متِّعنا بالنظر إلى نور وجهك . أَسْبغ علينا نعمتك بما وَهَبتَ لنا من توحيدك . ولا تهجرنا بعد وصلك ، ولا تُبْعِدنا بعد قُرْبك ، ولا تُكْرِبْنا بعد رَوْحك[2] . قد عادينا أعداءك فيك ، فلا تُشْمِتْهم بنا لتقصيرنا فى حقك ؛ ووالْينا أصفياءك لك ، فلا تُوحِشنا منهم لسهونا عن واجبك قد كدرنا[3] لك فأَرِحْنا بك ؛ ورفعنا أيدينا إليك فاملأها من برِّك ولطفك . ا هـ . . . . .

إذا زخر بك وادى الدعاء فاعلم أنك مراد بالإجابة وإذا تابع لك المزيد فى النعمة فاعلم أنك معرّضٍ للشكر وإذا اكتنفك الكرب[4] من كل ناحية ، فاعلم أنك مطالب بالتصفية . وإذا توالى عليك هاتف العلم[2] فاعلم أنك محثوث على العمل . وإذا أُشْهِدتَ غيبَ حالك ، فاعلم أنك مخصُوص باليقظة . وإذا غُيِّبت عن شاهِدِ أَمْرِك ، فاعلم أنك غيرُ قابل لِواقع الموعظة ؛ وإذا استوحشت من بقاع الذكر ، فاعلم أنك

---

(١) ص : خطر .
(٢) الروح بفتح الراء : الراحة والنعيم .
(٣) خرم فى الأصل أعلنها ، اكملناه من « الملخص » .
(٤) اى : ألِق عَلىَّ مُصابك .

معزول عن الولاية . وإذا عَمِيتَ عن الاعتبار بآثار السلف ، فاعلم أنك مخُلًّى من يُمْن الهداية . وإذا استحسنت القول واستثقلت العمل ، فاعلم أنك بعيد من التوفيق والعناية ا هـ .

يا هذا ! إن كنت ثاكلاً فنَحْ على ما أُصبتَ به ؛ وإن كنت مكروباً بالسر ، فُبحْ ، فلعلك تشفِى غليلك فيه ؛ وإن كنت طالباً فجِدَّ ، فعساك تصل إلى بغْيتك منه ؛ وإن كنت واجداً فاحفظ ، فإنك غير واثق من ثبات ما ظفرت به . وتَلَطَّف ، جهدَك ، حتى تقف على مكنون أمرك ، فلعلك مُسْتَدْرَجٌ من حيث لا تعلم ، ولعلك مرادٌ بالخصوصية وأنت مُسْتَكْتم . زَيِّن وجهك بالصورة البهية . حَسِّن أثَرَك بالنية القوية التقية . أنت فى مناط الربوبية فلا تهبط إلى قاع العبودية . صانوك فلا تَتَبَذَّل[1] . أعزُّوك ، فلا تَذِلَّ . أعلوْك ، فلا تسفُلْ . غسلوك ، فلا تتوسخ . نَقَّوْك ، فلا تتلطخ . يَسَّرُوك فلا تتعَسَّر . قَرَّبوك ، فلا تتباعد . أحبُّوك ، فلا تتبغَّض . جَدُّوا بك ، فلا تكْسَل . استخدموك ، فلا تَّتكِلْ . أعتقوك ، فلا تتعبَّد . أقالوك ، فلا تتعثر . دعوك ، فلا تتأخر . نسبوك ، فلا تجحد . جبروك ، فلا تنكسر . أَنْبَتوك ، فلا تَذْو . حسَّنوك ، فلا تَقْبحْ . حَلَّوْك ، فلا تسمُجْ . علَّموك ، فلا تجهل . نَّوهوا بك ، فلا تَخْمُلْ . قوَّموك ، فلا تَضْعفْ . لطفوك ، فلا تكثُفْ . أسرُّوك ، فلا تنكشف . انتظروك ، فلا تتوقَّف . أمَّنوك ، فلا تتخوف . قوَّموك ، فلا تَتَعَقَّفْ[2] . نَدَّوْك ، فلا تَنَشَّفْ .

يا هذا ! إنك إن عرفت هذه اللغة ، واستخرجت حالك من هذا الديوان ، وحَصَّلْتَ مالَكَ وعليك من هذا الحساب ، أوشكَ أن تكونَ من المجذوبين إلى حظوظهم ، والراسخين فى علمهم ، والخالدين فى نعمتهم . وإن كنت عن هذه الكنايات عَمِّيا ، وعن هذه الإشارات أعجمياً ، طاحت بك الطوائح ، وناحت عليك النوائح ، ولم توجد فى زُمْرة الغوادى والروائح . مَطَرَتْ سماءُ المحبة ، فلم تبتلَّ بقطرة من قطراتها . وهبَّت ريح الوِلاية ، فلم تَعْبقْ بنسيم من نسمائها . وغنَّتْ ضمائر الحِكَم ، فلم تطرب على لحن من لحونها . وجُلِّيت عرائس الهدى فلم تتشبث بذيل

(١) تبذّل وابتذل : ترك الاحتشام والتصون .

(٢) انعقف الشىء وتعقّف : تعوّج وانعطف .

من أذيالِ واحدةٍ منها . فياجافى الطبع ، ويا قاسى القلب ، وياسىء الاختيار ! كيف يطمع الطامع فى رُشدْك ، وهذا نظرك لنفسك ! أشهد أنك غبين[1] الرأى ، مسلوب التوفيق . على أنه قد بقى من شمسك شفى[2] ، فإن تداركت يقينك رجوتُ لك أن نسلو عن فائِتِك ، وإن جَنَحْت إلى التوانى وذهْبتَ فى آفاق الأمانى لم تِرثْ من حالك إلا حسرةً ، ولم تمضغ بفمك إلا جمرةً . ياهذا ! خَفِّضْ أسى عما ساءَك طِلأبه :

ما كلُّ شائِم بارق يُسقاه !

قد يَسْلَمُ المرءُ مما قد يحاذره	وقد يصير إلى المكروه بالحذر
وما هو كائنٌ ، وإن استَطْلنا	إليه النُّهىَ[3] ، يوشك أن يكونا
ما خَطْبُ من حُرِم الإرادة وادِعاً	خَطْبُ الذي حُرِم الإرادة جاهدا

يا هذا ! خُذْ من التصريح ما يكون بياناً لك فى التعريض ؛ وحَصِّل من التعريض ما يكون زيادة لك فى التصريح ، واستيقن أنه لا حرف ولا كلمة ، ولا سِمَة ولا علامة ، ولا اسم ولا رسم ، ولا ألف ولا ياء ، إلاَّ وفى مضمونه آية تدل على سرٍ مَطْوِى وعلانية منشورة ، وقدرة بادية وحكمة محبورة ، وإلهية لائقة وعبودية شائقة ، وخافية مشوقة وبادية معوقة . فاصرف زمانك كله فى فَلْى هذه الأنباء[4] واستنباط هذه الأَنْباء . على أن زمانك أقصر من ذاك ، أعنى أن يطول لك حتى تقف على كنه حقيقته ، على ما فى باطن ذرة من هذه القصة . وهذه الإشارة ، وإن كانت محدثة للناس فى النفس الضعيفة ، فإنها مُبَشِّرة بعِظم الحال فى الغاية المنيفة . فأتَزِرْ ، حاطك الله ، بالانكماش ؛ وارْتَدِ بالجهد ، واكتمل بالسهر ، واغْرَ[5] بالفكر ، وحَرِّم على بالك أن يلمَّ به الهوينا وَالفتور . وإذا حَلْمَصَ النوم بمرادك ، فتعلَّل به فى

---

(١) الغبين : الضعيف الراى .
(٢) شفيتْ الشمسُ : تَشْفى شفى : غَرَبَتْ .

(٣) استهلت النهى : النهى فى الوصول والبلوغ . واستحلت اى وجدناه طويلا ، اى وجدنا الوصول إليه عزيزا . والبيت للبحترى . وقد ورد ديوانه . « النهج » (ط ص ١٩٢ ش . طبع الآستانة سنة ١٣٠٠ هـ)
(٤) لعلها جمع (لم يرد في لسان العرب) ابنة . وهىَ العيب . والجمع الوارد هو ابن .
(٥) غرى بالشىء يَغْرَى وغُرِى به غرٌ وغَراء . اولع به من حيث لا يحمله عليه حامل .

اليقظة . وزِنْ واتزن ، واخضع واستكن ، وتمهل واستمكن ، وانظر واستحسن ، وسل واستَبِنْ ، وخَفْ واستأمِن ، وَقَرَّ واطمأنن ؛ وارجع فى كل حادث فادح ، وفى كل مغلق وفاتح ، إلى ربك ، بل كن معه وعنده حتى لا تحتاج إلى الرجوع إليه . وإذا ورَدته فلا تصدُر عنه ، وإذا صدَرْتَ عنه فلا تَنسْه .

يا هذا ! الحديثُ ذو شجون ، والقلب طافح بسوء الظنون بما لعلّه يكون أَوْ لا يكون . فكْرٌ يخالطه جهل وجنون ، ويفارقه علم ويقين . لكن بقى أن تَمْلِكَ زمام الفكر كما تملك عِنان الذكر ، لأن القلب هدف ، والهدف لا يزول عن تُجاه الرامى ولا ينحرف ، إلى غير جهة المسدِّد . فمن لك الآن بقُوةٍ بها تُدِّبر فكرك ، أو تكرر ذكرك ، أو تأمن فى أَضعاف مكْرك ونُكْرك ! إنّك ربما أعوججت فى طَىّ مستقيم ، واستقمت فَى المُعْوَجّ . وذلك لأنك مملوك ، والمملوك لا يكون مالكا ، والأول لا يكون ثانياً ، والصاعد لا يكون نازلا .

هذا ، فديتك ! نبأ غريب اسُتنبط من الغيب المكنون ، والسرّ المخزون . فإذا كان هذا خبراً عن بعض ما تراه العين ، فأين تجدك فيما يجده القلب ! ثم أين أنت عما وراء ذلك مما لا يبدو إلا بإذن الحق الذى أخفى الخوافى فى البوادى ، وأبدى البوادى فى الخوافى ، ثم حكم بالبوادى على أنها الخوافى ، وعكس الخوافى على أنها البوادى ، لتكون ملكوته محفوفة بالعِبْرة بعد العَبِرة ، ولينقلب المتصفحون عنها بالحسرة بعد الحسرة ؟ ذلك سرٌّ لا سبيل إلى السؤال عنه ، لأنه جُرْأة عليه ، والجُرْأة موجبة للمقت ، والمقت باب إلى السخط ، والسخط جالب لِلبعاد . ولا سبيل أيضاً إلى الجواب عنه ، لأنه مَحْوٌ للكل ، وتطويح للعقل ، ولَبْسٌ[1] على التحصيل وطَمْس على الدليل ، واغترابٌ فى الوطن ، واجتذابٌ للحَزَن ، واختلاط للقبيح فى الحسن . فسبحان من وارى منافع ما جُهِلَ مِنْ سَره فى عُرْض[2] ما عُـرْف من علانيته ! وسبحان من لوشاء لأرانا فى الذى أرانا غَيْرَ ما أرانا ، وأتانا من لدنه سوى ما أتانا ! فعلنا بذلك كنا على سكون لا تعتوره حركة ، أو على حركة لا يعتقبها[3]

---

(١) من : لَبَس عليه الامر : خلطه وجعله مشتبها بغيره .
(٢) عُرْض : ناحية .
(٣) يَخْلُفُها .

سكون . فإن الحركة والسكون ، فيما كان ويكون ، قد أبليا جِدّتنا[1] ، وأكلا جدَّتنا ، وأضعفا شِدّتنا ، وأفنيا عُدّتنا . فلم يبق منا إلاّ ذَماء[2] ينبض فى حُشاشاتٍ مضمحلة ، لا يطرقها طارق الا بحِدْثان غريب ، والأحوال مُرادة ، والأوقات مُبادة . فلا حسيسَ[3] فيُتعلَّلُ به ، ولا أنيسَ فيستراح إليه . إنما هو رنين وأنين ، وحنين وزفرات ، تُسْخِن[4] العيون ، وتخيِّل الظنون ، وتُبرز الفنون من مَلاحظ العيون . فأين الأمان ، وإنا[5] أُتينا من المأمن ! وأين المطلوب ، وإنما عطِبنا فى الطلب ! وكيف الطلب ، وإنا هلكنا بالوجدان ! ومَنْ لنا بالخبر ، وقد بُؤْنا بالأَثَر ! وهل لنا من مناص ، وقد أُخِذْنا بالنواصى ! هيهات ! اليأسُ مما لا ينال احدى الراحتين ، والسَّلْوة عما لا يُدْرَك إحدى العاقبتين . بلى ! إنْ صَدَق الفألُ وصَحَّ الزَّجْرُ ، وصادف الإلهام حقاً ، وارتفع الخُلُق عن أن يكون خَلَقاً[6] ، فلعلَّ نسيم الأشجار يعبث بهذه الأرواح المتهتكة ، ويتميز بهذه الصفات المشتركة ، فَنَكُرَّ على خزائن الغيب بالنَّهْب ، ونُوَقِّح وجوهَنا بالاعتذار ، ونخلع أرساننا[7] بالتملق ، ونسترد حقوقنا المغصوبة ، ونتبادر إلى أعلامنا المنصوبة ، ثم نجلس على منابر الرضوان مترملين فى عِطاف أولياء الحق ، نحمد على آفاتٍ زالت طالما خُرِجَتْ الصدورُ بها ، ونقترح أمانِيَّ طالما طَمَحت العيون إليها .

فإذا كان ذلك وعن قريب يكون ذلك ونشاهد ما هنالك ، فيالك من رَوْحٍ لا كرب بعده ، ويالك من صَفْوٍ لا كدر معه ، ويا لك من وَصْلٍ لا هَجْر يشيّيعه ، ويا لك من قَبولٍ لا ردَّ يريبهُ ! اللهم لا تحرمنا هذه المُقامة[8] فى دار المقام ، فإنك أنطقتنا بوصفها ، وشوَّقتنا إليها بذكرها . فبحُرمة إنطاقِك لنا بوصفها ، وبذمام تشويقِك إيانا إياها ، إلاّ أنعمتَ بالنَا بالقرار معك ، وأقررتَ أعيننا بالنظر إلى وجهك ، وحققت آمالنا فى ذُرى دار عزّك ، وصدقتَ رجاءنا بما أسلفتنا من فضلك ، فإنك الجواد إذا

---

(1) الجِدَّة : بكسر الجيم : ضد البلى .
(2) ذَماء : بقية النَّفَس .
(3) حسيس : صوت خفى .
(4) اسخن الله عيْنَه وبعينه : اى انزل ما يبكيه . وعكسه : اقر الله عينه .
(5) ص : ابن .
(6) خلقاً : اى فاسدا .
(7) جمع رُسْن : حبل . اى قُوانا .
(8) المقامة (بضم الميم الاولى) : الإقامة .

لم تُسْأَلْ ، فيكف إذا سُئِلْتَ ! والمنعِمُ إذا لم تُطالَب ، فكيف إذا طولبت !

يا هذا ! قد اخترط الحق لساناً لا يمرُّ بَصدْع إلا شَعَبَه[1] ولا يُلمُّ بقَلْب إلا رَعَبه[2] ، ولا يُطِلُّ على فاسد إلا أصلحه ، ولا يقرع باباً إلا فتحه ، ولا يَبِلُ[3] على نبتٍ إلا اعلولب[4] ، ولا يجتاز بوادٍ إلا اعشوشب . فأَصِخْ إليه ، واملأ عِيانك منه ، فليس فى كل حينٍ تُحال عن الماء والطين ، ولا فى كل زمان تُخصُّ بالأمان ، ولا فى كل بُقْعة تؤهل للرفعة ، ولا فى كل وقت تُناغَى بلحن مُطْرِب ، أو تُناجى بلسان مُعْرِب . فالبِدارَ البِدار ، إلى محل الأبرار الأخيار ، الذين يجلو بصحبتهم الحنظلُ الحَوْلىِ[5] ، ويخف برؤيتهم الخفوف عن هذا العالم السُّفْلى إلى محل ذلك العَلْوى . ومتى اتهمتنى[6] فى هذه النصيحة فشاوِرْ عقلَك وإلا فاستنصح أوثق الناس فى نفسك ، وأوضَحَهم سِمةً فى الشفقة عليك . وإلا فقدِّم الاستخارة لله عز وجل ، فإنه إذا اسْتُهدِى هَدَى ، وإذا استُنْصِحَ أَسْدَى ، وإذا فُزِع إليه كَفَل ، وإذا تُوُكِّل عليه سَهَّل ، وإذا طُلب ما عنده جاد ، وإذا سئل ثانياً وثالثاً أعاد ؛ لا يؤوده[7] شىء ، ولا يُعوزه شىء ، ولا يفوته شىء . وكيف يؤوده أو يعوزه أو يفوته وهو أول كل شىء وآخره ، ومُبْرِزه ومُظْهِره ومُسُّرِه ومُضْمِره !

ذلك الله ربُّ العالمين .

يا هذا ! دارت اللغاتُ على مراكز المعانى بفَوْت المُدْرِك ، وإدراك الفائت ، بلا رسم معهود ولا أثرٍ مشهود ولا دليل قاطع ورائد صادق ، بل طسمٍ وقسم وحسم ؛ إن جُهل فبالواجب ، وإن عُلم فهو العَجَب العاجب . اللهم إنَّا فى سكْرة من وارداتك ، وفى حيرة من مجارى أقدارك ؛ وليتك إذ لم تُخصَّنا بانكشاف العين ، لم تشعرنا التمنى لما لم تَجْرِبه مشيئتك ، ولم يسبق فى معلومك .

إلهنا ! قُدْنا بزمام طاعتك إلى كريم حضرتك ، واعصمنا من كيد كل كائد لنا من

---

(١) شَعَب من باب قطع : جمع ، فرق ، اصلح ، افسد ـ ضد .
(٢) رعبه : كسر رُغبَه وازاله .
(٣) وَبَل ، يَبِل : أمطر الوبلَ وهو شديد المطر .
(٤) ماخوذة على وزن اعشوشب من غَلَب : من باب نصر : اشتدّ وقسا .
(٥) اى الذى بقى عاما ، ولعله يكون شديد المرارة .
(٦) اتهمه بكذا اتهاماً : ادخل عليه التُّهَمَة (كهمزة) ، اى ما يتهم عليه .
(٧) أد ، يؤود : اعيا ، اعجز .

أجلك ، وامْحُ أسماءنا من ديوان غيرك ، واكتبنا فى المُنيبين[1] إليك ، الذاكرين لك ، المفتخرين بك ، المبتهجين بقربك ، المغمورين بعطائك ، المذكورين بحضرتك ، المتوَّجين بتاج صفوتك ، المخصوصين بالاطلاع على إسْرارِك وإعْلانك ، المطمئنين على بساط خبرك وعِيانك ، ياذا الجلال والإكرام !

رسالة الغربة[2]

سألتنى ـ رفَق اللهُ بك ، وعَطَف على قلبك ـ أن أذكر لك الغريب ومحَنِهَ ، وأصِفَ لك الغُرْبة وعجائبها ، وأمرَّ في أضعاف ذلك بأسرارٍ لطيفة ومَعانٍ شريفة ، إما مُعَرِّضاً ، وإمّا مُصرِّحاً ، وإما مُبَعّداً ، وإما مقرِّبا . فكنت على أن أجيبك إلى ذلك . ثم إنِي وجدت فى حالي شاغلاً عنك ، وحائلاً دونك ، ومُفَرِّقاً بينى وبينك . وكيف أخْفِضُ الكلام الآن وأرفَع ، وما الذى أقول وأصنع ، وبماذا أصبر ، وعلى ماذا أجزع ؟ وعلى العلات التى وصفتها والقوارف التى سترتها أقول :

إنَّ الغريبَ بحيث ما حَطّتْ ركائِبُه ذليل
ويدُ الغريب قصيرةٌ ولسانُهَ أبداً كليل
والناس ينصرُ بعضهم بعضاً وناصِرُه قليل

وقال آخر :

وماجَزَعاً مِنْ خَشْية البَينْ أخْضَلَتْ[3] دُموعى ، ولكنَّ الغريبَ غريبُ

يا هذا ! هذا وصفُ غريب نأى عن وطنٍ بُنِيَ بالماء والطين ، وبَعُد عن ألأف له عَهْدُهِم الخشونة واللين ، ولعله عاقرهم الكأسَ بين الغُدْران والرياض ، واجتلى بعينه محاسن الحَدَق المِراض ؛ ثم إن كان عاقبة ذلك كله إلى الذهاب والانقراض ، فأين أنت عن قريب قد طالت غربتُه في وطنه ، وقلّ حظه ونصيبه من حبيبه وسكَنه ؟! وأين أنت عن غريب لا سبيل له إلى الأوطان ، ولا طاقة به على الاستيطان ؟! قد علاه الشحوب وهو في كِنّ ، وغلبه الحزن حتى صار كأنه شَنٌّ[4] . إن نطق نطق حزنان

---

(١) اناب إليه : رجع ، عاد ، التجا .

(٢) عنوان الرسالة فى النص الأصلى رسالة (با) . والعنوان من وضعنا .

(٣) خَضِل (من باب فرح) خَضَلاً ، وأخْضَلَ واخْضَلَّ واخضوضل : نَدِى وابتل . فهو خَضِل وخاضل .

(٤) الشَّنُّ (وبهاء) القِربة الخلق الصغيرة . والجمع : شِنان .

منقطعا ، وإن سكت سكت حيران مرتدعا ؛ وإن قرب قرب خاضعاً ، وإن بَعُدَ بعد خاشعاً ، وإن ظهر ظهر ذليلاً ، وإن توارى توارى عليلاً ؛ وإن طلب طلب واليأسُ غالبٌ عليه ، وإنْ أمسك أمسك والبلاء قاصد إليه ؛ وإن أصبح أصبح حائل اللون من وساوس الفِكْر ، وإن أمسى أمسى مُنْتَهَبَ السر من هَواتك السِّتْر ؛ وإن قال قال هائباً ، وإن سكت سكت خائباً ؛ قد أكله الخمول ، ومَصَّه الذبول ، وحالفه النحول ؛ لا يتمنى إلا على بعض بنى جنسه ، حتى يفضى إليه بكامِنات نفسه ؛ ويتعلّل برؤية طلعته ، ويتذكر لمشاهدته قديمَ لَوْعته ؛ فينثر الدموع على صحن خده ، طالباً للراحة من كده .

وقد قيل : الغريب مَنْ جفَاه الحبيب . وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حاباه الشريب[1] ، بل الغريب مَنْ نُودى مِنْ قريب ، بل الغريب من هو فى غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . فإن كان هذا صحيحاً ، فتعالَ حتى نبكى على حالٍ أحدثت هذه النَفْوة ، وأورثت هذه الجَفْوة :

لعَّل انحدارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ راحةً من الوَجْد أَوْ يَشْفِى نَجِىَّ البلابل[2]

ياهذا ! الغريبُ من غَرَبَتْ شمسُ جماله ، واغترب عن حبيبه وعُذّاله ، وأَغرَبَ فى أقواله وأفعاله ، وغَرَّب فى إدباره وإقباله ، واستغرب فى طِمره[3] وسِرْباله . يا هذا ! الغريب من نطق وصفُه بالمحنة بعد المحنة ، وذلّ عُنوانه على الفتنة عُقَبْ الفتنة ، وبانت حقيقته فيه فى الفينة حَدَّ الفينة . الغريب من إن حضر كان غائباً ، وإن غاب كان حاضراً . الغريب من إن رأيته لم تعرفه ، وإن لم تره لم تستعرفه . أما سمعت القائل حين قال :

بِـمَ التـعلُّل ؟! لا أهــلٌ ولا زمـنٌ ولا نـديمٌ، ولا كـأسٌ، ولا سكَنُ[4]

هذا وصفُ رجل لحقته الغربة ، فتمّنى أهلاً يأنَسُ بهم ، ووطناً يأوى إليه ، ونديماً يَحُلُّ عُقَد سِّره معه ، وكأساً ينتشى منها ، وَسكَناً يتوادع عنده . فأما وصف الغريب

---

(١) الشريب : من يشارك فى الشرب : من يستقى أو يسقى معك : النديم ، ويقصد به نديم المحبوب .

(٢) هذا البيت لذى الرُّمّة (راجع ديوانه ، نشر كارتنى ص٤٩٢ بيت رقم ٢ . كمبردج سنة ١٩١٩م/ ١٣٣٧هـ) .

(٣) الطمْر : الثوب البالى : والسربال . القميص ، أو كل ما يلبس .

(٤) السكن (محركةً) : كل ما يستأنس به .

الذى اكتنفته الأحزان من كل جانب ، واشتملت عليه الأشجان من كل حاضر وغائب ، وتحكمت فيه الأيام من كل جانب وذاهب ، واستغرقته الحسرات على كل فائت وآيِب ، وشتّته الزمان والمكان بين كل ثقة ورائب ، وفى الجملة ، أتت عليه أحكام المصائب والنوائب ، وحطته بأيدى العواتب عن المراتب ، فوصف يخْفى دونه القلم ، ويفنى من ورائه القرطاس ، ويشل عن بَجِسْه[1] اللفظُ ، لأنه وصف الغريب الذى لا اسم له فيذكر ، ولا رسم له فيُشْهَر ، ولا طىٌّ له فينشر ، ولا عُذْرَ له فيعُذر ، ولا ذنب له فيغفر ، ولا عَيْبَ عنده فيُسْتَر . ا هـ .

هذا غريبٌ لم يتزحزح عن مَسِقْط رأسَه ، ولم يتزعزع عن مَهَبِّ أنفاسه . وأغربُ الغُرباء من صار غريباً فى وطنه ، وأبعَدُ البُعَداء من كان بعيداً فى محل قُرْبه ، لأن غاية المجهود أن يسلوْ عن الموجود ، ويُغْمِض عن المشهود ، ويُقْصى عن المعهود ، ليجد من يغنيه عن هذا كله بعطاء ممدود ، ورِفْدٍ[2] مرفود ، وركن موطود[3] ، وحَدٍ غير محدود .

يا هذا ! الغريب من إذا ذَكَرَ الحقَّ هُجِر ، وإذا دعا إلى الحق زُجِر . الغريب من إذا أَسْنَدَ كُذِّب ، وإذا تطاهر[4] عُذِّب . الغريب من إذا امتار لم يَمْرِ[5] ، وإذا قَعَد لم يُزَرْ . يا رحمتا للغريب[6] ! طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب ، واشتد ضَرَرُه من غير تقصير ، وعظم عناؤه من غير جدوى !

الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه[7] لم يدوروا حوله . الغريب من إذا تنفّس أحرقه الأسَى والأسف ، وإن كتم أكْمَده الحُزْن واللَّهَف . الغريب من إذا أقبل لم يُوَسَّع له ، وإذا أعرض لم يُسْئَل عنه . الغريب من إذا سأل لم يُعْطَ ، وإن سكت لم يُبْدَأ . الغريبُ مَنْ إذا عطَس لم يُشَمَّت[8] ، وإنْ مَرِض لم يُتفقّد . الغريب

---

(١) وَشل يشل : قل وضعف وافتقر ؛ ومنه الوَشَل : الماء القليل . والبجس : تفجُّر الماء ، ومنه : عين بجيس : غزيرة .

(٢) أى : عطاء مُعْطى .

(٣) وطيد ، ثابت .

(٤) تنزه عن الأدناس . أو أصلها : تظاهر (بالظاء المعجمة) ؟

(٥) مار عياله يمير ميراً وامارهم وامتارلهم : جلب لهم الطعام .

(٦) يا رحمتنا للغريب بالبلد النازح ماذا بنفسه صنعا !

(٧) ص : رواه .

(٨) التشميت والتسميت : الدعاء للعاطس .

من إن زار أُغْلِق دونه البابُ ، وإن استأذن لم يُرفع له الحجاب ا هـ .

الغريب مَنْ إذا نادى لم يُجبْ ، وإن هادى لم يُحبَّ . اللهم إنّا قد أصبحنا غُرباء بين خلقك ، فآنسنا فى فِنائك . اللهم وأمسينا مهجورين عندهم ، فِصلْنا بِحبائك[١] . اللهم إنهم عادَوْنا من أجلك لأنّا ذكرناك لهم فنفروا ، ودعوناهم إليك فاستكبروا ، وأَوْعدناهم بعذابك فتحيرّوا ، ووعدناهم بثوابك فتجّبروا ، وتعرّفنا بك إليهم فتنكّروا ، وضُنّاك عنهم فتنمّروا ؛ وقد كِعْنا[٢] عن نذيرهم ، ويئسنا من توقيرهم .

اللّهُمَّ إنّا قد حاربناهم فيك ، وسالمناهم لك ، وحكمنا لهم عنهم لوجهك ، وصَبَرْنا على أذاهم من أجلك ؛ فُخْذ لنا بحقنا منهم ، وإلاّ فاصرِفْ قلوبَنا عنهم ؛ وأنْسنا حديثهم ، واكفنا طِّيبهم وخبيثَهم .

أيها السائل عن الغريب ومحنته ! إلى ههنا بلغ وصفى فى هذه الورقات . فإن استزدتَّ زِدْتُ ، وإن اكتفيتَ اكتفيتُ ، والله أسألُ لك تسديداً فى المبالغة ، ولى تأييداً فى الجواب ، لنتلاقى على نعمته ، ناطقين بحكمته ، سابقين إلى كلمته .

ياهذا ! الغريب فى الجملة من كله حُرْقة ، وبعضُه فُرْقة ، وليلُه أَسَف ، ونهارُه لهف ، وغَدَاؤه حَزَن ، وعشاؤه شَجَن ، وآراؤه[٣] ظِنن ، وجميعه فِتن ، ومَفْرِقه مَحِن ، وسُّره عَلَن ، وخَوْفُه وطَن .

الغريب من إذا دعا لم يُجب ، وإذا هاب لم يُهب .

الغريب مَنْ « إذا » استوحشَ اسوُحِشَ منه : اسِتوحَشَ لأنه يرى ثوب الأمانة ممزقاً ، واستوحِش منه لأنه يجد لما بقلبه من الغليل مُحْرِقاً .

الغريب مَنْ فَجْعته مُحْكَمة ، ولوعته مُضرْمة .

الغريب من لُبِسته خِرْقة ؛ وأكلته سَلْقة ، وهَجْعته خَفقة .

دع هذا كله ! الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعياً إليه . بل الغريب مَن تهالك فى ذكر الله متوكلاً عليه ، بل الغريب من توجّه إلى الله قالياً لكل من سواه . بل الغريب من وهب نفسه لله متَعرضاً لجدواه .

---

(١) الحباء (بكسر الحاء) العطية : مهر المرأة .
(٢) كِعْت عنه اكيع واكاع ، كَيْعاً وكيعوعة : إذا هبته وجُبُنتُ عنه ، فهو : كائع ، وهم : كاعة .

(٣) ص : ورواه . وظِنَن جمع ظَنِه بالكسر : تُهمة . او : وراؤاه ؟ جمع رؤية .

يا هذا ! أنت الغريب فى معناك .

أيها السائل عن الغريب ! اعمل واحدة ولا أقل منها ، وإذا أردت ذِكْرَ الحق فأنسَ ما سِواه ، وإذا أَرَدْتَ قُرْبَه فابُعد عن كل ما عداه ، وإذا أردت المكانة عنده فَدَعْ ما تهواه لما تراه ، وإذا أردت الدُّعَاء إليه فَميِّز مالك مما عليك فى دعواه . طاعاتك كلها مدخولة ، فلذلك ما هى ليست مقبولة . هممك كلُّها فاسدة ، فلذلك ليست هى صاعدة . أعمالك كلها زائِفة ، فلذلك ليست نافعة . أحوالك كلها مكروهة ، فلذلك ليست هى مرفوعة . ويلك ! إلى متى تنخدع ، وعندك أنك خادع ؟ وإلى متى تظن أنك رابح ، وأنت خاسر ؟ وإلى متى تدّعى ، وأنت منَفىّ ؟ وإلى متى تحتاج ، وأنت مكفى ؟ وإلى متى تبدى القلق ، وأنت غنىّ ؟ وإلى متى تهبط ، وأنت عَلّى ؟ ما أعجب أمر تَّراه بعينك ، ألهاك عن أمر لا تراه بعقلك . الحمار أيضاً يرى بعينه ولا يرى بغيرها . أفأنت كالحمار فتعذر ؟ فإن لم تكن حماراً ، فلِمَ تتشبّه به ؟ وإن كنت ، فلِمَ تدّعى فضلاً عليه ؟ وإذا لم تكن حماراً بظاهر خِلْقك وصبْغتك ، فلا تكُنْه أيضاً بباطن نيتك وجَلّيتك . قد والله فَسَدْتَ فساداً لا أرجوك معه لفلاح ، ولذلك ما أدرى بأىّ لسان أحاورك ، وبأى خُلُقٍ أجاورك ، وفى أى حقيقةٍ أشاوِرُك ، وبأى شىء أداورك ؟ سُرِك كُفران ، ولفظك بُهْتان ، وسرُورك طغيان ، وحزنك عِصيان ، وغناك مرح وبَطَر ، وفقرك ترح وضجر ، وشِبَعُك كظَّة[1] وتُخمة ، وجُوعك قنوط وتُهَمه ، وغَزْوك رياء وسُمْعة ، وحَجُّك حيلة وخُدْعة ، وأحوالك كلها بَهْرَجٌ وزَيفٌ ، وأنت لا تحاسب نفسك عليها : هَلُمَّ ، ولا : بِلَم وكيف اهـ .

ماأسعد من كان فى صدره وديعة الله بالإيمان فحفظها حتى لا يسلبها منه أحد ! أتدرى ما هذه الوديعة ؟

هى والله وديعة رفيعة هى التى سبقت لك منه وأنت بَدَدٌ[2] فى التراب لم تجمعك بَعْدُ الصورةُ ، ولم يقع عليك اسم ، ولم تُعْرَف لك عَينْ ، ولم يَدُلَّ عليك خبر ، ولا يحويك[3] مكان ، ولم يَصْفِك عِيان ، ولم يُحِطْك بيان ، ولم يأت عليك أوان . أنت فى ملكوت غيب الله ثابتٌ فى علم الله ، عُطُلٌ[4] من كل شىء إلا من مشيئة

---

(١) الكظة (بالكسر) : البطنة .
(٢) اى متفرق .
(٣) ص : يحوك .
(٤) عُطُل (بضمتين) متجرد ، عار عن .

الله . تُرَشَّح لمعرفته ، وتُلحظ فى صفوته ، وتُؤَهَّل لدعوته . فما أسعدك أيها العبد !
فهذه العناية القديمة من ربك الكريم الذى نظر لك قبل أن تنظر لنفسك ، وأيدك بما لم تهتد إليه همتك ، حتى إذا نَشرَ مَطْوِيَّك ورتَقَ مُفتَّقك ، وجمع مفتَرِقَك ، وقوّم مُنْأدَّك[1] ، وسوَّى مُعْوَجَّك وفتح عينك ، وطرح شعاعها على ملكوته التى جعلها قُبالة بصرك ، وعرّفك نفسك ، ودعاك باسمك ، وشهرك بحكمته فيك ، وأظهر قدرته عليك ، وعجَّبك وعجَّب غيرك منك ، ولاطفك ولطف لك ، وَبينّ لك مكانتك إذا أطعت ، ومهانتك إذا عصيت . وثَبْت على شهواتك فتناولتها ، وعلى لذّاتك فانهمكت فيها ، وعلى معاصيك (لمن هذا حديثه معك) فركبت سنامها ، ولم تفكر فيما خلفها وأمامها . ولما قيل لك : اتَّقِ الله ! أخذتْك العِزَّةُ بالإثم ، وبُؤْتَ فيما فيك من نعم الله عليك تَهُرُّ[2] على ناصحك ، وتهزأ بالمشفق عليك ، وتُحاجُّه بالجهالة ، وتقابله بالكبرياء والمَخِيلة[3] . إنك عندى لمن المسرفين ، بل من المجرمين ، بل من الظالمين ، بل من الفاسقين ، بل من المطرودين ، بل ممن قد تعرَّض لأن يسلبه الله ما أعطاه ، ويجعل النار مأواه ، حتى يصير عبرة لمن وراه[4] اهـ .

يا هذا ! أَحَجَرٌ أنتَ ؟ فما أقسى قلبك ! وما أذهبك فيما يغضب عليك ربك ! أبينك وبين نفسك تِرَةٌ[5] أو كيد ؟ هل يفعل الإنسان العاقل بعدُوِّه ما تفعله أنت بروحك ؟ لا ينفعك وعظ وإن كان شافياً ، ولا ينجَعُ فيك نُصْحٌ[6] وإن كان كافياً ! اللهم تفضل علينا بعفوك إن لم نستحق رضاك .

ياذا الجلال والإكرام .

---

(١) المنأدّ : المعوج .

(٢) هرّ الكلبُ : نبح وكشّر عن انيابه .
(٣) الكبرياء .
(٤) اى وراءه ، يتبع سيرته .
(٥) تِرَة : ثأر .
(٦) ص : نصحاً .

لمـاذا أحرقت كتبى

كان أبو حيان التوحيدى قد أحرق فى أزمة غضبية كتبه « لقلة جدواها ، وضنا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته » على حد قوله ، فكتب إليه القـاضى أبو سهـل على بن محمـد يلومه على فعلته فأجابـه أبو حيـان برسالة عاطفية مُسَوِّغـاً فيها إقـدامه على حرق كتبه .

اعتمدنا على الطبعة الصادرة فى دمشق بتحقيق د. ابراهيم الكيلانى .

نص الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

(. . حَرسَكَ الله أيُّها الشيخ مِنْ سُوءِ ظنّي بمودتك ، وطُول جفائِك ، وأعاذني من مكافأتك على ذلك ، وأجارنا جميعاً مِمَّا يُسَوِّدُ وَجْهَ عهْدٍ إن رعيناهُ كُنَّا مُسْتأْنسين به ، وإنْ أهملناهُ كُنَّا مستوحشينَ من أجلِهِ ، وأدامَ الله نعمته عندك ، وجَعَلَني على الحالاتِ كُلِّها فداك .

وافاني كتابُكَ غَيْرَ مِحتَسَبٍ ولا مُتَوَقَّعٍ ، على ظمأ بَرَّح بي إليه ، وشكرتُ الله تعالى على النعمةِ به عليَّ ، وسألتهُ المزيدَ من أمثالِه ، الذى وصفتُ فيه بعد ذكر الشَّوق إليَّ ، والصبابةِ نحوى ما نال قلبكَ ، والتهبَ فى صدرك من الخبر الذى نَمىَ إليكَ فيما كان منى من إحراقِ كتبى النفيسة بالنار وغسلها بالماء ، فعجبتُ من انزواءِ وَجْهِ العُذْر عنك فى ذلك ، كأنَّكَ لم تقرأْ قولَهْ جلَّ وعزَّ : (كُلُّ شيءٍ هالِكٌ إلا وَجْهَهُ له الحُكْمُ وإليه تُرْجَعُون[1]) وكأَنَّكَ لم تأْبَهْ[2] لقوله تعالى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ[3]) وكأنَّك لم تعلم أنَّهُ لا ثباتَ لشيءٍ من الدُّنيا وإن كان شريفَ الجوهر ، كريمَ العُنْصُر ، مادام مُقلَّباً بيدِ الليل والنهار ، معروضاً على أحداثِ الدَّهر وتعاود الأيام : ثُمَّ إني أقول ، إنْ كان ـ ايدَّك الله ـ قد نَقَبَ خُفَّكَ ما سمعتَ ، فقد أدمى أظَّلي[4] ما فعلتُ ، فليَهُنْ عليك ذلك ، فما انبربتُ له ، ولا آجترأتُ عليه حتى استخرتُ الله عزَّ وجَلَّ فيه أياماً وليالَى حتى أوحى إليَّ فى المنام بما بَعَثَ راقِدَ العَزْم ، وأجَدَّ فاترَ النيَّةِ ، وأحْيا ميِّتَ الرأى ، وحَثَّ على تَنْفيذ ما وَقَع فى الرَّوْع ، وتربَّع فى الخاطر ؛ وأنا أجودُ عليك الآنَ بالحجَّةِ فى ذلك إنْ طالبْتَ ، أو بالعُذرِ إن آستوضحتَ . لِتَثِقَ بى فيما كان منّى ؛ وتَعْرِفَ صُنْعَ الله تعالى فى ثَنْيهِ لى .

إنَّ العِلْمَ ـ حاطك الله ـ يُرادُ للعَمَل ، كما أنَّ العَمَلَ يُرادُ للنَّجاةِ ؛ فإذا كانَ العَمَلُ قاصراً عن العِلْمِ ، كان العِلْمُ كَلاًّ على العالم ، وأنا أعوذُ بالله من عِلْمٍ عادَ كَلاًّ ، وأوْرَثَ ذُلاًّ ، وصارَ فى رَقَبةِ صاحبه غُلاًّ .

---

(١) القرآن الكريم : ٢٨ ـ ٨٨ سورة القصص .
(٢) تابه : تكثرت .
(٣) القرآن الكريم : ٥٥ ـ ٢٦ سورة الرحمن .
(٤) الأظل : باطن الأصبع .

ثم آعلمْ ـ عَلَّمكَ الله الخيرَ ـ أنَّ هذه الكُتُبَ حَوَتْ مِنْ أصنافِ العلم ، سرّه وعلانيتهُ ، فأما ما كان سراً فلم أجِدْ له من يتحلَّى بحقيقته راغِباً ، وأمَّا ما كان عَلانِيَةً فلم أُصِبْ مَنْ يحرص عليه طالباً ، على أنى جمعتُ أكثرها للناس ، ولطلبِ المثالَةَ منهم ، وَلِعَقْد الرياسة بينهم ولِمدِّ الجاه عندهم ، فَحُرِمْتُ ذلك كُلَّهُ ، ولاشَكَّ فى حُسن ما آختاره الله لى ، وناطهُ بناصيتى ، وربطهُ بأمرى ، وكَرِهْتُ مع هذا وغيره أن تكونَ حجَّةً علىَّ لا لى .

وممَّا شحَذ العَزْمَ على ذلك ، ورفَعَ الحجابَ عنهُ انى فَقَدْت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً وتابعاً أديباً ، ورئيساً مُنيباً فشقَّ علىَّ أنْ أدعَها لقومٍ يتلاعبونَ بِها ، وَيُدَنِّسُونَ عِرْضِى إذا نظروا فيها ، وَيَشْمتُونَ بسَهْوى وغلطى إذا تصفَّحوها ، ويَتراءَوْنَ نقصى وعَيْبى من أجْلها .

فإنْ قلتَ : ولم تِسَمُهُم بِسُوءِ الظَنِّ ، وتُقَرِّعُ جماعَتهم بهذاالعيب ؟ فجوابى لك أن عِيانى منهم فى الحيَاة هو الذى يُحَقِقُ ظَنّى بهم بعد الممات ، وكيفَ أتركُها لأناسٍ جاورتُهُم عشرين سنة فَمَا صَحَّ من أحذهم وِدادٌ ؟ ولا ظَهَرَ لى من إنسانٍ منهم حِفَاظٌ ، ولقد آضْطُرِرْتُ بَيْنَهُم بعد الشُّهرِة والمعرفِة فى أوقات كثيرةٍ إلى أكل الخُضَرِ فى الصَّحْراءِ وإلى التكُّففِ الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمُروُءَة ، وإلى تَعاطى الرِّياء بالسُمعة والنِّفاق ، وإلى مَالاَ يَحْسُنُ بالحُرِّ أن يَرْسِمَهُ بالقَلَمِ ، وَيَطْرَحَ فى قلب صاحبه الألم ، وأحوالُ الزَّمانِ باديةٌ لعينكَ ، بارزةٌ بَيْنَ مسائكَ وصباحكَ ، وليس ما قلتُه بِخافٍ عليكَ ، مع معرفتكَ وفطنتكَ وشدة تَتَبعِكَ وتفرُّغكَ ، وما كان يجب أن ترتابَ فى صواب ما فعلتُهُ وأتيتُهُ بما قَدَّمْتُهُ ووصفتُهُ ، وبما أمسكتُ عنهُ وطويتُه ، إمَّا هَرَباً من التطويل ، وامَّا خوفاً من القال والقيل ، وَبَعْدُ فقد أصبحتُ هامةَ اليوم أو غدٍ ، فانى فى عَشْرِ التِّسْعِينَ ، وَهَلْ لى بعد الكَبْرَةِ والعجزِ أمَلٌ فى حياة لذيذة ؟ أو رَجَاءٌ لحالٍ جديدة ؟ أَلَسْتُ من زُمرة من قال القائُل فيهم :

نـروحُ ونـغـدو كُـلَّ يـومٍ وليـلةٍ   وَعمَّـا قليـلٍ لا نـروحُ ولا نـغْـدو

وكما قال الآخر :

تَفَـوَّقْتُ دَرَّاتِ الصِّبـا فى ظـلالـهِ   إلـى أنْ أتـانى بـالـفـطامِ مَشِيبُ

وهذا البيتُ لُلوردِ الجَعْدى وتمامُهُ يضيق عنه هذا المكان ، والله يا سيدى لَوْ لَمْ

أتَّعِظْ إلا بمن فقدتُهُ من الإخوان والأَخْدَان فى هذا الصُّقْع من الغُرباء والأدباء والأحبَّاء لَكَفى ، فكَيْفَ بمن كانت العين تَقَرُّ بهمْ ، والنفسُ ، تستنير بُقربهم فَقَدْتُهمُ بالعراق والحجاز والجَبَل والرَّىّ ، وما وَالَى هذه المواضعَ ، وتَواتَرَ إلىَّ نَعْيُهُمْ ، واستدَّتِ الواعية بهم فهل أنا إلا من عُنصرهمَ ؟ وهل لى مَحيدٌ عن مصيرهم ؟ أسألُ الله تعالى ربَّ الأولين أن يجعلَ آعترافَى بما أعرفُهُ موصولاً بنزوعى عما أقترفُه ، إنه قريب مُجيب .

وَبَعْدُ ، فلى فى احراقِ هذه الكُتُبِ أُسوةٌ بأئمةٍ يُقتدى بهم ، ويُؤخذ بِهَدْيهم ، وَيُعْشَى إلى نارهم ، منهم : أبو عمرِ بن العَلاءَ[1] ، وكان من كبار العلماءِ مع زهدٍ ظاهرٍ وورعٍ معروفٍ ، دَفَنَ كتبَهُ في بطنِ الأَرض فلم يوجد لها أثَرٌ . وهذا داود الطائى[1] وكان من خِيَار عباد الله زُهداً وفقهاً وعِبادَة ، وَيُقال له تاجُ الأمة ، طَرَحَ كتبه فى البحر وقال يُناجيها : نِعْمَ الدليلُ كُنْتِ ، والوقوفُ مع الدَّليل بعد الوُصولُ عناءٌ وذُهولٌ ، وبلاءٌ وخُمولٌ .

وهذا يُوسُف بن أسْباط[٣] : حَمَل كتبه إلى غارٍ فى جَبَلٍ وَطَرَحه فيه وسدَّ بابه ، فلما عُوتب على ذلك قال : دلَّنا العلمُ فى الأول ثم كاد يُضِلَّنا فى الثانى ، فهجرناه لوجه من وَصَلْنَاهُ ، وكرِهْنَاه من أجل ما أردْناه .

وهذا أبو سَليمان الدَّارانى[٤] : جمَع كتبه فى تَنُّورٍ وَسَجَرهَا بالنار ثم قال ؛ والله ما أَحرقُتكِ حتى كِدُت أحترقُ بكِ ! وهذا سُفيان الثَّوْرى مزَّقَ ألف جزءٍ وطَيَّرها فى

---

(١) أبو عمرو زبَّان بن عمَّار التميمي المازنى البصرى احد ائمة العربية واحدالقراء السبعة قال ابن خلكان : « كان أعلم الناس بالقرآن الكريم والعربية والشعر . وهو فى الطبقة الرابعة من على بن ابى طالب » وقال الزبيدى « كان أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها من عبدالله بن ابى اسحاق . وكان من جِلَّة القراء والموثوق بهم » وفيه قال الفرزدق مادحا :

مازلت اغلق أبوابا وافتحها ... حتى اتيت أبا عمرو بن عمار

وقال صاحب الوفيات : « قال ابو عبيدة · كان ابو عمرو اعلم الناس بالقراءات والعربية وايام العرب . وكان دفاتره ملء بيت إلى السقف ثم تنسك فاحرقها » توفى ابو عمرو سنة ١٥٤ هـ او ٥٧ او ٥٩ هـ .

(٢) أبو سليمان داود بن نصير الطائى الكوفى صوفى « شغل نفسه بالعلم ودرس الفقه ثم اختار العزلة والانفراد والخلوة والعبادة واجتهد فيها إلى آخر عمره » قدم فى ايام المهدى ثم عاد إلى الكوفة وبها كانت وفاته سنة ١٦٠ هـ وكان محارب بن دثار يقول : « لو كان داود فى الامم الماضية لقص الله تعالى شيئا من خبره » .

(٣) يوسف بن اسباط الشيبانى احد الزهاد الواعظين قال البخارى : « كان قد دفن كتبه . فكان لا يجيء بحديثه كما ينبغى .

(٤) أبو سليمان عبدالرحمن بن احمد بن عطية العنسى الدارانى الزاهد المشهور من اهل داريا احدى قرى دمشق . كان متصوفا « من جلة السادات وارباب الجد فى المجاهدات » . توفى سنة ٢١٥ هـ .

الريح وقال :

لَيتَ يدى قُطِعَتْ من ها هُنا ، بل مِنْ ها هُنا ولم أكتب حرفاً !

وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافى[1] سيّدُ العلماء قال لولده محمد : قد تركتُ لك هذه الكتب تكسبُ بها خيرَ الأجل ، فإذا رأيتَها تخونُك فاجعلها طُعمةً للنار ، وماذا أقولُ وسامِعِى يُصَدّقُ أنّ زماناً أحْوَجَ مِثْلى إلى ما بَلَغَكَ ، لَزمانٌ تَدْمَعُ له العينُ حزناً وأسىً ، ويَتقطعُ عليه القلب غيظاً وجوىً ، وَضَنًى وشَجًى ، وما يصنع بما كانَ وحدثَ وبانَ ، إنِ احتجْتُ إلى العلم فى خاصَّةِ نفسى فقليلٌ ، والله تعالى شافٍ كافٍ ، وإنِ احتجْتُ إليه للناس ففى الصدر منه ما يَملأ القِرطاس بعْدَ القرطاس ؛ إلى أن تَفْنى الأنفاسُ بعد الأنفاسِ (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ الله عَلَيْنَا وعلى النَّاس ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمون)[2] فَلِمَ تُعْنّى عينى ـ أيدك الله ـ بعد هذا بالحِبْر والورق والجلد والقراءة والمقابلة والتصحيح ، وبالسَّواد والبياض ، وهل أُدرك السلفُ الصالح فى الدين الدرجات العُلى إلاّ بالعمل الصالح ، وإخلاصِ المُعْتَقَدِ ، والزُّهد الغالب فى كُلِّ ما راقَ من الدنيا وخدعَ بالزِّبْرجِ[3] وهوى بصاحبه إلى الهُبُوطِ ؟ وَهَل وَصَل الحكُماء القدماء إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد فى السَّعى ، وإلاَّ بالرضا بالمَيْسور ، وإلاَّ ببذل ما فَضَل عن الحاجة للسائل والمحروم ؟ فأيْنَ يُذهَبُ بنا وعلى أىِّ بابٍ نحطُّ رِحالنا ؟ وهل جامعُ الكتب إلاّ كجامع الفضة والذهب ؟ وهل المَنهُومُ بها إلاَّ كالحريصِ الجشعِ عليهما ؟ وهَلِ المُغْرم بحبِّها إلا كمكاثِرِهما ؟ هَيْهاتَ الرحيلُ والله قريب ، والثَّواءُ قليل ، والمضْجَعُ مُقِضٌّ[4] والمقام مُمِضٌّ[5] والطريقُ مَخوفٌ ، والمعينُ ضعيفُ ، والاغترارُ غالب ، والله من وراء هذا كلِّهِ طالب ، نسألُ الله تعالى رحمةً يُظلُّنا جَناحها ، ويُسهِّل علينا فى هذه العاجلة غدوَّها ورواحها ؛

---

(١) ابو سعيد الحسن بن عبدالله المرزبانى السيرافى النحوى القاضى الفقيه كان يدرس فى بغداد القرآن وعلومه وكان عفيفا متقشفا وهو استاذ ابى حيان التوحيدى الذى قال عنه : « شيخنا ابو سعيد السيرافى هو اليوم عالم العالم ، وشيخ الدنيا ، ومقنع اهل الأرض » توفى السيرافى سنة ٣٦٨ هـ .

(٢) سورة يوسف ١٢ ـ ٣٨ .

(٣) زَبْرَجَ الشىء : حسنه وزينه . الزبرج : الزينة من وشى او نحوه .

(٤) قضَّ واقضَّ المكان او الطعامُ : صار فيه القضض اى صغار الحصى ، واقضَّ المضجع : خشن ويقال : اقضَّ الله مضجعه : خشنَّه .

(٥) امضَّه : المه وممض : مؤلم .

فالويْل كلُّ الويلِ لمن بعُدَ عن رحمته بعد أن حَصَل تحت قَدرَه فهذا هذا ، ثم إنّى ـ أيدك الله ـ ما أردتُ أن أجيبك عن كتابك لطول جفائك ، وشدة التوائك عمّن لم يزل على رأيك مجتهداً ، وفى محبّتك على قربك ونأيك ، مع ما أجده من إنكسار النشاط ، وانطواء الانبساط ، لتعاودِ العلل عَلَىَّ ، وتخاذلِ الأعضاءِ منّى فقد كلَّ البصر ، وانعقدَ اللسانُ ، وجَمَدَ الخاطر ، وذهب البيانُ ، ومَلَكَ الوَسواس ، وغلب اليأسُ من جميع الناس ، ولكنّى حَرَسْتُ منك ما أضعتَه منّى ، وَوَفَّيْتُ لك بما لم تَفِ به لى ، ويَعِزُّ علىَّ أن يكونَ لِىَ الفَضْل عليك ، أو أُحْرِزَ المزِّية دونك ، وما حَدَانى على مكاتبتك إلا ما أتمثَّلُهُ من تشوُّقك إلىَّ ، وتحرُّقكَ علىَّ ، وأنَّ الحديث الذى بَلَغَك قد بَدَّدَ فكرك وأَعْظَمَ تعجُّبَكَ ، وحَشَدَ عليك جَزَعك والأول يقولُ :

وَقَدْ يَجْزَعُ المرءُ الجليدُ ويَبْتَلى عزيمةَ رأى المرءِ نائبةُ الدهرِ

تعاوِدُهُ الأيامَ فيما ينوءُ به فَيَقْوىَ على أمرٍ ويضعُف عن أمرِ

على أنى لَوْ عَلِمتَ فى أى حالٍ غَلَب علىَّ ما فعلتُه ، وعند أىِّ مرض ؛ وعلى أيَّةِ عُسرةٍ وفاقةٍ لعرفتَ مِنْ عُذرى أضعاف ما أبديتُه ، واحتججتَ لى بأكثَر مما نشرتُه وطويتُه ، وإذا أنعمت النظر تيقَّنتَ أن الله جَلَّ وعَزَّ فى خَلْقِهِ أحكاماً لا يِعَازّ[1] عليها ولا يغالبُ فيها ، لأنه لا يُبْلَغُ كنْهُهَا ، ولاَ يُنال غيْبها ، ولا يُعرف قابُها ، ولا يُقرع بابُها ، وهو تعالى أملك لنواصينا ، واطلعُ على أدانينا وأقاصينا ، له الخلقُ والأمر ، وبيده الكسر والجَبْر ، وعلينا الصمتُ والصبر ، إلى أن يوارينا اللحدُ والقبر والسلام .

إن سرَّكَ ـ جعلنى الله فدَاك ـ أن تواصلني بخبرك ، وتعرفنى مَقَرَّ خطابى هذا من نَفسك فافعل ، فانىَّ لا أَدع جوابك إلى أن يقضىَ الله تعالى تلاقياً يَسُرُّ النفس ؛ وَيُذَكِّرُ حديثنا بالأمس ؛ أو بفراق نصيرُ به إلى الرُّمس ؛ ونفقدُ معه رؤيةَ هذه الشمس ، والسلامُ عليك خاصاً بحق الصفاء الذى بينى وبينك ؛ وعلى جميع إخوانك عاماً بحق الوفاء الذى يجب علىَّ وعليك والسلام .

---

(١) عازّه مُعَازّةً : عارضه فى العِزّة .

□ محتــويــات الكتـــاب □

رقم الايداع
٩٥/٩٢٣٠
الترقيم الدولى
I - S.B.N.
977 - 08 - 0259

خلاصة التوحيدى

على بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدى ، إمام النثر العربى ، المجدد ، المؤصل ، ناصع الموهبة . عميق المعاناة ، وأعظم من عبر عن غربة الإنسان . حياة عاصفة ، وظروف شاقة يتحداها بموهبته الفذة ، تناقض صعب بين الأديب المدرك لقيمة ذاته ، وسبل تأمين العيش التى يجب أن يسلكها ، تناقض أوصله إلى حرق كتبه فى مشهد رهيب ، ما وصلنا منها قليل . وما تم تحقيقه وطبعه أصبح فى ندرة المخطوطات . ومع احتفال مصر بالذكرى الألفية للتوحيدى يقدم المجلس الأعلى للثقافة هذه المختارات من أعماله . أعدها الأديب الروائى جمال الغيطانى بعد معايشة نثر التوحيدى سنوات طويلة . لاتُعرف المختارات بآثار التوحيدى فقط ولكنها تقدم رؤية فريدة تضفى أبعادا جديدة على نثر التوحيدى وابداعه ، تجعله ميسرا . متاحاً للكافة ، هذا النثر الرائع ، الجميل ، المكتوب منذ ألف عام ، والذى يبدو كأنه كُتب اليوم ، وهكذا سيُقرأ بعد مئات الأعوام . تلك نصوص تتجاوز الأزمنة والأمكنة وتستقر فى أعمق نقاط الوجدان الإنسانى .

